بالماء تحيا اسرائيل

الدكتور عبد الله عبد الدايم

ان المعركة المائية معركة حربية في حقيقتها .
ان استراق (المياه) العربية لا يقل خطراً عن
استراق (الأرض) العربية ... بل يفوقها .

يشهد العرب — وهم في قلب احدى معارككهم الكبرى الحاسمة ضد مؤمرات اسرائيل — أقتل السهام توجه الى أسمى القيم الانسانية، وأخطر كبوة تتعرض لها هذه القيم، في فترة خيل للانسان فيها أن شعاعاً من الامل الجديد أخذ يشرق في الفجر ، مشيراً بانطلاق حدي نحو عالم يستطيع فيه الانسان أن يحقق الحضارة الجديرة بالانسان .

واخطر ما في هذه المعركة ، أن منتهكي القيم الانسانية فيهـــا ، يفعلون ذلك باسم القيم الانسانية ،وأن صارعي آمال الانسان يلبسون لبوس حواريي الدعوة الانسانية .

لقد قلنـا اكثر من مرة — مع جمهور اصحاب الفكر الحر في العالم — ان الايمان بالقيم الانسانية لدى امة من الامم ، لا يقاس عن طريق « القيم — الاصنام » المنقوشة في الدساتير أو المسطورة في الأقوال ، وانما يقاس بمقدار ما للانسان فعلا في داخل هذه الامة وخارجها من قيمة واحترام. وأخطر ما تصاب به المبـــادىء الانسانية والديمقراطية أن تصبح « حجة وتبريراً » وأن تغدو « تتويجاً رائعاً للوحشية » على حد تعبير ماركس .

ومثل هذا الاصطناع للمبادىء من اجل تهديم المبادىء ، ومثل هذا التحليق الزائف في عالم القيم على حساب القيم، هو مايراه العالم اليوم ، وسط هذا الضجيج الذي تبثه الدول الكبرى والذي يهدف الى الانتصار لاسرائيل في محاولتها الجديدة للتمكين لوجودها على حساب العرب .

فالدعوة الى السلام والى التعـــايش السلمي ، تغادر العالم الدامي في الكثير من اطرافه بما اجترحت أيدي الكبار ، وتغادر المعنيين الحقيقيين بهذه الدعوة وبذلك التعايش ، وتتجه الى العرب والى العرب وحدهم ! فهم المدعوون ــ قبل سواهم ــ الى السلم والحياة المطمئنة الآمنة مع جيرانهم! وهم الذين يتوجب عليهم ــ على حساب تعاسة مئات الالوف من اللاجئين وعلى حساب بؤس امتهم بأسرها ــ أن يعملوا لخلاص الانسانية من مشكلة الحرب عن طريق انتجاع الأساليب السلمية ،تلك الاساليب التي يؤمن الكبار ــ في مثل هذه المناسبة وحدها ــ انها افضل الحلول واعقلها ! والامل الكبير ــ الامل المسطور في كلام الانبياء وعلى مباني الامم المتحدة ــ الامل في يوم تمتنع فيه دولة عن أن تستل السيف في وجه دولة اخرى ــ يتخلى عن حمله القـــادرون على تحقيقه ، ويحملونه العرب ، والعرب وحدهم في هذه الآونة : فعليهم تعقد الآمال في تحقيقه ، ولهم يرجون أن يديروا خدهم الايسر لمن صفعهم على خدهم الايمن ، وهم الذين يتوجب عليهم أن يقابلوا بالعناق جيرانهم الذين اغتصبوا دارهم وشردوا رجالهم ! وعند ذلك ، عندما تسلك الدول الصغيرة سلوك الاغبياء هذا ، وعندما تقابل آلات الفتوح بمسوح الاتقياء ، تغدو السبيل ممهدة امام الدول الكبرى ، « سبيل مقـــاومة الفقر والجهل والتعاسة والمرض واعداء الانسانية الذين يشنون منذ سنوات حرباً على الانسان وآماله » .

أما الماء فينبغي ان يكون ترياقاً يجمع بين الامم ولا يفرق ، وأن يكون غيثاً وسلسبيلا ييسر سبل السلم ويبعد عن سبل الحرب ! وماذا لو اقتسم العرب مياههم مع اسرائيل ، ليوفروا لها اسباب الحياة والقوة وهي الجارة العطشى الغرثى ! بل ، لماذا لا يتعاون الجميع من اجل التغلب على مشكلة الميـــاه في اسرائيل ــ اسرائيل في كل مكان ــ ولـــماذا لانضع العلم والبحث العلمي والتقدم الفني في خدمة هذه القضية الانسانية ، فنقلب الملح الأجاج الى عذب فرات ، ونقدم تجربة تفيد منها اسرائيل وجارات اسرائيل ايضاً ؟ وهل من الانسانية في شيء أن نمنع الري عن الارض البوار، وان ندع الصحراء ــ صحراء النقب فهي وحدها الصحراء ــ تئن وتتلوى حنينا الى قطرات الماء ؟

هــذا هو صوت الانسانية الذي نسمعه اليوم ، وهذا هو اللحن المبتكر الذي يقدمه لنا كبار المنادين بالمبادىء الانسانية العاملين لها في زعمهم . انه الدعوة الى سلم يحققه الاقوياء على حساب الضعفاء والى تعايش ومساكنة يفرضها الغاصبون على الابرياء ، والى محبة تملأ قلب المظلومين لتيسر

طعنة الظالمين . انه صوت الآمال الكبار ، آمال الانسانية في عالم افضل يكون العرب اول بناته عندما يطأطئون هاماتهم امام من استل سيفه ليخرجهم من ديارهم . انه صوت القوي يقهقه وهو يدعو الى الاحتفال بمقتل الضعيف ويعده بأكاليل الغار تتراشق على قبره ، قبر من مات ليحيا غيره ، ليحيا عدوه ولتحيا الانسانية ممثلة بهذا العدو . ولماذا لايكون العرب شهداء الانسانية وقربانها ؟ أوليست الانسانية في اشد الحاجة الى شهداء ابطال ؟

* * *

وبعد ، وراء هذا الواقع الضاحك الباكي ، تنهض الوقائع صارخة جلية ، لتقول كلتها في غير استحياء . انها تصرخ بملء فيها لتقول شيئاً واحداً لاثاني له : **لقد أوجد الاستعمار اسرائيل على حساب العرب ، ولكن اسرائيل ومعها الاستعمار يدركان اليوم أن العرب لم يدفعوا بعد الثمن الكافي لبقاء اسرائيل ، وأن لاسبيل لهذا البقاء الا على حساب تضحيات جديدة يقدمها العرب** . إن عليهم ـ بعد أن استلبت اسرائيل جزءاً من ديارهم ـ ألا يدعوا هذا الجزء نهباً للصعوبات والعقبات التي يواجهها ـ وعلى رأسها مسألة ندرة المياه وعليهم بالتالي ـ بعد أن قدموا فلسطين هدية لبني اسرائيل أن يقدموا لاسرائيل أسباب البقاء . والدول الكبرى التي أوجدت اسرائيل ، لايجوز أن تبقى عند حدود هذا الشوط ، فوجود اسرائيل الحقيقي يعني قدرتها على التغلب على ماتعانيه من صعوبات ويعني أن تكسر الطوق المضروب حولها ، لتنتهي يوماً بعد يوم الى ابتلاع الارض العربية . اذ هل يعقل أن تستمر اسرائيل وتبقى مادامت هنالك دول مجاورة معادية ، لاتتخلى عن حصارها لاسرائيل ولا تيسر لها سبيل البقاء ! ان هذه الدول عقبة في طريق اسرائيل ، وانها تجعل حياتها صعبة وبقاءها عسيراً ، وتثير بذلك المشكلات ، مشكلات السلم في المنطقة ، وتظلم اسرائيل وتحول دون أبسط حقوقها المشروعة ، حقها في الحياة ، في تعمير أرضها ، في رفع مستواها الاقتصادي في توفير الدخل اللائق لمليونين ونيف ، في اعداد العدة لاستقبال أعداد جديدة من المهاجرين ينبغي ان تتزايد يوما بعد يوم !

ولكي نفهم معنى هذه الحقيقة ، لنحاول أن نبحث بحثاً موضوعياً علمياً في كيان اسرائيل وأن نتبين في خاتمة المطاف أن هذا الكيان في حاجة الى الماء كي يبقى ، وفي حاجة الى صلح قسري أوطوعي مع الدول العربية ليحيا ولتكون له جولته الثانية مع هذه الدول .

ان هذا البحث الموضوعي هو الذي سيرينا أن اسرائيل ـ التي خلقها واصطنعها الاستعمار ـ لم توجد بعد وجوداً باقياً مكيناً على نحو مانرجو ، ولن توجد كما ينبغي أن توجد وتستقر الا

بالماء أولا ، وبفك الطوق العربي من حولها ثانياً ، وبالاتساع على حساب العرب ثالثاً نتيجة لهذا كله. انه يرينا رؤيا العين أن جولتها الحقيقية التي تثبت وجودها وتمكن لكيانها لم تكن جولة عام ١٩٤٨ وإنما هي الجولة التي تجند لها اليوم كل قواها وقوى المتنصرين لها ، جولة الماء ، جولة الحياة الثاوية وراء الماء ، جولة القوة التي يأتي بها الماء . انه يقدم الدليل على تلك الحقيقة التي أصبحت ذائعة لدى جميع الذين درسوا أوضاع اسرائيل ، وهي **أن نقص المياه هو العائق الحاسم في وجه التطور السكاني والاقتصادي والعسكري لاسرائيل ، وأن اسرائيل لن توجد حقاً الا عندما يوجد الماء** . فالجهود الفنية المبذولة ، والمساعدات المالية السخية التي تتلقاها اسرائيل وسائر انواع الدعم التي تتمتع بها ، سوف تقف عند حد لاتتجاوزه اذا لم تجد الماء اللازم لري اراضيها واستغلال ثرواتها .

١ ـ مساحة فلسطين المحتلة مساحة صغيرة : ٢٠٧٠٠ كم٢ ..وما هو قابل للزراعة من هذه المساحة مع ذلك لايفوق ربعها ، أي حوالي ٥ آلاف كيلو متر مربع . ونصف مساحتها تقريباً ، أي حوالي ١٠ آلاف كيلو متر مربع ، تشغله الصحراء .

وبالاضافة الى صغر المساحة وصغر مايزرع منها ، تقوم مشكلة الري ، فلا تكفي المياه الموجودة في اسرائيل للافادة من جميع الاراضي الصالحة للزراعة . ورغم كل الجهود التي بذلت في السنوات الاخيرة لاتتجاوز الارض المروية ١٤٠٠ كم٢ فقط . وعندما تستنفد سائر الجهود لن تزيد مساحة الارض المروية ـ كما يقدر الخبراء ـ على ضعف هذه المساحة .

٢ ـ وفي مقابل ذلك يتزايد عدد سكان فلسطين المحتلة تزايداً كبيراً . فبعد أن كانوا عند خلق دولة اسرائيل في الخامس عشر من مايس عام ١٩٤٨ يقلون عن ٨٠٠ الف نسمة ، أصبحوا يطوفون الآن حول المليونين ونصف المليون . والمقدر حسب الخطط الموضوعة أن يبلغوا أربعة ملايين على الاقل في عام ١٩٧٠ .

٣ ـ ثروات اسرائيل الطبيعية الاخرى ثروات محدودة ، فالثروات المعدنية قليلة (البوتاس وبعض المعادن الاخرى من البحر الميت ، والفوسفات من النقب ، وبضعة آلاف من الطونات من النحاس في السنة من مناجم «تيمنا» والقليل القليل من البترول) . والطاقة الكهربائية خاصة معدومة ، بسبب انعدام المياه الكافية .

٤ ـ ونتيجة هذا كله أن الجانب الكبير من الدخل القومي مصدره القطاع الاقتصادي الثالث ، أي قطاع التجارة والخدمات ، بدلا من أن يكون مصدره خاصة القطاع الاقتصادي الاول

نعني الزراعة ثم القطاع الاقتصادي الثـــاني نعني الصناعة . ومن هنا نجد أن ثمة كثيراً من الاعمال الطفيلية والزائفة في اسرائيل ، وأن ثمة فيضاً في عدد التجار خاصة . ومن هنا نرى ايضاً أنالقوة العامـــلة في فلسطين المحتلة موزعة توزيعاً شاذاً : فأقل من ٢/١٠ من هذه القوة العاملة يعملون في الزراعة ، و ٣/١٠ منهايعملونفي الصناعة ،و٥/١٠ في الخدمات . وهذا يعني تضخم قطاع الخدمات تضخماً فاضحاً ، على حساب قطاع الزراعة خاصة ، فهو قطـــاع ضامر رغم ان الارض هي الثروة الاساسية في اسرائيل . ومرد ذلك خاصة الى نقص المياه اللازمة لاستثمار الارض .

٥ ـ يجمع الباحثون على أن اسرائيل مدينة ببقائهـــا خلال السنوات الماضية للمساعدات الخارجية بالدرجة الاولى. فلقد تلقت خلال السنواتالعشر الماضية عونا خارجياً متوسطهمائةدولار لـكل شخص في السنة . ولولا هذا العون لمـا تمكن الاقتصاد الاسرائيلي أن ينهض على قدميه . على ان هـــذا العون لايمكن ان يستمر ـ او لايمكن ان يستمر بالمقدار نفسه على اقل تقدير (فالتعويضات الالمانية مثلا تتوقف) ـ وان هو استمر فلن يستطيع حل المشكلات الرئيسية التي لايقوى على حلها . نعني مشكلة القيود الصارمة التي يفرضها نقص الماء على مشروعات التنمية .

مشكلة المياه اذن عقبة حاسمة في طريق تقدم اسرائيل وفي طريق بقائهـــا . فلنحاول تبين هذه المشكلة بتفصيل أكبر :

١ ـ مياه الامطارفي اسرائيل كما نعلم قليلة . وهي لاتتجاوز في المتوسط ٣٠٠ مم في العام، يضيع ثلثاها في التبخر عن طريق حرارة الشمس .

٢ ـ تقوم جهود كبيرة لزيادة كمية المياه . ومع ذلك فـكمية المياه المستخدمة في اسرائيل لم تجاوز ١٢٢٧٥ مليار متر مكعبعام ١٩٦٠ . ويأمل الباحثون ان تؤدي المشروعات المستمرة الى ان تبلغ المياه عام ١٩٧٠ كمية قدرهـــا ١٫٨ مليار متر مكعب ، لاتمكن الاستفادة الا من ١٫٥ مليار متر مكعب منها . وهـــذه الـكمية الاخيرة ستكون موزعة على النحو التالي (فيما اذا قامت اسرائيل بتحويل مجرى نهر الاردن حسب خطتها) :

من مياه الآبار	٨٠٠ مليون متر مكعب			
مننهرالاردنوالانهار والينابيع الاخرى	٥٠٠	=	=	=
من مياهالوديان	١٠٠	=	=	=
من تكرار استخدام المياه	١٠٠	=	=	=

هذا مع العلم أن نهر الاردن لايقدم الان سوى ١٥٠ مليون متر مكعب .

وهذه الـكميات كلها كميات ضئيلة ، واذا لم تتمكن اسرائيل من تحويل مجرى نهر الاردن فمعنى هذا ان اقتصادها سوف يواجه في المستقبل القريب سداً لا يستطيع تجاوزه .

٣ ـ وان كمية المياه المستخدمة حاليـا ، وقدرها ١٢٧٥ مليون متر مكعب كما ذكرنا ، موزعة (حسب احصاءات عام ١٩٦٢) ، على النحو التالي :

للزراعة	١٠٤٠ مليون
للصناعة	٦٠ =
للاستهلاك المنزلي	١٧٥ =

ومعنى هذا ان معظم المياه الحالية مستخدمة في الزراعة ، ولكنهـا مع ذلك لا تفي بجزء من حاجاتهـا . فلقد ذكرنا ان فلسطين المحتلة تشمل ٥٠٠ ألف هكتار تقريباً من الاراضي الصالحة للزراعة ، بينما لا يروى منهـــا حالياً الا حوالي ١٤٠ ألف هكتار . اي أن كل هكتار يستهلك حوالي ٧ آلاف متر مكعب من الماء . وعلى هذا الاساس يحتاج ري القسم الباقي من الاراضي الصالحة للزراعة الى ٣ مليارات متر مكعب . ومن هنا نرى ضخامة المشكلة ، ومن هنا نرى بوضوح أن الماء ـ لا التربة ـ هو العامل المضيق للانتاج وللاقتصاد القومي هنالك .

٤ ـ ثمن التكلفة للمتر المكعب من الماء يبلغ حوالي عشرين قرشاً سوريا . على انه سوف يبلغ ـ بعد المشروعات الجديدة المرتقبة ـ قدراً أكبر (حوالي ٢٥ قرشاً سوريا) . والثمن مرتفع كما نرى . اما ثمن البيع في الزراعة فيبلغ الآن حوالي ١١ قرشاً سوريا لكل متر مكعب من الماء . ولا يعوض هذه الخسارة الناجمة عن سعر البيع بالقياس الى سعر التكلفة ، ارتفاع سعر مبيـع المياه في الخدمات المنزلية ، ولابد من مساعدة تقدمها الحكومة تبلغ حاليا حوالي القرشين في كل متر مربـع .

٥ ـ في مقابل هذا كله ، يزداد عدد سكان اسرائيل كما ذكرنا زيادة كبيرة عن طريق التـكاثر الطبيعي وعن طريق الهجرة . وفي حين تبقى الموارد المائية ثابتة تقريباً ، وفي حين لا يقدر أن يتوافر للزراعة في اسرائيل عام ١٩٨٠ اكثر من ١٫١ مليار متر مكعب ، من المتوقع ان يتضاعف عدد السكان وان تصبح أعباء اطعامهم وتعهدهم متعذرة .

٦ ـ من أجل هذا جهدت اسرائيل وتجهد من اجل ايجاد مخرج لمشكلة المياه هذه ، عن طريق العديد من المشروعات :

فهي تقوم بتجارب لاحداث مطر صناعي ، لن تكون نتائجها واضحة قاطعة قبل حوالي عشرين عاما ، كما يقدر الخبراء .

والمشروع الذي أشار اليه الرئيس جونسون في خطابه ، ليس بالمشروع الجديد كما نعلم . فالجهود تبذل منذ سنوات في اسرائيل من أجل ازالة الملاحة من المياه المالحة ومن مياه البحر .

والابحاث قائمة منذ امد ، لهذه الغاية ، بالتعاون بين اسرائيل وبين الولايات المتحدة. على ان العلماء مايزالون يشككون في امكان نجاح مثل هذه التجارب . ذلك ان ثمن تكلفة المتر المكعب من المياه التي يتم الحصول عليها عن هذا الطريق سوف يبلغ ، في تقدير الخبراء ، حوالي ١٢٥ قرشاً سوريا ؛ وأشد الباحثين تفاؤلا يقدرون الثمن بما لايقل عن ثمانين قرشاً سورياً . ومثل هذا الثمن يمكن ان يقبل الى حدما في الاستخدام المنزلي ، ولاتصح الفائدة منه في الزراعة . ومع ذلك فالجهود التي تبذل في هذا الميدان واسعة ، وكثير من الباحثين يعقدون الآمال الجسام على التقدم العلمي الذي يفوق في سرعته في كثير من الاحيان اكثر النبوءات تفاؤلا . والرجاءمعقود، عند بعضهم ، على أن يتمكن العلم وتقدمه من جعل ثمن تكلفة المتر المكعب من ماء البحر الذي أزيلت ملوحته حوالي اربعين قرشاً سوريا ، وعند ذلك ـ فيا يقول هؤلاء ـ تحل مشكلة المياه نهائياً . وقد اشار الرئيس الاميركي في خطابه الاخير الى المساعدات المالية الضخمة التي ستقدم لهذه الغاية ، كما اشار الى استخدام الطاقة النووية في هذا السبيل .

وفي هذه الاشارة الاخيرة تنوي معان هامة ، غير المعاني الظاهرة. فهي تعني ان الولايات المتحدة سوف تعير اهتمامها بعد اليوم للاعمال السرية التي تقوم منذ سنوات في مركز الطاقةالذرية في «ديمونا» (في صحراء النقب) . ويزيد من أهمية هذا الموقف الجديد ان الولايات المتحدة لم ترحب من قبل الترحيب الكافي بالاتفاق الفرنسي الاسرائيلي الذي أدى منذ سنوات الى انشاء مركز « ديمونا » هذا والذي يستهدف صنع قنبلة ذرية اسرائيلية . وكلنا يذكر ان بنغوريون صرح في عام ١٩٦٠ ، رغبة منه في التخفيف من امتعاض الولايات المتحدة وانكلترا تجاه هذا الاتفاق ، ان مركز ديمونا سوف يقتصر على الابحاث الذرية ذات الاغراض السلمية الخالصة. ومع ذلك فمثل تلك التصريحات لم تقنع امريكا فيا يبدو ، ولهذا جاء تصريح جونسون الآن وجاءت معه تصريحات المسؤولين والصحف تشير الى ان اقتراح جونسون يمكن ان يؤدي الى مراقبة الولايات المتحدة المباشرة لابحاث مركز ديمونا . لاسيا ان هذا المركز لايملك القوة اللازمةلتحقيق الابحاث التي أشار اليها خطاب الرئيس جونسون الخاصة بازالة ملاحة مياه البحر .

من هنا نرى ان الموضوع معقد ، وان وجهه الفني يخفي وجهه السياسي والحربي ، وان المساعدات الاميركية لن تقف عند حدود المساعدات الفنية والمالية في هذا المجال ، بل ستمتدبوما بعد يوم لتشمل المساعدات الخاصة بانتاج الطاقةالذرية من أجل الاغراض الحربية ، لتظل اسرائيل في هذا الميدان تحت وصاية الولايات المتحدة ، وتخرج من الوصاية الفرنسية .

على أن أخطر هذه الجهود التي تبذلها اسرائيل في سبيل التغلب على مشكلة الميـاه هي المحاولات الدائبة لتحويل مجرى نهر الاردن ، فالآمال الكبرى هناك معقودة في الواقع على هـذا التحويل ، وهو الذي يقوى في نهاية الامر على حل مشكلة المياه في اسرائيل حلا واسع النطاق

كما رأينا . ولهذا تعمل اسرائيل جاهدة في هذا السبيل منذ سنوات . وقد انجزت المراحل الاولى اللازمة للمشروع ومدت الانابيب الضرورية ، وتحاول الآن الاقدام على المرحلة التالية ، مرحلة التحويل . ولن ندخل في تفصيلات المشروع الذي يعرفه الرأي العام العربي ويعرفه الخبراء، والذي أردنا أن نبينه هو الاهمية الخاصة التي لهذا المشروع ، ومايلعبه من دور حاسم في حياة اسرائيل. فهو الذي ترتجي اسرائيل منه ان يقدم لها حوالي ٥٠٠ مليون متر مكعب من المياه (قد تبلغ فيما بعد حوالي ٨٠٠ مليون متر مكعب) . أي ان يقدم الحل الاساسي لمشكلة المياه وماوراءها .

وهكذا نرى بوضوح ـ بعد هذا العرض للواقع الاسرائيلي ـ **ان قضية تحويل مجرى نهر الاردن قضية يتوقف عليها اقتصاد اسرائيل وامكانيات نمائه ، وترتبط بها حياة اسرائيل الحقيقية . ومنها تريد ان تنطلق اسرائيل لتجد مخرجاً نهائيا لكيانها الاقتصادي والسياسي، وحلها هو الذي يقدم لاسرائيل الاوتاد اللازمة لتمكين بقائها ولمد هـذا البقاء بحيث يطغى على الكيان العربي المجاور .**

ومن هنا كانت معركة تحويـل مجرى نهر الاردن في نظر العرب معركة تفوق في قيمتها وشأنها معركة عام ١٩٤٨ . ذلك أن وجود اسرائيل الحقيقي سوف يتقرر بالدرجة الاولى في هذه المعركة ، لقد كانت معركة عام ١٩٤٨ معركة استلاب النبتة ، اما معركة اليوم فمعركة الحصول على النسغ اللازم لتبقى النبتة .

وبعد أين صوت الانسانية من هذا كله ؟ وأين لحن السلام من هذا كله ؟ وهـل يعني السلم ـ في نظر دعاته ـ أن يحفر العرب حتفهم بظلفهم ، وان يقبلوا على الموت صاغرين طائعين ؟ هل يعني السلام أن يقدموا الهدايا لاسرائيل ، من مائهم واقتصادهم وتربتهم ، وأن يحملوا اليها ، على طبق من ذهب ، الخنجر المسموم الذي ستطعنهم به ؟

لقد خلق الاستعمار اسرائيـل ، خلقاً مصطنعاً ، وكان طبيعياً أن يكون قوامها زائفاً ووجودها نابياً وسط كيان عربي قامت على جراحه وفي القلب منه . والآن يطلب الاستعمار من هذا الكيان العربي أن يلجأ باسم السلام الى المنطق التـالي : لاوجود لاسرائيل الا على حساب العرب ، والا اذا سبحت ضمن الجو العربي واغتذت من ميـاهه واقتصاده بل وأرضه ، وعلى العرب اذن أن ييسروا هذه المهمة لاسرائيل ، لأن اسرائيل وجدت ، ولأن اسرائيل ينبغي أن تبقى ، ولأن وجودها الزائف ينبغي أن يصبح وجوداً حقيقياً . عليهم أن يضموا اسرائيل الى جسدهم وان يغذوا سرطانها من اعصابهم ودمائهم !

والاستعمار يعلم ، واسرائيل تعلم ، أن وراء كل خطوة خطوات ، وأن خاتمة المطاف القضاء على الوجود العربي ، ان لم يبطل هذا الوجود مايأتمرون عليه . ان هذا الاستعمار يعلم ان هنالك وجودين متناقضين لابقاء لأحدهما مع الآخر ، ولا بد أن يزول أحدهما . ومع ذلك فهو يدعو باسم التعايش والسلم الى زوال الوجود العربي بكل بساطة . فاسرائيل لاتستطيع أن تبقى الا اذا سرقت مياه العرب وفتحت أسواق العرب وامتدت على حساب العرب ، وفرضت في النهاية وجودها على وجود العرب. إنها تريد أن تقلب وجودها المصطنع الى وجود راسخ طبيعي ، لن يكون ذلك الا اذا استسلم لها الوطن العربي ودانت لها ثرواته وامكاناته . اما العرب ، فن واجبهم – باسم السلام وحق الجوار وحفظ الامن والطمأنينة في العالم الجريح – أن يمكنوا لوجود اسرائيل وأن يفتحوا امامها السبل والآفاق ، وان يموتوا شهداء الانسانية والعدل !

وأمام حملات التزييف هذه ، وأمام الخديعة الكبرى التي يحاول الاستعمار واسرائيل أن ينسجا خيوطها ، **لابد أن تقف البلاد العربية الوقفة التي يمليها الحفاظ على وجودها وشرفها : انها تعتبر المعركة القائمة معركتها الحقيقية الحاسمة مع اسرائيل ، ولا تبيح أن يعيد عام ١٩٦٤ مأساة عام ١٩٤٨ على شكل اعمق وادهى ، وتدرك اولا وآخراً أن المعركة المائية معركة حربية في حقيقتها ، وان استراق المياه العربية لايقل خطراً عن استراق الارض العربية ، بل يفوقها.**

واذا كانت المعركة غير مستبينة المعالم في ظاهرها واذا كان بعض جوانبها خداعا ، فان العرب لايؤخذون بهذا الظاهر ، وهم يعرّون المسألة ويضعونها موضعها الصحيح : انهم ليدركون ان هذه المعركة التي تسوقها اسرائيل والتي لاتحمل معنى الحرب في ظاهرها ، هي المعركة الحربية الكبرى والحقيقية ، وهي الجديرة بأن تجند من اجلها جميع القوى ان موقفهم في هذا موقف لا يتزعزع ، موقف من يأبى ان يقاد الى ساحة القتل خداعاً وتضليلا ، موقف من لايجادل في أمر فيه حياته او مماته . انهم يدافعون عن الانسان العربي – وعن قيم الانسانية من خلاله – ويخاطبون العالم بمثل قول الشاعر القروي :

أما السلام فاننا أعداؤه حتى يدين بحبه أقوانا

انهم أعداء سلام المأساة ، سلام تشريد الشعوب ، سلام موت اللاجئين ، سلام شقاوة الاجيال العربية . انهم مع الحرب ، اذا لم يوجد مركب سوى الأسنة ، وان طريقهم الى سلامهم الحقيقي هو طريق فرض حقهم المشروع .

ان اسرائيل تريد المياه العربية لتحيا وليموت غيرها ، وتريد سرقة ثروات العرب وارض العرب لتبقى ويزول سواها . انها وجدت على حساب العرب ، وقوام بقائها التطفل على هذا الوجود وامتصاص مائه وغذائه . ولابد ان يلفظها هذا الوجود قبل ان تورق من دمائه وترقص على أشلائه . ولن يجرعها ماءه لتجرعه السم ، ولن يغفو امام السيف المصلت على قدره ومصيره .

العَرَبُ والأعْرَابُ

في نظر الاسلام

بقلم : يحيى الجبوري
بغداد —

جاء الاسلام دين بشرى وهدى وايمان ، جاء رحمة للناس وأمناً ، فقد أيقظ الجزيرة العربية من غفوة ألمت بها ، فنهضت بالاسلام لتلبس — وتلبس الناس معها — ثوب العدل والخير والايمان فجدد لها عمرها ورسم لها طريقها و كتب لها عهداً مجيداً . وعلينا هنا أن نتبين أهل ذلك العهد الذين ضمهم الاسلام وهداهم سواء السبيل ، ونجلو لبساً حاصلاً وغشاوة مربكة ، ان نفرق بين كلمتين كثيراً ما يقع الخلط بينهما والوهم في استعمالهما والكلمتان هما : العرب والاعراب ، فما حد كل منهما ؟

يستعمل القدماء أحياناً كلمتي العرب والاعراب في حالة ترادف ، وترد الواحدة مكان الاخرى وقد تعمم كلمة العرب فيراد بها الاعراب أيضاً ، وقال الجوهري:

(العرب جيل من الناس وهم أهل الامصار ، والنسبة الى العـــرب عربي والى الاعراب اعرابي ، والذي عليه العرف العام اطلاق لفظ العرب على الجميع) (١) ويقول الالوسي عن أبي العباس احمد بن عبد الله : إن العرب اهل الامصـــار والاعراب سكان البادية وفي العادة يطلق لفظ العرب على الجميع) (٢) .

ويكاد الاجماع ينعقد على أن العـــرب هم سكان الحاضرة والاعراب هم سكان البادية ، فيذكر الالوسي أن شيخ الاسلام أحمد بن تيمية في كتـــاب (الاقتضاء) يقول : (ان لفظ الاعراب هو في الاصل اسم لبادية العرب ، فان كل أمة لها حاضرة وبادية ، فبادية العرب الاعراب ، وقد يقال : ان بادية الروم الارمن ، وبادية الفرس الاكـراد ، وبادية الترك التتر ونحوهم) (٣) ويذكر أيضاً قول أهل التفسير بان العرب سكان المدن والقرى ، والاعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم . ويوضح هذا ويحدده ماجاء في التنزيل قوله تعـالى : (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) (٤) وفي قوله تعالى : (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفـــاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عـــذاب عظيم) (٥) فبدوية الاعراب واضحة بانهم (حولكم) ومقابلتها بـ (أهل المدينة) تعين ذلك .

ومن الطبيعي أن العقلية البدوية لا يمكن ان تدرك وتستوعب الدين الجديد

---

(١) الصحاح مادة عرب وكذلك القاموس المحيط للفيروزابادى
(٢) بلوغ الأرب ١ – ١٢
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) سورة التوبة ٩٠ .
(٥) التوبـــة ١٠١ – ١٠٢

بسهولة ويسر ، لطبيعة الحياة القاسية التي يحياها الاعراب ، ولذلك كان موقفهم من الدعوة موقف المستخف غير الملتزم بتعاليم الاسلام ، ولذلك كثر المرتدون بينهم والناكثون بالعهود والذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ، والقرآن يحكم فيهم بقوله : (الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ان لا يعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) (١) .

هؤلاء الاعراب وقفوا من الدين الاسلامي بالذهنية المتعصبة المغلقة التي لا تدرك معنى الدين وامر الرسالة وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيلهم الجهد والعناء ، وكانوا يمنون عليه اسلامهم ، قيل : قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اول سنة تسع للهجرة فيهم حضرمي بن عامر وضرار بن الازور ، فقال حضرمي : (يارسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث الينا بعثا) فنزل فيهم قوله تعالى : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنّوا عليّ اسلامكم بل الله يمنّ عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) (٢) ، وقد دخل كثير من الاعراب في الاسلام لحاجتهم الى العطاء لا رغبة في الايمان ، فقد جاء في الاخبار ان نفراً من بني أسد ثم من بني الحلاف بن الحارث قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينـــة في سنة جدبة ، فاظهروا شهادة ان لا إله إلا الله ، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ ، وافسدوا طريق المدينـــة بالعذرات ، واغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون :(أتتك العرب بانفسها على ظهور رواحلها ، وجئناك

(١) التوبة ٩٧ – ٩٨

(٢) الحجرات ١٧ وانظر النويري – نهاية الارب ١٨/٣٠

بالاثقال والعيال والذراري — يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولم نقاتلك كما قاتلتك بنو فلان وبنو فلان ...) ويريدون الصدقة ويقولون : اعطنا . فأنزل الله سبحانه فيهم : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الآيات (١) . وقد كانت الاعراب تبطىء على الرسول ولا تجيبه اذا دعاها الى الجهاد، فكان قد استنفرهم الى الحديبية فتخلفوا عنه وخرج مع رسول الله المهاجرون والانصار ومن لحق به من العرب (٢) .

وما كانت الاعراب — الا القليل — تنظر الى الرسول النظرة الدينية التي تراها العرب بل كانوا يعدونه رجلا اوتي السلطان على العرب ، فيطيعونه على انه رئيس مقتدر لا نبي مرسل .

وفي هؤلاء الاعراب كان المتعصبون من الكتاب ومن المستشرقين يوسعون القول والتقول حتى يسحبوا مفهوم الاعراب على كل العرب وهؤلاء غير اولئك . ومن هنا كان غلو اوليري (٣) وابن خلدون (٤) وغيرهم ممن اعتبروا الاعرابي بوصفه الذي جاء في القرآن ممثلا لمواطن الجزيرة العربية كلها غير ملتفتين الى سكان الامصار والقرى واهل الدعوة والحضارة وحملة العلم والعمران من العرب .

على انه حتى في اولئك الاعراب من يؤمن بالله خالص الايمان وينفق في سبيله مبتغياً رحمته ورضوانه ، وفي هؤلاء كان قول الله تعالى : (ومن الاعراب

---

(١) الحجرات ١٤ ونهاية الارب ٨/٣١

(٢) المصدر السابق

(٣) انظر تفصيل رأيه في فجر الاسلام ص ٣٣

(٤) المقدمة ص ١٢١ — ١٢٢

من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخـــذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول إلا انها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيم) (١) .

ومهما يكن من شيء فقد كان العرب المسلمون ينظرون الى الاعراب المتبدين نظرة حذر وارتياب ، وكانوا لا يرتضون لاعرابي تحضّر ان يتبدى. من ذلك ماروى عن النابغة الجعدي حيث اشتاق الى قومه فدخل على عثمان بن عفان فقال : (استودعك الله ياامير المؤمنين ، قال : وأين تريد ياأبا ليلى ؟ قال : الحق بأبلي فاشرب من البانهـا ، فاني منكر لنفسي ، فقال عثمان : أتعربا بعـد الهجرة ياأبا ليـــلى ؟ أما علمت ان ذلك مكروه ؟ قال : ماعلمته ، وما كنت لاخرج حتى اعلمك)(٢) . هذه النظرة غير المطمئنة الى الاعراب فسحت مجال القالة حـــول الاعراب وعليهم فوّن اناس من شأنهم وأسرف آخرون في وصفهم بكل منقصة وتوحش وطيش وسفه وهذا ضرب من التجني لا يتفق والنظرة العلمية المحصة ، واذا صدق بعض ذلك الوصف على قسم من القبائل ، فان التعميم لا يصح ولا يصدق وخاصة اذا عرفنا ان كثيراً من اولئـك الاعراب من سكان الحواضر والقرى ، وكان للقبيلة الواحدة حاضرة وبادية ، والتمازج حاصل بين سكنة الحواضر وسكنة البوادي ، وكثيراً ماتحيا القبيلة الواحـــدة حياتين ويستقر بعضها المدر فيتحضر ويسكن بعضها ظواهر القرى فيكون في اهل الوبر متبديا ، مثـال ذلك قريش حيث يذكر عنها صاحب اللسان : (قريش الاباطح اشرف وأكرم من قريش الظواهر ، لأن البطحاويين من قريش حاضرة وهم قطان الحرم ، والظواهر اعراب بادية وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة)(٣) . وكذلك جهينة كان منها من يسكن

(١) التوبـــة ٩٩
(٢) الاغاني ٥/١٠ ط الدار وطبقات الشعراء ص ١٠٦ - ١٠٧
(٣) لسان العرب - ابن منظور مادة (ضحا)

في الوبر دون المدر في نواحي جبلي رضوى وعزور(١) بينما يسكن قسم آخر منها المدر في ينبع (وهي قرية كبيرة غناء . . . فيها عيون غزيرة الماء) ويسكن قسم ثالث منها الصفراء (قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها) (٢).

واولئك الذين سكنوا البادية لم يكونوا كلهم اعرابا بعيدين عن الايمان موغلين في الصحراء قست قلوبهم وغلظت اكبادهم ، بل منهم من كانوا قريبين من المدن مطيفين بها متأثرين بعاداتها آخذين من حضارتها بسبب فقد ذكر عرّام بن الاصبغ في حديثه عن السوارقية قال : (قرية غناء كثيرة الاهل . . . كان لبني سليم فيها مزارع ونخل كثيرة وفواكه . . . وهم بادية الا من ولد بها فانهم ثابتون بها والآخرون بادون حوالها ويميرون طريق الحجاز ونجد في طريق الحجاج(٣).

وكان الرسول الكريم يفرق بين الاعراب الموغلين في الصحراء والاعراب المقيمين في الضواحي والمستجيبين لدعوة الاسلام فقد روي عن أم المؤمنين عائشة انها قالت : (لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نقبل هدية من اعرابي ، فجاءت أم سنبلة الاسلمية بلبن فدخلت به علينا فأبينا نقبله ، فنحن على ذلك الى أن جاء رسول الله ومعه ابو بكر فقال : ماهـذا ؟ فقلت : يارسول الله هذه أم سنبلة اهدت لنا لبناً وكنت نهيتنا أن نقبل من أحـد من الاعراب شيئاً . فقال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : خذوها فان أسلم ليسوا باعراب هم أهل باديتنا ونحن أهل قاريتهم اذا دعوناهم أجابوا ، وان استنصرناهم نصرونا(٤) .

(١) عرام بن الاصبغ – اسماء جبال تهامة وسكانها ص ٧

(٢) المصدر السابق ص ٨

(٣) نفس المصدر ص ٦٥

(٤) ابن سعد – الطبقات الكبير ٢١٥/٨ ط ليدن

يتعين من هذه النصوص ان المقصود بالبادية انما هو ظاهر القرية أوضاحيتها ومما أحاط بها وان كثيراً من القبائل كانوا يقطنون في هذه البوادي قريبين من الحواضر متصلين بها مختلطين بسكانها ، وهم غير تلك القبائل الموغلة في الصحراء البعيدة عن العمـــران الذين قست قلوبهم فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق .

ومن كل ذلك يزداد حذرنا وارتيابنا من الاحكام التي تطلق على العهـد الجاهلي والتي تصوره على انه عهد جهالة وبداوة واعرابيـة بعيدة عن الحضارة والارتقاء ، من غير مراعاة للفروق الواسعة بين البيئات الصحراوية وبيئات البادية القريبة من المدن او القرى والتي كانت متصلة بمعالم المدنية لذلك العهد مواكبـة لركب الحضارة مستجيبة لداعي الاسلام .



مع بني عباد في اشبيلية

بقلم : سامي الكيالي

قصة الحكم الذي ذهب به استهتار الحاكم، وغدر الصديق الحليف .

— ٢ —

... بعد وفاة « المعتضد » (١) ارتقى سدة الحكم ابنه « المعتمد » الذي سار على نفس النهج الذي سار عليه ابوه .

أراد أن يصون هذا الكيان من الانهيار والعبث ولاسيما بعد أن اصبح لمملكة بني عباد شأنها ..

ولكن الاقدار لم تسعف المعتمد كما اسعفت المعتضد .. والاصح ان السياسة التي انتهجها لم تكن كالسياسة التي انتهجها ابوه .

وتبدأ قصة المعتمد بممارسته حكم المملكة وهو في عنفوان شبابه ، وقد اراد ان يرفع من شأنها . وان يوطد اسسها على دعائم وطيدة تعيد للعرب الفاتحين مجدهم الذهبي ..

وتلفتت الانظار اليه ، وعقدت الآمال عليه ..

(١) نشر القسم الاول من هذا البحث في العدد الخامس والعشرين من المعرفة

، فامتلك قرطبة وكثيراً من المملكة الاندلسية . واتسع سلطانه الى ان بلغ مدينـــة مرسية ـ وكانت تعرف بتدمير ـ ، واصبح محط الرحال ، يقصده العلماء والشعراء والامراء ...

ويؤكد المؤرخون انه «ما اجتمع في باب ملوك عصره، ما كان يجتمع في بابه من اعيان الادب» .

وكأني به كان يحتذي بطل بني حمدان في اكثر من مظاهر حياته ..

ولئن فاق سيف الدولة ـ المعتمد ، في بطولاته ، فقد فاق المعتمد ـ سيف الدولة ، في ادبه وشعره .

وكلاهما تركا في تاريخ الادب والفكر والجهاد معالم بارزة .

ولست اريد المقارنة ، بل اردت من هذا الاستطراد ، الاشارة العابرة للنهج الذي طبع حياة البطلين في بداية حكمهما .

. . .

فأول ماقام به المعتمد ، بعد ان تسلم زمام الحكم ، ان قضى على هذه المنافسات بين ملوك الطوائف وامرائها ..

انتزع قرطبة من ابن جهور ، وفرض سيطرته على ابن باديس بغرناطة ، وعلى ابن الافطس ببطليوس ، وابن صمادح بالمرقد فهـــابوه واعتبروه الزعيم الذي يستطيع ان يصون اماراتهم من العدوان الاسباني .

واذ شعر الاذفونش ـ الفونس السادس(١) ـ بقوة سلطان المعتمد واجتماع الامراء تحت رايته اخذ يتحرش به ويناوئه .

وكانت بداية هذا التحرش ـ ولا علينا ان نقول بداية شرارات الحرب ـ ان طلب من المعتمد ان يتنازل عن الحصون والقلاع التي يسيطر عليها .

فرفض طلب الفونس، وأبت عليه عزته وكرامته ان يخضع لهذا الانذار ، فقرر ان يخوض الحرب مهما كانت النتائج .

ورأى ، قبل أن يخوض هذه الحرب مع خصم قوي ، ان يتصل ببعض الامراء الاشداء ليكونوا الى جانبه .

وكان يوسف بن تاشفين صاحب مراكش من اقوى الامراء الذين يمكن ان يركن اليهم. فلم يكد يستنجد به حتى لبى طلبه . ووصل الى اشبيلية على رأس قوة كبيرة ، فاستقبله وشعبه احر استقبال .

---

(١) الفونس السادس Alfons VI ابن فرديناند الاول احتل طليطلة واتخذها عاصمة لمملكته ١٠٨٥م وانهزم في وقعة الزلاقة سنة ١٠٨٠م، ثم مات ابنه الوحيد سانشو في وقعة افليش Ucles فمات الفونس على اثره سنة ١١٠٩م والعرب تسميه الاذفونش قره كند ، ملك الافرنج بالاندلس.

لقـــاء ودي

يقول عبد الله الحميري الاندلسي صاحب « الروض المعطار » :

« .. وخرج المعتمد الى لقاء يوسف من اشبيلية في مائة فارس ووجوه اصحابه ، فاتى محلة يوسف ، فركش نحو القوم وركضوا نحوه ، فبرز اليه يوسف وحده والتقيـــا منفردين وتصافحاوتعانقـــا ، واظهر كل واحد منهما المودة والخلوص ، فشكرا نعم الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا نفسهما بما استقبلاه من غزو اهل الكفر ، وتضرعا الى الله تعالى ان يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرباً اليه ، وافترقا ، فعاد يوسف لمحلته ، ورجع ابن عباد الى جهته ، ولحق بابن عباد ما كان اعده من هدايا وتحف والطاف اوسع بها محلة ابن تاشفين ، وباتوا تلك الليلة » .

بدء القتـــال

ونشب القتال بين الفريقين ــ بين جيش المعتمد وجيش الفونس السادس .. وخاض بن عباد الحرب بجنان قوي وروح مليئة بالايمان ..

ومع ان الجيش العربي كان اقل عددا وعددا فقد كتب له النصر ــ كان جيش المعتمد في حدود العشرين الف مقاتل بينما كان جيش الفونسو زهاء الستين الفاً .

وقد دارت معركة دموية هائلة وهي المعركة المعروفة بوقعة « الزلاقة » فانهزم الاذفونش ــ الفونس السادس ــ مع ثلاثمائة فارس من خلّص اتباعه ورجاله بعد ان ابيد اكثر عساكره .

وسام الانتصار

.. وكان لهذا الانتصار دويه الهائل في شتى اقطار الاندلس .

ورجع المعتمد من المعركة مثخناً بجراحه ..

واعتبر هذه الجراحات ارفع وسام ازدان به صدره .

ويصف صاحب الروض المعطار هذه الجراحات بقوله :

« .. واثخن ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن في احد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة افراس كلما هلك واحد قدم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالا .

« وتذكر وهو في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مغرما به ، تركه باشبيلية عليلا اسمه العلاء ، وكنيته ابوهاشم فقال :

ابا هاشـــم هشمتني الشفار	ولله صبري لذاك الاوار
ذكـرت شخيصك تحت العجاج	فـــلم يثنني ذكره للفرار

وكما جرح المعتمد فقد جرح الفونس « طعن في احدى ركبتيه طعنة بقي أثرها بقية عمره ، فكان يعرج منها ، فلجأ الى تل كان يلي محلته في نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم ».

رسالة الى الشعب الاشبيلي

واذ قلق الاشبيليون للطعنات التي اصابت المعتمد ، كتب الى ابنه ، من ارض المعركة ، وهو مثخن بالجراح ، الرسالة الآتية :

« كتابي هذا من المحلة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب ، وقد عز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، واذاق المشركين العذاب الاليم ، والخطب الجسيم ، فالحمد لله على مايسره وسناه من هذه الهزيمة العظيمة والمسرة الكبيرة ، هزيمة اذفونش اصلاه الله نكال الجحيم ولا اعدمه الوبال العظيم ، بعد اتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل في جميع ابطاله واجناده وحماته وقواده ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذن عليها ، ولم يصبني ، بحمد الله تعالى الا جراحات يسيرة آلمت ، لكنها فرجت بعد ذلك ، وغنمت وظفرت ».

أماديح الشعراء

وحين عاد من المعركة منتصراً تبارى الشعراء في مدحه وذكر بلائه في هذه المعركة.

وكان في طليعة الشعراء ابن حمديس الذي مدحه بعدة قصائد صور فيها فرحة الشعب بهذا الانتصار .

فمن قوله :

كشفت كروباً عن قلوب كأنما	وضعت عليها من هواك خواتما
صبرت لحر الطعن والضرب ذائداً	عن الدين واستصغرت فيه العظائما
رحناك من وقع الصوارم والقنا	فكان لنا في حفظك الله راحما
وكم شجة في حر وجهك لم يزل	لك الحسن منها بالشجاعة واسما

ومنها :

سكنتم قلوب العارفين محبة	كما سكن الزهر الزكي الكمائما
نذرت نذوراً فاقتضاني قضاءها	إيابك من يوم العروبة (١) سالما

ومدحه غير واحد من الشعراء واكثر القصائد ترمز الى انتصاره وجراحه .

وخلاصة القول ان المعتمد وقف في هذه المعركة وقفة الصناديد واستطاع ، بما بذله من

(١) العروبة : يوم الجمعة ، وكانت فيه وقعة الزلاقة .

حنكة وشجاعة ، ان يسيطر على الموقف ، وان يعود الى اشبيلية رايات بني عباد ترفرف بزهو خفاقة على جميع اطراف مملكتهم الفتية .

اعراس المجد في اشبيلية

عاد المعتمد الى قصره وهو في زهو وخيلاء . بل شبه سكران من نشوة النصر .

وقد غص بلاطه بوفود المهنئين من اقصى البلاد وادناها ، وكأنهم جاءوا يبايعونه من جديد ويباركون جهاده ضد اعدائه الطبيعين من الاسبانيين ومن شراذم المتمردين .

وكان الشعراء بقصائدهم ، والادباء بخطبهم ومنثور كلامهم ، والفقهاء ورجال الدين بصلواتهم وأدعيتهم ، كانوا جميعهم يرددون هذه الاهازيج التي تعبر تعبيراً صادقاً عن خلجات النفوس ونبضات القلوب .

كانت اشبيلية في هذه الفترة التي اعقبت « وقعة الزلاقة » وكأنها في عرس من اعراس المجد .

فعقدت مجالس الشعر والادب ، ومجالس الانس والطرب في القصر وفي الاندية العامة ، وعاش الاشبيليون اسابيع وهم يترنمون بروعة هذه الانتصارات التي دحرت جيش الاذفونش وكبلته خسائر فادحة .

في مصطوع الاهواء

واذ اطمأن المعتمد الى ماانتهى اليه من نصر وتثبيت قواعد ملك بني عباد ـ اخـذ يلهو ويطرب دون ان يحسب لسخرية الاقدار أي حساب .

هذا الشاب الملك الشاعر الذي كان اندى ملوك الاندلس راحة وأفضلهم سماحة ، كاوصفه معاصروه . والذي كانت حضرته محط الرجال ومألف الفضلاء والذي كان يشترط فيمن يصبح وزيراً ان يتميز بصفات اقلها ان يكون أديباً وشاعراً .

هذا الملك الشاب المترف هل اخذ يقيم دعائم مملكته على ركائز قوية من السياسة الحازمة والحكيمة التي تصون اطرافها وتدعم كيانها وتدفع عنها الاخطار المحيطة بها ؟

هل سار سيرة ابيه وجده ؟

لا . .

فقد طغت شاعريته على تفكيره .. وخضع لسلطان المرأة .

اما الشعر فكان ينبع من ذاته ووجدانه ، كان يراسل وزراءه واصفياءه وآله وذويه وحتى جواريه بالشعر .

وتصف لنا كتب الادب هذه المراسلات والمساجلات باسهاب . ولاسيما اخباره مع الوزير الشاعر ابن عمار ، وكان من اخلص اصدقائه ، وكذلك مع ابن زيدون .

وشاعريته المخضلة جعلته يعيش في جو عبق مسكر من نعيم المرأة .. حتى ليقال ان ثمانمائة جارية كانت تخطر في ابهاء قصره .

ولئن كان هذا العدد مبالغا فيه ، فالواقع انه كان يعيش في فيض من سحرهن ،وكان الى ذلك مولعا بالشراب كالكثيرين من ملوك عصره .

. . .

ترف ونعيم وشعر وخمر واندلسيات فاتنات قلبت كيان هذا الانسان من قائد بطل يعيش في جحيم المعارك التي تصون الحمى والذمام الى ملك مترف يعيش مع الاهواء وينعم بالمباهج واللذاذات.

وما كان شيء أحب الى نفسه والى قلبه من جارية جميلة . تحسن قول الشعر ، وتجيد سحر الحديث ، وتبادل الكأس بالكأس .

ولقد شربت الراح يسطع نورها ... والليل قـد مد الظلام رداء
حتى تبدى البـدر في جوزائه ... ملكا تناهى بهجـة وبهـاء
لما أراد تنزهـاً في غربـه ... جعـل المظـلة فوقـه الجوزاء
وتنـاهضت زهر النجوم يحفـه ... لألاؤهـا ، فاستكمل اللألاء
وترى الكوا كب كالمواكب حوله ... رفعـت ثرياهـا عليـه لواء
وحكيته في الارض بين مواكب ... وكواعب ، جمعت سناً وسناء
ان نشرّت تلك الدروع حنادساً ... ملأت لنا هذي الكؤس ضياء

فجواريه وزوجاته اللواتي ملكن لبه اكثر من واحدة .. وتشير كتب الادب الى اللواتي خصهن بشعره فاذا هن كثر .. منهن : سحر ووداد ، وقمر وجوهر وغيرهن وغيرهن .

على ان واحدة قد طغى حبها على كل حب .

فقد شاءت الاقدار او شاءت الصدف ان يتعرف الى امرأة اسرته وملكت لبه .

فتاة رقيقة الصبا ، جمعت الجمال الى الذكاء،وسرعة البديهة في قول الشعر الى رواية القصص فما كاد يلتقي بها حتى هزت فؤاده هزاً ــ تلك هي الرميكية التي احبها حباً فاق حبه لكل زوجاته وجواريه .

من مهاوي الفقر الى نعيم القصر

ليس جمال هذه الفتاة هو الذي سحره فربما كان في القصر اجمل منها واكثر فتوة واشد جاذبية . ليس جمالها فحسب بل ذكاؤها وسرعة خاطرها .

وتروي كتب الادب ان المعتمد ركب مرة للنزهة عندنهراشبيلية. ومعه وزيره ابن عمار فهبت الريح على سطح الماء ، وزردت النهر ، فقال المعتمد :

« صنـع الريح من الماء زرد »

ثم طلب الى وزيره الشاعر ابن عمـــار ان يجيز ، فأطال ابن عمار التفكير ولم يفتح عليه بشيء .

وكانت امرأة من الغسالات على النهر قد سمعت قول المعتمد فقالت :

« أي درع لقتال لو جمد »

فعجب ابن عباد من سرعة بديهتها وبديـع ماأتت به مع عجز ابن عمار . فنظر اليها فاذا هي آية في الجمال والفتوة رغم زراية حوائجها .

وسرعان ماأشار الى اتباعه بضمها الى جواريه . ولم تكن ذات زوج فتزوجهاواصبحت سيدة القصر المفضلة على جميع زوجاته وجواريه ، وانجبت له فأصبحـــت ام اولاده الامراء وعرفت باعتماد الرميكية .

يوم الطين !

هذه الشاعرة الحسناء كانت جارية لرميك ابن حجاج فنسبت اليه ، وآلت الى المعتمد بن عباد فتزوجها ، وولد له منها : عباد الملقب بالمأمون ، وعبد الله الملقب بالرشيد ، ويزيد الملقب بالراضي ، والمؤتمن ، وبثينة الشاعرة .

واعتماد الرميكية هذه صاحبة « يوم الطين » ، وخلاصة القصة انها رأت بعض نساء البادية بأشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن ماشيات في الطين ، فاشتهت ان تفعل فعلهن .. اى ان رسيس الاصل قد طغى على جديد النبل !

لا .. ولكن كانلرغباتها ونزواتها ولما تطلبه وتشتهيه وقع السحر في نفس المعتمد.وسرعان ما أمر كبير الحجـاب ان يعد العنبر والمسك والكافور وماء الورد ، فأعدها ، ثم جبلت الى ان صارت طينـاً في باحة القصر . وجعل لها قرباً وحبالا من ابريسم فخاضت وبناتها وجواريها في ذلك الطين !

نزوة اثر نزوة

وكان لها كل يوم طلب ، وكل ساعة نزوة . فمن نزواتها المسرفة ما ترويه كتب الادب ايضاً من انها طلبت الى المعتمد ان يريها الثلج ، فزرع لها اشجار اللوز على جبل قرطبة ، حتى اذ نور زهره بدت الاشجار كأنها محملة بالثلج الابيض .

لقد كان لهذه الشاعرة الجميلة الطروب ذات النزوات الغريبة اثرها في شاعرية المعتمد الذي تجاوب معها كل التجاوب ، فشغلته عن سياسة الحكم ، واصبحت شغله الشاغل ، وكثيراً ماقضى وقته في التغزل بجمالها .

فمن شعره مقطوعة يبدأ كل بيت منها بحرف من حروف اسمها قوله :

أغائبة الشخص عن ناظري	وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشئون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرام	وصادفت مني سهل القياد
مرادي أعياك في كل حين	فياليت اني أعطى مرادي
اقيمي على العهد ما بيننا	ولا تستحيلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيه	والفتفيه حروف «اعتماد» .

هذه الفاتنة التي تملكت منه « صعب المرام كما صادفت منه سهل القياد » والتي قالت له يوم انقلب عليه الدهر : والله ما رأيت في عمري خيرا ! فقال لها ولا « يوم الطين » !_هذه الفتاة الغناجالتي رفعهامن حضيض الفقر الى بلهنية العيش ونعيم القصر قد اثارت عليه النقمةوالسخط بكثرة نزواتها واهوائها فصرفته عن سياسة الملك والنظر بشئون الرعية والتربص لهجمات العدو فكانت المأساة .

ثورة الفقهاء

اندفاع المعتمد وراء الاهواء وانصياعه لنزوات الرميكيه اثار عليه الفقهاء ونقم عليهالجمهور الذي اتهمها بأنها « ورطت المعتمد فيما ورطته من الخدعة والاستهتار والمجاهرة حتى كتب عليه اهل اشبيلية بذلك ، وبتعطيل صلوات الجمع عقوداً ، ورفعوها الى امير المؤمنين » .

وبالرغم من هذه الثورة التي اندلع لهيبها على السنة الفقهاء وفي خماثر الدهماء ظل المعتمد في الهياته ومعابثاته ، يشرب ويطرب ، ويقول الشعر ، ويجمع حوله القينات والجواري اللواتيشغلنه عن كل مشاغل الدنيا واحداثها .

تاهب ألفونس

وبدهي ان يكون لالفونس السادس الذي كسر شر كسرة في موقعة « الزلاقة »_بدهي ان يكون له عيونه وجواسيسه يوافونه بشئون المملكة ، وبهذا التفسخ الذي يعصف بصفوفها ، وبهذا الضجيج يثيره الفقهاء ويلغط به العوام :

واذا انتهت اليه معلومات وثيقة عن هذه الحالة المزرية التي يتخبط فيها المعتمد اخذ يعدالعدة لحرب جديدة . فلم تمر سنوات ثلاث حتى بدت جيوش الفونس تتأهب وتغير على اطراف اشبيلية لتقويض ملك بني عباد .

يقظة بعد غفوة

هنا ، أفاق المعتمد من غفوته . هل في وسعه ان يخوض وحده حرباً جديدة مع الفونس السادس والمملكة تعيش في جو محموم من السخط عليه ، وعلى تصرفاته التي أثارتها اهواؤه وملذاته؟

هل يعتمد على دول الطوائف وبينه وبينهم حزازات مشتعلة الضرام .

لقد فكر طويلا ..

ثم رأى ان يرجع الى صديقه الحميم يوسف بن تاشفين الذي حارب معه وانتصرا سوية في موقعة الزلاقة .

فكتب اليه طالبا المعونة ، وسرعان مالبى طلبه .

جاء سنة ٤٨١ هـ يدرس الوضع . وبعد دراسة الوضع من جميع نواحيه رأى ما آله وحز في نفسه ..

كانت المملكة تعيش في جو من الخلل والاضطراب .

واستمع الى صيحات الفقهاء ونزوات الشعب .

واذ كان الخطر محدقاً بالمملكة فقد قام بعدة غزوات ليست ذات شأن مالبث بعدها ان عاد الى افريقيا وقد اعتزم خطة تحمل في اطوائها خاتمة حياة المعتمد وملكه العريض .

يأس المعتمد

بعد سفر ابن تاشفين اضطربت الامور اكثر ، واصبح الخطر محدقا بالمملكة كلها ، كما اصبحت اشبيلية مهددة بالسقوط بين يدي الفونس السادس الذي اعد العدة للقضاء عليها وضمها الى سلطانه .

واذ كانت قوى المعتمد لاتستطيع رد هـذا الهجوم الكاسح بعد ان خسر تأييد الشعب لجأ المرة الثالثة الى زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين .

ولم يرتح ضمير الرشيد بن المعتمد ولا وزراؤه لهذا المدد يأتيهم من ابن تاشفين خشية سيطرته .

فحذروه . .

ولكنه لم يصغ الى تحذيرهم وخاطب وزراءه وابنه بهذا القول :

« اي بني :

والله لا يسمع عني ابـداً اني اعدت الاندلس دار كفر ، فتقوم علي اللعنة على منابر الاسلام مثلما قامت على غيري

وحرز الجمال ، والله عندي ، خير من رعي الخنازير !

القضاء على الخلل الداخلي

لبى ابن تاشفين طلب المعتمد وجاء على رأس جيش كبير فدخل الارض الاندلسية سنة ٤٨٤ ، ورأى قبل ان يخوض غمرات الحرب مع الفونس ان يقضي على هذه الميوعة والتخبط وعلى الفوضى التي تسود المملكة .

اي اعتزم ، بادىء ذي بدء ، انقاذ الاندلس من تحكم الامراء وطغيانهم ، ومن هـذا التنافس الذي افسح المجال للاسبانيين ان يضربوا ضرباتهم المحكمة .

سار جيشه الى غرناطه فاستولى عليها ، ثم وزع جيوشه وفرق كتائبه على نواح اخرى من المدائن ، كما ركز قوته الرئيسية نحو المعتمد .

وقبل ان يضرب ضربته القاصمة بعث بجيش من جيوشه الى قرطبة وكان عليها المأمون بن المعتمد ، فدافع المأمون دفاعاً مجيـداً حتى قتل في صفر ٤٨٤ هـ ، وانتصر جيش ثان ليوسف بن تاشفين على الراضي ابن المعتمد في «رنده» .

وكان مصير الراضي كمصير اخيه المأمون .

القضاء على مملكة بني عباد

حين أحس المعتمد بهذه المؤامرة التي اعدها ابن تاشفين للقضاء عليه وعلى اسرته ، وبعدان استوى على قرطبه ورنده ، وبعد مقتل ولديه ، وبعد ان رآه يسير جيشاً ثالثاً بقيادة سير بن ابي بكر الى اشبيلية للقضاء على مملكة بني عباد قضاء نهائياً ـ مد يده الى الفونس ، وكان قد اخذ على نفسه ان لايقع في هذا الوزر ، وان لايسمع عنه انه اعاد الاندلس دار كفر .

وهو الذي اقسم امام ابنه ووزرائه ان حرز الجمـال خير عنده من رعي الخنازير ـ نسي كل ذلك فمد يده الى عدوه الطبيعي ، الى الفونس السادس الذي لم يبخل عليه فأمده بجيش . ولكن المرابطين سرعان ماأدركوه ، فهزموه قريباً من قرطبة .

دفاع اليائسين

.. وفي هذه اللحظات العصيبة نزل المعتمد الى الميدان بكافة قواته لقتال المرابطين .

ولكن المرابطين كانوا اكثر عدداً وعدداً فهزموه .

وارتد المعتمد الى اشبيلية واعتصم بها ، الى ان كان يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة ٤٨٤ هـ فدخلوا البلد على المعتمد « فبرز من قصره متلافياً لأمره ، عليه غلالة ترف على بدنه ، وسيف يتلظى في يده ، فلقي على باب من ابواب المدينـة فارساً مشهوراً ، فرماه الفارس برمح التوى على غلالته ، وعصمه الله تعالى منـه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس ، فشقه الى اضلاعه ، فخر صريعاً سريعاً .

قال الداني وكان من شهود ذلك اليوم (١) :
فرأيت الفاتحين عندما تسنموا الاسوار تساقطوا منهـا ، وبعد ما أمسكوا الابواب تخلوا عنها .
ويقول
ثم عاد المعتمد الى قصره ، واستمسك به يوماً وليلة ، مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل عن عزته وفي ذلك يقول:

إن يسلب القوم العـدا ملـكي وتسلمـني الجموع
فالقلب بـين ضلوعه لم تسـلم القلب الضلوع

والتوت الحال بالمعتمد بعد هذا اليوم اياما الى ان كان يوماً الاحد الحادي والعشرون من رجب ، فعظم الخطب في الامر الواقع ، واتسع الخرق فيه على الواقع ، ودخل البلد من جهـة واديه ، واصيب حاضره بعادية باديه ، بعد ان ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامية على الموت بنفسه ، مالا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق اليه .

فشنت الغارة في البلد ، ولم يبق فيه على سيد لاحد ولا لبد ، وخرج الناس عن منازلهم ، يسترون عوراتهم باناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات المذارى ، ورأيت الناس سـكارى وما هم بسكارى .

خلعه عن العرش

بعد ان قوضت جيوش بن تاشفين سلطان حكم المعتمد وبعد أن خلع عن عرشه ، وصدرت الاوامر بنفيه أعدت له ولعائلته ولذوية وحاشيته السفن لمغادرة اشبيلية فنزلوها جزعين وقد حملوا الاقل الاقل من حاجياتهم الضرورية .
واحتشد الناس على ضفتي النهر يشهدون هذا المنظر الحزين .
فما كادت تمخر السفن حتى علا الضجيج والبكاء .
وكان اصفياؤه ومريدوه اكثر حزناً وتوجعاً .
وقد وصف لنا الشاعر الداني ، وهو من خلص اصدقائه ، هذا الوداع بقصيدة صادقـة النبرات يقول فيها :

تبكي السماء بدمع رائح غادي على البهاليل من ابناء عباد

ومنها :

نسيت الا غداة النهر كونهم في المنشئات كاموات بالحاد

(١) انظر نفح الطيب ص ٤ ١١٠ مصر

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت اوجـه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادي
سارت سفائنهم والنوح يتبعها ... كأنها وابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات اكباد

من اشبيلية ، الى طنجة ، ثم الى أغمات حيث اودع وجميع افراد عائلته السجن .

ايام مريرة

قضى المعتمد اياماً مريرة في المنفى .

من ذروة المجد الى هوان الذل .

كان ملكا يأمر وينهي ويجزي العطاء فأصبح في سجن مظلم يشكو ويتألم وقد زالت عنه كل مطارف النعم .

كلما ذكر الماضي وما كان عليه من ترف وزهو ومجد ، وما آل اليه ، هو وآله ، من بؤس وشقاء انحدرت من عينيه الدموع دماً احمر .

كانت تمر به الساعات مظلمة طويلة الامد ، وكان يشعر كأن مقراض الزمن الحاد يقطع في جسمه ارباً ارباً .

كان يقضي الوقت بنظم الشعر ..

وكان الشعر سلواه في التنفيس عن صدره ، والتعبير عن خوالجه .

لقد بكى واستبكى ..

وزاد في اله ان يقل المال بين يديه وهو الذي كان اندى ملوك عصره راحة واكثرهم بذلاً وسخاء .

وقد وصل به الضيق انه لم يعد يستطيع ان يلبي بعض حاجات زوجاته وبناته بله حاجات المترددين عليه من الشعراء الذين كانوا يسبحون في فيض عطاياه .

غلظـــة بن تاشفين

كان يوسف بن تاشفين فظاً في معاملته ، وقاسياً في صنيعه ، فلم يحفظ له كرامته كملك بل اهانه وازدراه .

أي جريمة اقترفها هذا الصديق ، بعد ان فتح له صدره ، ومد اليه يده ليتعاونا على رد خصم عنيد وعدو مشترك .

كان لقاؤهما الاول واشتراكهما معاً في تلك المعركة التي ردت الخصم على اعقابه ، وكسرت جيوشه شر كسرة . كان لهذا اللقاء اثره الكبير في نفوس الاندلسيين اجمع الذي اعتبروه فاتحة نصر جديد للوحدة القومية وللاسلام فلهجت القلوب بالثناء عليهما وباركت عملهما .

وكان على ابن تاشفين وقد استدعاه المعتمد للمرة الثانية والثالثة لمحاربة الاذفونش ان يظلا متآخين ، وان يعملا يداً واحدة ، ولكنه لم يفعل ، فكانت الغلطة التي اقترفها جد فظيعة ، وكان عمله المخزي يتنافى والشمم العربي الاصيل .

وقد اخذ عليه المؤرخون القدامى هذا الشطط ، ولم ينج من تقريع المؤرخين المعاصرين .

وكانت المصلحة القومية والروح الاسلامية تقتضيانه ان يوحد قواه مع قوى المعتمد ، وان يقفا صفاً واحداً امام خصم عنيد ولكن بريق الحكم وما كانت عليه الاندلس من رقي وحضارة وخيرات ، وما لقيه من ترحيب الفقهاء ووراءهم الشعب بمختلف طبقاته — وقد انخدعوا عن المعتمد وعوته واستهتاره — كل ذلك دفع ابن تاشفين ان يزيل حكم بني عباد فكانت المأساة الرهيبة التي انتهت بالحكم العربي الذي ما كادت ترفرف راياته حتى انطوت الى الابد .

في المنفى

قضى المعتمد وجميع افراد عائلته اياما سوداء في السجن .

من القصر الشامخ الذرى حيث الملك العريض الى الغرف الضيقة والاسوار العالية والحياة الخشنة والحجاب الثلاثة الاكياد .

فما كادت زوجه المحبية « اعتماد الرميكية » تدخل هذه الاقبية الموحشة العفنة حتى ضاق صدرها وكادت تختنق . وقد غم عليها ، وبعد لحظات من الغيبوبة . وبعد ان اجهشت بالبكاء ، خاطبت زوجها بقولها :

ياسيدي لقد هُنّا هنا

وسرعان ما نظم المعتمد هذه الدمعة ببيتين :

قالت : لقد هُنّا هنا	مولاي : اين جاهنا
قلت لها : الى هنا	صيرنا الهنا

وكأني به قال لها : ماعلينا الا الاستسلام لقضاء الله وقدره ، وماعلينا الا ان نتحمل هذا العقوق الذي فرضه ابن تاشفين الذي كان ابعد مايكون عن الانسانية .

لقد فرض عليه أقسى ضروب المهانة والذل ، فكبله بالسلاسل والقيود ، وحرمه نعيم الحرية بله سلطة الحاكم .

وقد احتمل كل ذلك بصبر عجيب .

وكانت سلواه ان يرسم هذه الاختلاجات النفسية بشعر كان متنفسه الوحيد .

فجر اسود

ومرت الايام سراعاً فاكادت تنقضي ثلاثة شهور ، وهو في سجنه ومعتقله ، حتى اطل فجر العيد . وللعيد تقاليده ومواسمه وهباته .

أي عيد هذا الذي واجهه وهو خاوي الوفاض،مغلول اليدين ، وزوجاته وبناته في الاطمار البالية لايرفلن بالدمقس والحرير ، ولايتضمخن بالطيب والعطور .

وانحدرت الدموع من عينيه ولسان حاله يقول :

عيد بأية حال عدت ، ياعيد..لقد بكى .. وماهي الا لحظات معتمة من الصمت حتى فاض قلبه الحزين بهذه الايات التي تصور مضضه وبرمه بهذه الايام السود التي يحياها وعائلته .

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا ... فساءك العيد في « أغمات » مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة ... يغزلن للناس ، مايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن ، حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والاقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهياً ومأمورا

السلاسل التي أكلت من لحمه

اربع سنوات قضاها في السجن يتلوى كالاسد الجريح ، يذكر ماضيه القريب فيثور وينتفض . . ولكن هل ثمة مجال للثورة والانتفاض وهو في سجن مظلم ، مكبل بالسلاسل والقيود .

لاسبيل الى ذلك ، كل مافي الامر انه كان يخاطب هذه السلاسل التي أكلت من لحمه ، وشربت من دمه ، وهي ماضية في تهشيم عظامه :

قيدي : اما تعلمني مسلما ... أبيت ان تشفق، او ترحما
دمي شراب لك،واللحم قد ... أكلته ، لاتهشم الأعظما
يبصرني فيك ابو هاشم (١) ... فينثني القلب ، وقد هشما
ارحم طفيلا ، طائشا لبه ... لم يخش ان يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله ... جرعتهن السم والعلقما

(١) يشير الى دخول ابنه الصغير ابو هاشم وقد رآه في هذه الحالة فارتاع لمنظره .

شعر المنفى

ان شعره في المنفى شعر ملك حزين كانت الدنيا ترقص له ، فأصبح امره وامر زوجاته وبناته بيد عتاة غلاظ يأمرونه ويزجرونه بقسوة وخشونة .

ومع استسلامه للقدر ، كان ابي النفس لم يخنع . ولم يخضع الا للمولى القدير الذي اراد ان عر بهذه التجربة القاسية التي ارته الدنيا على حقيقتها .

أرى الدنيا الدنية لا توالى ... فأجمل في التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن برد ... له علمان من ذهب الذهاب
فأولها رجاء من سراب ... وآخرها رداء من تراب

كل ما كان يؤلمه وهو في السجن هذه القيود الثقيلة التي كبله بها ابن تاشفين الذي كان يخشى فراره فأشار باحكام القيود ، وقد اشار الى هذا اكثر من مرة في شعره .

تبدلت من عز ظل البنود ... بذل الحديد ، وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً ... وغضباً رقيقاً صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهماً ... يعض بساقي عض الاسود

وقال :

قد كان كالثعبان رمحك في الوغى ... فغدا عليك القيد كالثعبان

* * *

سلّت علي يد الخطوب سيوفها ... فجذذن من جلدي الخصيف الامتنا

وهكذا فقد ظل اربع سنوات في السجن لاملهاة له ولا سلوى الا الحرقة والشكوى ، وترديد ذلك شعرا حزينا ينبع من قلب دام .

وحين قطع امله من العودة الى مملكته، وشعر بدنو اجله نظم قصيدة رثى بها نفسه ووصى ان تنقش على قبره، والقصيدة الماع الى امجاده الماضية ، ثم الى مصيره المحزن .

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقاً ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم ، بالعلم، بالنعمى اذا اتصلت ... بالخصب ان اجدبوا، بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا ... بالموت احمر ، بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم ، بالبحر في نعم ... من السماء ، فوافاني لميعاد
ولم اكن قبل ذاك النعش أعلمه ... ان الجبال تهاوى فوق اعواد
كفاك، فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي أخاه الذي غيبت وابله ... تحت الصفيح ، بدمع رائح غادي

حتى تجودك دمع الطل منهمراً ... من أعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولاتزل صـــلوات الله دائمة ... على دفينـــك لاتحصى بتعداد

نظم هذه القصيدة وهو في الرمق الاخير ، فلم يكد تشرق شمس ربيع الاول من سنة ثمان وثمانين واربعمائة حتى غيب ثرى أغمات جثمان هذا الملك الشاعر الذي انطوى بموته ملك بني عباد فحزن القوم عليه حزنا شديداً ، ورثاه الشعراء واشاد المؤرخون والادباء بمآثره .

يقول الفتح بن خاقان في قلائد العقيان :

« ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وخلده يتردد بين النكبات والعثرات ، ونفسه تتقسم بالاشجان والحسرات ، الى ان شفته ميتته ، وجاءته بها امنيته ، فدفن بأغمات ، وأريـــح من تلك الازمات .

ويقول مؤلف نفح الطيب :

« قال غير واحد : من النادر الغريب انه نودي على جنازته : « الصلاة على الغريب » بعد عظم سلطانه وسعة اوطانه وكثرة صقالبه وحبشانه وعظم امره وشانه .

« واجتمع عند قبره جمـــاعة من الاقوام الذين لهم في الادب حصة ، وبقضية المعتمد في صدرهم غصة » .

وزار اديب الاندلس وعالمها الوزير لسان الدين بن الخطيب قبره فقال :

« وقفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة اغمات ، وهو بمقبرة في نشز من الارض ، وقد حفت به سدرة ، والى جانبه قبر « اعتماد » حظية مولاة رميك ، وعليهما هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها ، فانشدت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من اولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً ... ويا سراج الليـــالي المـــدلهمات

هذه هي مراحل حياة هذا الملك الشاعر الذي انطوى بموته ، بعد سجنه ، ملك بني عباد .



الطريق الى النجوم

المهندس حميد طرابيشي

- ٢ -

لماذا نفكر بالفضاء الخارجي :(١)

لماذا يتسابق علماء العالم في سبر الفضاء ولماذا تتسابق الدول في معرفة اسرار الكون الخارجي ؟ لماذا نرصد الشمس والقمر . ولماذا نحاول معرفة كنه المناخ الذي يحيط ببعض الكواكب كالزهرة وزحل والمريخ والمشتري ؟ لماذا تخصص الولايات المتحدة المليارات من الدولارات ويخصص الاتحاد السوفيتي مليارات الروبلات لابحاث الفضاء ؟!.

لابد من وجود سبب يدفع هؤلاء الناس ليبذلوا الجهود ويكرسوا الزمن ويخاطر بعضهم بحياتهم ، كرواد الفضاء لجمع معلومات عن الكون المحيط بكوكبنا الهادىء الساكن .

اننا دون شك ندرك ان لكل عالم يجري بحثاً علميا هدفا من وراء بحثه وأبحاث الفضاء غايتها الأولى تحسين الحالة المعاشية للانسان الذي يعيش على هذا الكوكب ودرء الخطر عنه .

(١) نشر الجزء الاول من هذا البحث في العدد الرابع والعشرين الماضي

قيل ان المواصلات هي عصب المدنيـــة الحساس فكلما سهلت ازدادت سرعة انتشار المدنية وكلما سهل الانتقال من مكان الى آخر وبالتالي سهل نقل محاصيل بلد الى بلد آخر فتختفي المجاعات وتكافح الاوبئة والامراض ويتوفر الغذاء المفقود ويعم الرخاء .

لقد كان التلستار الفتح العامي الأول الذي استثمر علوم الفضـــاء فشعر بفائدته عامة الناس لأنه نقل اليهم برامج التلفزيون وسهل مخابراتهم الهاتفيـــة وحسن من جودتها . وكانت المعلومات التي قدمها السبوتنيك الاول والثاني دفعة لفن الطيران ففتح أمام مهندسي الطيران آفاقا جديدة في تعيين ارتفاعات جـديدة لطائراتهم وكشف الستر عن اوهام كان يعتبرها الطيارون عوامل قاتلة لهم في الاجواء العليا . من أجل كل هذا يحاول العلماء زيادة معلوماتهم عن الاجواء التي تحيط بالأرض ومن أجل كل هذا سنتابع في هذا المقال مابدأناه في الحلقة الأولى :

الأخطار الكامنة في الفراغ :

من الصعب جدا على سكان كوكبنـــا الذين يعيشون في اعماق بحـر الهواء المحيط بالأرض ان يتصوروا ذلك الاتون الملتهب الذي يجـــاور أرضهم في الفضاء ونعني به الشمس واشعتها ذات التأثير الشنيع على كل مخلوق حي خارج الجو المحيط بالأرض ، فلنأخذ مثلاً الاشعة مافوق البنفسجية الخطـرة والاشعات الاخرى التي أمواجها أقصر من امواجها والتي تشابه الاشعة السينية (X - Rays) .

اننا نعرف بان الاشعة مافوق البنفسجية نافعة طبياً إذا اعطيت على جرعات خفيفة . كما نعلم ان النشاط البيولوجي لجرعات اكبر من هذه الاشعة قاتل للجراثيم ويستعمل لتطهير الهواء والماء والغذاء .. الخ.. وهي كغيرها من الوسائط اذا لم ننتبه الى استخدامها

بحذر. تصبح من الاعداء الالداء لجسم الانسان . وباعتقادنا ان بعض الناس من يحبون الحمامات الشمسية يمكن أن يكونوا فكرة ممتزة وبسيطة جداً ومخففة الى اقصى حد عما يمكن أن تسببه الشمس من اخطار خارج الجو المحيط بالارض. كما يجب أن ندرك ان الاشعة الواقعة في مجال الاشعة مافوق البنفسجية اقوى بعشرات المرات في الجو خارج نطاق الارض منها على الارض وهذا لأن الهواء المحيط بالارض يعمل كمصفاة مرشحة (Filter) يخفض من شدة الاشعة ويضعفها.

الى جانب الاشعـــة الصادرة عن الشمس فان الكواشف التي ارسلت لاستطلاع الفضاء الخارجي قد اكتشفت مصدراً جـــديدا للاشعاعات الخطرة (الاشعة السينية) في الجو المحيط بالارض صادرة عن المنطقتين القطبيتين للارض يمكن كشفها الى بعد (١٠٠) كيلو متر من الارض .

والآن ماهو تأثير هذه الاشعة على ركاب السفينة الفضائية . نستطيع ان نجزم بانه ليس للاشعة مافوق البنفسجية ولا الامـــواج السينية (X - Rays) الاقصر منها الصادرة عن الشمس أي خطر لأن الغلاف الخارجي والزجاج الخاص الذي يستعمل لنوافذها سيمتصها كلياً .

كذلك هناك خطر عظيم يسمى بالاشعة الكونية (Cosmic Rays) يأتي من خارج الجملة الشمسية . وهذه الاشعة عبارة عن جداول من الجزئيات الذرية (Stream of Atomic Neuclei) ذات قوة خارقة لاتقدر تسير بسرعة عالية جداً تحتاج الى درع فولاذي وزجاج خاص لنوافذ القمرة لاتقل سماكته عن متر واحد لتصبح كثافتها قريبة من الكثافة التي تهبطها اليها الطبقات الجوية حول الارض .

ان تأثير الاشعة الكونية على العضويات الحية التي يمكن أن تتواجد خارج الجو المحيط بالارض تعادل مئات المرات تأثيرها قرب سطح البحر . وبالرغم من

أن تأثير هذه الاشعة على الاحياء على سطح الارض لا يمكن كشفه بسبب ضعف هذه الاشعة فانها يمكن أن تعادل تأثير الاشعاعات المتأينة الاخرى كالاشعة السينية (X - Rays) واشعة كاما (Gamma Rays) واشعة الفا (Alpha Rays) واشعة بتا (Beta Rays) التي تنشرها المواد الناشطة رديويا (Radio Active Subst) .

وتقاس جرعة الاشعاعات المتأينة بوحدة قياس رونتجن (Roentgens) ورمزها (R) وهي وحدة تستعمل بصورة واسعة في هندسة الوقاية (Saety Engineering) وجرعة قيمتها واحد (R) تكفي لتفتيت حوالي (١٢) جزء (Molecule) من مادة ما في خلية حية الى اشتات (آيونات) . ولنكتسب فكرة احسن عن هذه الجرعة نقول بانها هي كمية الاشعاعات التي يتعرض لها انسان عندما يفحص صدره بالاشعة السينية ثلاث مرات او هي الكمية من الاشعاعات التي يتعرض لها انسان يلبس ساعة يد ارقامها فوسفورية لمدة بين (١٠ - ١٢) سنة .

ان مجموع ما يمتصه جسم الانسان على ارتفاع سطح البحر طول حياته هو من (٥ - ١٠) (R) حيث يعود سبب خمس هذه الكمية الى الاشعة الكونية ولكن وجدت الهيئة العالمية للحماية من الاشعة الرديوية (International Commission On Radiological Protection) .

ان هذه الكمية من الاشعاعات يمكن ان يقبلها جسم الانسان دون ان تؤذيه ولقد جمعت اجهزة القياس المركبة على الصواريخ والاقمار الصنعية من المعلومات ما يشعر بان الزمن اللازم لشخص ما ليحصل على الكمية المخصصة له من الاشعة الكونية هو بضعة شهور اذا سافر في الفضاء دون ان تحميه الطبقات الجوية .

ولقد برهن تحليل المعلومات التي اخذت عن الكلبة (لايكا) والكلاب

الاخرى التي دارت في الفضاء حول العالم في سنة ١٩٦٠ – ١٩٦١ بان الاشعة الكونية لا تؤثر تأثيراً مباشراً مؤذياً على الاعضاء الحية . ولكننا لا نستطيع ان يتجاهل التأثير الخاص لبعض النوى (Noclei) التي قد تتواجد في الاشعة الكونية بثقل اكبر من ثقل النواة المادية ، والتي تحدث تأيناً شديداً عند مرورها في خلية حية مما يسبب تدمير الخلية الحية كلياً .

ويمكن الجزم بان التجارب التي اجريت حتى الان في هذا الحقل قد اجريت على حيوانات لان التجارب على الصواريخ التي يقودها رجال لا تزال خطرة . الا انه قد ارسلت قطعة صغيرة من جلد الانسان الى قمة الجو وحفظت بشكل يحفظ فيها الحياة ومن ثم اعيدت الى مكانها من الجسم الذي اخذت منه بعد عودتها الى الارض فأخذت مكانها بصورة منتظمة ولم يظهر عليها سوى بقع بنية صغيرة جداً بعد ثمانية اشهر من عودتها الى الارض وكانت هذه البقع هي النقاط حيث اصطدمت النوى الثقيلة بالجلد .

كما ان تجربة مشابهة قد اجريت في شهر آب سنة (١٩٦٠) حيث حمل القمر الصنعي السوفييتي الكلبتين الشهيرتين بيلكا (Belka) وستريلكا (Strelka) بالاضافة الى قطعة من جلد آدمي وقطعة من جلد ارنب . وكانت النتيجة ان حصلنا على برهان علمي على انه لا سبب للخوف من التأثير المباشر للاشعة الكونية على اعضاء جسم الانسان في طيرانه في الفضاء خلف الجو المحيط بالارض .

ولقد اكتشفت اجهزة الاقمار الصنعية الاميركية والسوفييتية بان هناك نوعاً معيناً من الاشعة لم تعرف حتى عهد قريب تتواجد على ارتفاعات عالية جداً . ولقد وجد ان كثافة هذه الاشعاعات عالية الى حد يكفي اذا تعرض لها جسم انسان غير محمي حماية كافية لعدة ساعات لان يمتص كمية تعادل الكمية التي يمتصها نفس الجسم طيلة حياته على الارض .

ولقد وجد ايضاً ان هذه الاشعة يمكن حماية جسم الانسان منها بواسطة درع سميك (Tihck Shieldine) ويمكن تحاشي تأثيرها السيء اذا رسمنا طريقــاً اميناً لسفينة الفضاء في الجو .

الى جانب الانواع المنوعة من الاشعاعات يوجد في الفضاء بين الكواكب ما هو اخطر منها وهي الشهب (Meteors) التي تجتاز ذاك الفضاء متجولة في جميع الاتجاهات بسرعة تفوق سرعة الاقمار الصنعية التي اوجدها الانسان .ومرة اخرى فان هذه الشهب حتى عندما يكون حجمها كبيراً نوعاً ان تكون ذات تأثير خطر على سكان كوكبنا هذا لانها تحترق مباشرة عند اول تلامس مــع الطبقات الجوية وتترك وراءها ذنباً مضيئاً طويلاً ، ويسميها الناس النجوم المذنبة او المذنبات . ولكن شهاباً صغيراً جداً يسير في الفضاء بسرعة هائلة قد يؤذي او يدمر سفينة فضاء بكاملها . اما التجارب في المختبرات العلمية عن سماكة الدرع الذي يصنع من مواد معينة ليقي هــذا الدرع شر التصدع تحت قوة صدمة شهاب من مقاس معين فقد برهنت انها لا فائدة منها وهذا لان السرعة التي يجب ان تعطى لجزء صغير من مادة معينة لتنجح تجربة من هذا النوع يجب ان تزيد عن (٥٠) كيلو متر في الثانية او اكثر وهـذا بالطبع يفوق سرعة اي صاروخ او قمر صنعي . ولقد برهن حسابيا ان جزءاً من شهاب منطلق بهذه السرعة سيضرب درعا مصنوعاً من اقسى فولاذ معروف ويحدث فيـــه شقا اضعاف اضعاف حجمه الاصلي .

انهذا يفرض علينا ان نتعلم اكثر فاكثر عن كيفية توزيع الشهب في مجال الجملة الشمسية . ولكن من المستحيل عملياً ان نعدد الشهب ونحن على الارض وخصوصاً الشهب المتناهية في الصغر في حجمها . لان كل مانراه من هنا بعيوننا

المجردة هو الضوء الذي يسببه احتراق شهب كبيرة نسبياً في حجمها اي التي تبلغ حوالي واحد مليمتر في حجمها وواحد مليغرام في وزنها . اما الشهب الاصغر من هذا الحجم فلا يمكن كشفها ولا حتى بادق الاجهزة الموجودة لدينا . واول من عد هذه الشهب عداً مرضياً نوعاً ما كان صاروخ البث السوفييتي الذي ارسل في ٢١ شباط سنة ١٩٥٨ . واليكم كيف جرى العد :

صنع لوح من الفولاذ غير قابل للتأكسد (Stainless steel) مساحة سطحه حوالي (٢٠٠) سم وثبت على اربعة نقاط في مقدمة درع الصاروخ ، وثبت تحته جهاز لاقط يسمى بيزواليكتريك (Bieso - electric) صنع من الباريوم التيتانيت (Barium titanate) . وهو جهاز يقلب القدرة التي يسببها اصطدام الشهب المتناهية في الصغر مع لوح الفولاذ ويترجمها الى اهتزازات كهربائية (Electrical oscillation) . ومبدأ عمله هو مبدأ البيزواليكتريك (Bieso Electric) الذي يعتمد اساسيا على اعادة الشحنة الكهربائية في الشبكة الكريستالية (Crystsl lattice) داخل الكريستال (مثل الكوارتز والباريوم تيتانيت والامونيوم فوسفات . وهذا يولد شحنات كهربائية على سطح الكريستال وصدمة الشهب المتناهية في الصغر تسبب انحناء اللوح وبالتالي تفاعل الكريستال للحظه قصيرة جداً من الزمن يتبعها حالا اهتزازات مضمحلة في الدارة الكهربائية . ويمكن تكبير هذه الاهتزازات وارسالها راديويا الى الارض ، حيث بدلالة الاهتزازات يمكن التعرف على كمية القدرة التي تحررها صدمة الشهاب بسطح اللوح الفولاذي .

وقد استطاع هذا الجهاز ان يعد (٢٦٨) شهاباً متناهياً في الصغر خلال الدقائق التي بقي الصاروخ خلالها في طبقات الهواء العليا ، ولم يزد وزن اكثرها عن كسور من الغرام .

أما الشهب الكبيرة فنادرة جداً والزمن الفاصل بين شهاب كبير وآخر زمن طويل. ولقد برهنت ملاحظة الشهب انها كلما كانت كبيرة ندر ظهورها. ولقد برهنت التجارب الاولى ان سفينة الفضاء لن تصطدم بشهاب قطره (١) مم الا مرة كل (٤٠٠) سنة. أما الشهب التي قطرها (٥) مم فلن تصدمها الا مرة كل (٤٠) الف سنة.

ولقد برهنت المعلومات التي حصلنا عليها من الصواريخ والاقمار الصنعية بأن عدد الشهب لايشكل خطراً كما كنا نتصور من قبل. كما ان المستكشف الروسي الذي ارسل باتجاه القمر صادف شهباً بوزن $\frac{1}{10000000}$ من الغرام مرة كل عدة ساعات ولم يصادف شهاباً واحداً وزنه واحد من مليون $\frac{1}{1000000}$ من الغرام. ولقد عزا انقطاع الاتصال الراديوي مع المحطة السوفيتية الآلية الى اصطدامها مع شهاب كبير ومن المحتمل بعد اصطدامه بها اخترقها من طرف وخرج من الطرف الآخر وبذلك عطل الاجهزة بداخل القمرة.

وفي بعض الاحيان يصادف كوكب الارض سيلاً كثيفاً من غبار الشهب يتأرجح حول الشمس في مسار متشابه تقريباً. ولقد لوحظ من هذا النوع في الايام الاولى بعد ارسال السبوتنيك الثالث الروسي، وازداد بذلك تواتر الاصطدامات آلاف المرات عما كان عليه قبلاً.

وبما ان الموضع النسبي لمسار الارض ومسار سيل الشهب لا يتغير مع الزمن لذا فان تاريخ زخات الشهب الصادر عن ذلك السيل لا يتغير لمدة تقدر بالسنين. ولقد ظهر ايضاً بالملاحظة ان هناك عشرين يوماً في كل سنة تكون فيها الشهب ناشطة اي ان جو الشهب عاطل اثناءها لذا يستحسن عدم اطلاق سفن الفضاء في تلك الايام.

— للبحث صلة —

أثر الإسلام والمسيحية

في القارة السوداء

للكاتب الغوماني الدكتور جون بيايي
خاص بالمعرفة ترجمة قسم التحرير

كانت افوبقة بالنسبة للعالم الخارجي ، منطقة مغلقة وبعيدة تقطنها شعوب وثنية ، حاولت المسيحية والاسلام والماركسية والمذاهب الاخرى أن تشق طريقها اليها وفي نطاق هذا النشاط السري المحموم الذي بذلته البعثات التبشيرية المختلفة ، في تنصير الناس ،أخذت المذاهب التقليدية والعادات الاخرى تختفي تدريجياً . وبدأت قارة افريقية تعتنق الاسلام والمسيحية بصورة مضطردة . ويلاحظ المرء ظهور شبـــه ديانات مولدة نتيجة لانصهار المعتقدات التقليدية والجديدة . لقد تغلبت هـذه المعتقدات بالمسيح المنتظر ، وبمبادىء التوفيق بين الديانات المختلفة وبمذاهب أخرى كانت غريبة عن المسيحيـة وناتجة عن النظريات والتفسيرات الخـــاطئة ، وبالتالي فقد أثرت في اتجاه شعوب افريقية بسبب الضغط الثقافي الذي صاحب ادخال هذه الديانات الجديدة .

فالمعتقدات الغيبية على اختلافها ، كانت تمارس على نطاق واسع ، قبـــل دخول الديانات التوحيدية افريقية . وكانت هذه المعتقدات الوثنية ، سائدة في اليونان القديمة وبين الشعوب التي قطنت الطرف الشمالي لافريقية — أي البربر .

كان البربر أول من اعتنق الدين الاسلامي فساعدوا على نشره في المناطق الجنوبية بسرعة مذهلة . وحتى الممالك القـــديمة مثل وننولا واكسوم وعلوا والحبشة وارثة مملكة كوش ، رحبت بالدين الاسلامي بحماس بالغ .

ومن أعالي النيل ، شق الاسلام طريقه الى التشاد في القرن الرابع عشر . ولم يكد ينقضي ذلك القرن ، حتى انتشر الدين الاسلامي من خط العرض (١٤) الى خط العرض (١٢) شمالاً . فقد شق المبشرون البربر طريقهم من الشمال والشمال الغربي ، والعرب من الشـرق . والجدير بالذكر ان البربر والعرب اجتمعوا في (التشاد) مؤخراً في القرن التاسع عشر ، وفي خرائب مملكة كانم القديمة الـتي اعتنقت الاسلام منذ القرن الحادي عشر . وكانت كانم (Kanem) هذه بمثابـــة جزيرة اسلامية في بحر من الوثنية . ويبدو ان الاسلام هبط فجأة على تلك المملكة فتمسكت بهذا الدين ولم تتزحزح عنه لعدة قرون .

وفي افريقية الشرقية ركز التجار المسلمون والرحالة العرب ، جهودهم في النصف الاخير من القرن الثامن ، في التجارة ونشر الثقافة بدلا من الدين . ويعود هذا الى النقص في معرفة الكيان الجغرافي والطوبوغرافي لتلك المنطقـة . فواجهوا مقاومة وعداوة خارقتين من جانب القبائل الــتي كانت اقل ميلاً من قبائل الغرب الى اعتناق الديانات والآراء الجديدة .

ومع ذلك فانتشار الثقافة الاسلامية ساعد على وضع الاسس ومهد الطريق لانتشار الاسلام في خلال القرن التالي .

اما المسيحية فتغلغلت في افريقيـة في اواخر القرن الخامس عشـر . ففي

المراحل الاولى ، استطاعت المسيحية بمساعدة البرتغاليين ، ان تترك أثرهـــا في القبائل المنتشرة على الساحل . وبعد ذلك بثلاثة قرون ، شق المبشرون الكاثوليك والبروتستنت طريقهم الى اواسط افريقية وأسسوا المرسليات والبعثات التبشيرية من السنيغال حتى موزمبيق . غير ان انتشار المسيحية تأخر بسبب التنافس الذي شجر بين الكاثوليكية والبروتستانتية . فظهرت ديانة « المسيا » ومذهب التوفيق بين المسيحية والاسلام . وظهرت كذلك عـــدة اشكال من المذاهب الروحية والمعتقدات المختلفة في السحر والشعوذة . وكان مذهبا « النورو Goro والسان San » لا يزالان قويين في المجتمعات الافريقية .

وبالرغم من سرعة انتشار الاسلام والمسيحية ، فلا يزال اتبـــاع المذهب الغيبي الروحي (Animist) يشكلون الاكثرية بين الافريقيين حتى يومنا هـذا . ففي افريقية السوداء ، باستثناء المغرب العربي ومصر ، يبلغ عدد الغيبيين الروحيين (٩٠) مليوناً من بين (١٧٦) مليوناً من السكان . ويبلغ عدد المسلمين (٤٧) مليوناً والمسيحيين (٣٩) مليوناً . اما تقسيم بقية افريقية بين المسيحية والاسلام فليس متساوياً . ففي شمال نيجيريا والصومال والسودان والسنيغال فالاغلبية الساحقة من المسلمين ، بينما المسيحيون في الحبشة يشكلون الاكثرية . غير ان الاحصاءات التي تتوصل اليها الحكومات والمؤسسات الدينية ليست دقيقة . وفي التوصل الى تقديراتي هذه ، كان لابد لي من اخذ جميع هذه الامور بعين الاعتبار .

فنصف سكان أفريقية السوداء يتبعون المذهب الغيبي (Animist) بينما النصف الآخر مقسم بين الاسلام والمسيحية كما ذكرنا آنفاً . الا ان عدد المسلمين يزيد على عدد المسيحيين . ومع أننا نعمد الى تقسيم السكان الافريقيين الى مسلمين ومسيحيين ووثنيين ، فهنالك مئات الألوف من السكان الذين ينتمون الى مجموعات

وفئات مختلفة تماماً : مثل مذاهب الوثنية الجديدة وحركة التوفيق بين المسيحية والاسلام - وهي شكل من اليهودية استمدت الهامها وتعاليمها من التوراة . وهنالك المسيحيون الجدد ومن بينهم جماعة تنتسب الى الكنيسة الحبشية وتتسم بطابع القومية ، واتباع المسيا الذين يعمدون الى تأليه شخصية قوية للغاية مثل الماتسوأزمية والهارزمية والكمبانغويزمية .

كان التأثير الاجتماعي والسياسي لهذه الاديان عظيماً للغاية ، حتى في المجتمعات الغيبية (Animist) كان تأثير الديانات التوحيدية بالغاً مما أدى الى تطورات رئيسية في نظرة السكان الاجتماعية .

مذهب الغيبية : Animism

كان مذهب الغيبية الديانة الوحيدة التي وجدت لتربط بين الانسان والعالم الروحي او عالم مافوق الطبيعة لمدة قرون خلت فقد اعتنقها أكثر من نصف سكان افريقية . والمذهب المذكور ليس مجموعة من الخرافات كما يظن بعض السطحيين . فالطلاسم والسحر لاتوجد في هذه العقيدة واتباع هذا المذهب الغيبي لايمارسون عبادة الاصنام . فأصنامهم تمثل الاجداد والاسلاف او بعض الآلهة غير المنظورة وغير المادية . والواقع ان نظرتهم الى التماثيل تشبه نظرة الكاثوليك الى حد بعيد .

ولهذه الديانة فلسفتها وقواعدها الاخلاقية . ففلسفتهم تعتمد على فكرة القوة الحيوية التي تؤثر في الانسان والحيوان والنبات والآلهة . وقد تضعف هذه القوة وتنمو . ويمكن تنميتها بتقديم الاضاحي . فالعالم الطبيعي وغير الطبيعي في ارضنا ذو توازن غير ثابت ولا مستقر . فخرق المبادىء السلوكية والقواعد الاخلاقية ، وانتهاك حرمة العدالة واسخاط الاجداد والاسلاف والآلهة ، قد تخل بهذا التوازن ، الذي لايمكن اعادته الا بتحرير القوة الحيوية .

ان اتباع هذا المذهب يؤمنون بوجود كائن غير طبيعي (فوق الطبيعة) بالاضافة الى وجود مجموعة ثانوية من الالهة والارواح التي بامكانها معالجة الالهة الغاضبة وارضاؤها فالموتى الذين يقطنون عالم مافوق الطبيعة يمكنهم التدخل لمصلحة نسلهم ، وكثيراً مايفعلون في اعتقادهم ، وتضم هذه الديانة كهنة يقيمون الصلوات ويتوارثون شعائرها أباً عن جد . وطقوسهم الدينية ، مزيج من التقاليد والعادات المحلية المعروفة .

الاسلام

شق الاسلام طريقه الى افريقية بمساعدة الامراء والزعماء البارزين وذلك لانهم كانوا يعتبرون الاسلام عاملا موحداً سياسياً وقانونياً . ولكن في معظم انحاء افريقية دخل الاسلام بصفة دين لا بصفة اسلوب ثقافي اومعيشي . اما افريقية الشرقية فكانت مستثناة . اعتنق الافريقيون الدين الاسلامي ، الا انهم لم يعمدوا الى ادخال الشريعة الاسلامية في نظامهم الاجتماعية الا بعد زمن طويل . لقد تمسكوا بالشعائر الاسلامية واقاموا طقوسها وتمسكوا باركان الدين الخمسة :الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة . اما فيما يتعلق بالزواج فمعظم السكان كانوا يتبعون تقاليدهم الخاصة . وابقوا قوانين الارث والتعويض على حالها حتى لا يخلوا بالنظم والتقاليد القديمة الموروثة . واخذوا يؤمنون بنظام الملكية الالهية التي استمدوها من تعاليم القرآن ولكنهم لم يدخلوا اي تعديل على نظام الاسرة والقبيلة ولم يبدلوا في اوجه حياتهم الاجتماعية الاخرى .

أما من الناحية القانونية ، فتتمتع الشريعة الاسلامية بالسيادة ، في البلدان التي يغلب فيها المسلمون . ولما كان المسلمون الافريقيون لايستطيعون تغيير الشريعة أو تطبيقها حرفياً ، فانهم يعمدون بالواقع الى تطبيق العدالة وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم المحلية ، مطبقين جزءاً من الشريعة الاسلامية كلما دعت الضرورة لذلك .

لهذا نجد ان الاسلام ترك أثره في حياة الافريقيين ولكنه لم يغير كثيراً من فلسفتهم وتقاليدهم . وبالرغم من أن الكثيرين يمكنهم تلاوة الشهادة ، إلا أن المتعمق في تفهم المبادىء والتعاليم الاسلامية قلائل . وقد يعود السبب الى صعوبة اللغة العربية التي ليست منتشرة في افريقية السوداء ، على أنه من الجدير بالذكر أن الاسلام ؛ خلال عهود الحكم الاستعماري ، ساهم الى حد بعيد جداً في بعث الحركات القومية . إذ قد ساندها بتعاليمه الخاصة في المساواة والمحبة الاخـوية وانشاء المدارس لتعليم القرآن وايقاظ السكان من سباتهم الطويل وحملهم على تفهم مشاكل بلادهم وقضايا شعبهم . كان الاوروبيون يعرفون عامل الاسلام التوحيدي لهذا اخذوا يعتبرونه قوة هائلة في حركة توحيد الافريقيين والدعوة الى الجهاد المقدس لاحباط مشاريعهم الاستعمارية في افريقية . وبالرغم من أن هؤلاء المستعمرين كانوا يحترمون الاسلام ، فقد بدأوا يخشون انتشاره .

لقد اثبت الافريقيون المسلمون قدرتهم على الصبر والتحمل ، وسعة افقهم العقلي وبعد نظرهم فساعدتهم هذه المزايا الفذة في اوقات الشدة والازمات ، كما ساعدت ايضاً ، الى درجة كبيرة ، في اقامة المجتمع الافريقي الحديث الذي يخلو من التعصب المسيحي والاسلامي . فالمسلمون والمسيحيون على السواء يعملون جنباً الى جنب بوئام وسلام تامين .

المسيحية

اما تأثير المسيحية في افريقية فجديد ، باستثناء الحبشة التي كانت قلعة المسيحية منذ امد طويل . ففي البلدان التي كانت تحكمها فرنسا ، كانت السياسة ترمي الى تنفير الشعوب الافريقية ونشر مبدأ المساواة على امل ان يصبح الافريقيون يوما ما فرنسيين ولكن اخفق الفرنسيون في ادراك القوى

العاملة بين الافريقيين . وأساءوا فهم الشاعر الافريقية ولم يقدروا اثر التقاليد والقيم الروحية الافريقية ورسوخها في حياتهم . اما الانكليز فكانوا يختلفون عن الفرنسيين . لقد تركوا المبشرين وشأنهم . وفي بعض الاحيان كانوا يعارضون في نشر الثقافة الغربية على أيدي هؤلاء المبشرين .

كان المبشرون يرمون الى نشر الثقافة الغربية جنباً الى جنب مع التعاليم المسيحية . كان خطأهم الرئيسي في البداية شنهم حملة شعواء على نظام تعدد الزوجات والعادات والتقاليد الاخرى المتأصلة . غير انهم مع الزمن تمكنوا من اقناع الكثيرين من الافريقيين بان الديانة المسيحية ليست ديانة الرجل الابيض وانه بامكانهم اعتناقها شريطة أن يعيشوا وفاقاً للمبـــادىء المسيحية . غير انهم لم يفهموا حقيقة الرأي الافريقي الا بعد مرور زمن طويل ، فادخلوا عندها ، تعـــديلا جوهرياً في اساليبهم وخططهم .

كان المبشرون المسيحيون ، منذ البداية ، يؤكدون للافريقيين ان لا علاقة لهم بالسياسات الغربيـة ولا شيء يربطهم بالسياسة الاستعمارية . وكثيراً ما كانت تعاليمهم تتعارض والسياسة الاستعمارية المتبعة في القارة الافريقية . ولا بد من الاعتراف بان المسيحية ساهمت ايضاً الى حد بعيد ، في تحطيم القيود الاستعمارية .

اما اليوم فالبشرون يواجهون تحدياً سافراً وخطيراً . ففي المناطق الافريقية التي اخذ يسود فيها نظام الحزب الواحـد ، والتي اخـــذت تتحول الى النظام الاشتراكي ، اصبح التحدي للمبشرين تحـــدياً سياسياً واقتصادياً . فهم اليوم يواجهون مشكلة خطيرة — مشكلة الخيار بين الاشتراكية التقـدمية او الظهور بمظهر القوى الرجعية في مجتمع تقـــدمي . ولكنهم في كثير من الاحوال كانوا يختارون السير وفق مقتضيات الحاجات الافريقية الراهنة .

وهنالك مشكلة اخرى تواجه المبشرين الذين يحاولون التوفيق بين المسيحية والظروف المحلية الافريقية وجعل التعاليم الدينية المسيحية مفهومة بين الجماهير — وهي مشكلة لجوء الكنيسة المسيحية الى انتهاج (سياسات) جديدة يمكن ان تؤدي الى انحرافات باتت تلمس في افريقية الوسطى ، وقد تؤدي الى شكل من المسيحية غير معترف به .

المذاهب الاخرى

ومن اهم المذاهب الافريقية ، مذهب التوفيق بين الفرق المختلفة وهو مذهب يعكس رد الفعل لدى بعض المجتمعات الافريقية بالنسبة لسيادة الغرب الثقافية والدينية . فالذين يعتنقون المسيحية في يومنا هذا ، كثيراً ما اعتقدوا بان تفوق الاوروبيين الفني والصناعي يرتبط بمعرفتهم لله ووقوفهم على النواحي المديدة للدين المسيحي . ولكن بعد ان اعتنقوا المسيحية ، لم يلمسوا تحسناً في اوضاعهم وذلك لان المبشرين ، في رأيهم ، حالوا دونهم واسرار التقدم الموقوف على الاوروبيين . فاصيبوا بخيبة امل فاخذوا يعودون الى عباداتهم ومعتقداتهم الاصلية فأسسوا كنيسة المسيح ، وهي عبارة عن مذهب عسكري ذي طابع ديني سياسي . وكان من قادة هذا المذهب البارزين ، ماتسو Matsawa المعروف باسم اندريه غرينارد ، وكذلك سيمون كيا نغو وتوفي كلاهما . ويعتبر هذان الزعيمان في نظر اتباع هذا المذهب بمثابة انبياء ارسلهما الله لانقاذ الجنس البشري .

وبالرغم من تعدد الديانات واختلاف المذاهب والمعتقدات ، فلايزال الافريقي متديناً للغاية . لقد قام الاسلام والمسيحية بدورهما في تكوين الخلق الافريقي . فمكنا افريقية من سعة الادراك والتجمل بالصبر . وأخذت بعض المذاهب الوثنية

في الآونة الاخيرة تشق طريقها في افريقية وأخذت تشتد وتقوى بسبب خيبة آمال الافريقيين . إلا أن تقدمها سيظل محدوداً لانها تغاير القيم الاساسية التي يؤمن بها الشعب وتقاوم معتقداته . إن افريقية قارة يمكن لحرية العبادة وحرية الفكر فيها أن يتتشرا بسرعة مذهلة . ولكن بالرغم من هذه الحريات ، فلا يزال الافريقيون يتميزون ببعد النظر وسعة افق التفكير والاحتمال والتصميم على الحفاظ على الفارق بين معتقدالفرد من جهة وبين واجبه كمواطن نحو شعبه و بلاده من جهة مقابلة .



الكتاب والموضوعات

تمثــــالي
شعر أمين نخله
الزهاوي والتجديد
في الادب العربي في العراق
الدكتور يوسف عز الدين
اقتراحات حول اصول
بعض الالفاظ الاجنبية
الدكتور عبد الكريم اليافي
نجوى وذكريات
من نظير زيتون الى شفيق معلوف
حلوى الفقير قصة لهيرمان ملفيل
ترجمة ملك ابيض العيسى
الأم
قصة للسيدة ام عصام

الآداب



تمثالي (١)

لأمين نخلة

الفنُّ ودَّ ، ولم أودَّا
أن التقي في العمرِ ندَّا !

أمصوِّري في الصَّخر : قد
أحسنتَ في التصويرِ جدًّا.

هذا فمي في الصَّخر طاب ،
وللكلام قد استعدَّا .

لولا التَّمكُّن ، لم يفارقْ
نطقـــه أخذاً وردَّا .

وكأنَّ في الشَّفتين من
شفتيَّ تطريباً ومدَّا .

---

(١) نظم الشاعر الكبير هذه القصيدة بعد ان شاهد تمثاله الذي
لار



ولمشهد الحسّ انبرت
عينان في معنىً مؤدّى

فاللمح يخرج ، والجفون
كأنّها لم تألُ جهدا ..

والأنف أنفي،قد عرفتُ
تحدّراً،وعرفتُ صعْدا.

وأكاد ألمس جبهتي
في جبهةٍ أطوى وأندى.

ياعاملاً في الصّخر : هل
آتيته لحماً وجلدا !

* * *

عجباً لشيبي ، فهو يحمل
خافقاً في الصّدر يهدا !

ترك العنان،إلى الصّديق،
وفارق الخصم الألدّا

لاشاكياً للشمل والاحباب
والأيّام ، فقدا .

أتراه لم يُفرز له
قلبٌ يضجُّ عليه وجدا!..

وتظنّه انصيح بالشعراء
يوماً ان يشدّا ،

نسيَ القوافي ، والكلام
الوشي،والنَّفَس الامَدّا !
واخجلتـــا من صمته ،
ومن التزام السيف غمدا !
لكن أمنتُ مدى الزمان،
فلن يعقّو فيه خدّا .
ويبيت يَهزأ بالأمور ،
ومايُراح بها ، ويغدى .
يطوي الليالي ، والبدورُ
يعدُها شيباً ومُردا .

* * *

شبَهي: إذا صدق الزّمان،
وأهلهُ،والشعّرُ،وعدا ،
وتقلّبت دنيا ، وأصبح
كلْ هـذا القوب بعدا ،
وسلمتَ أنت ، فما لقيتَ
على المدى حطّما وهدّا،
أقبلتُ نحوك فوق أعناق
الدُهور أجوُ بُرْدا !
ماالصخور،ماالصوّان يوم
يشيّد الشعراء مجدا ! ..

الزهاوي والتجديد في الأدب العربي في العراق

للدكتور يوسف عز الدين

الزهاوي ثاني اثنين من شعراء العراق اللذين كانا حديث الشعراء والادباء ونقد الناقدين وقد كان اثرهما في الحياة العامة في العراق واضحاً حتى انقسم الناس الى قسمين أحدهما يؤيد الزهاوي وينتصر له وثانيهما يهاجمه ويظهر محاسن الرصافي وقوة شعره وجزالة اسلوبه . كان التنافس بينهما شريفاً في اثبات الذات والتباهي في الخدمة العامة فواتاهما التوفيق كثيرا وجانبهما أحياناً .

ولا تكاد تقرأ جريدة أو مجلة أو مطبوعاً في فترتها الا تجد لها ذكرا أو أثراً فقد غطت سمعة الشاعرين على كل شاعر سواهما وأغفل ذكرهما كثـيراً من الشعراء والادباء اذ سيطرت على ميدان الأدب خصومتهما الدائمة وصلحها المؤقت وتعدت هذه الخصومة العراق الى البـلاد العربية وكانت الحياة العـامة آنذاك تضطرم بكل جديد وتعج بكل حديث يصل الى البلاد العربية اذ تفتحت الأذهان على عوالم جديدة لم يكن يسمع بها العربي فجاشت النفوس واخذت تمور بالحركة وتندفع حيوية وتسابق تنتهب هذه الآراء الجديدة . وقد كان الشاعران يتنافسان في ادعاء الجديد والتمسك بالحديث ومهاجمة التقاليد البالية والمثل القديمة التي كانت تغل الافكار آنذاك وتحد من فكر العربي في خياله وتصوره .

وقد كان كلاهما ينشد الاصلاح وتراهما دائماً في صراع دائم وفي سباق من أجل هذا الاصلاح وان اختلفت وسائل التعبير عندهما .

واذا ما درسنا شعر الشاعرين وجدنا التيارات الفنية الجديدة تتسرب الى قصائدهما وتهدف الى التجديد والتخلص من أعباء الأساليب القديمة التي ورثناها عبر القرن التاسع عشر وكان الشاعر يريد أن يتحرر من تلك الأساور التي حجزته عن المجتمع ليعبر عما تجيش به الحياة وما يضطرم به الفؤاد من أحـلام ورغبات لم تكن تساعفه بها ثروة القرون الماضية والتي مرت على العراق وخلفت فيه جروحا عميقة غائرة وانبتت في ذهنه حدوداً ضيقة لم يكن قادراً على التخلص منها . وقد ظهرت تيارات التجديد جارفة عارمة في هذه الفترة ، والرغبة في الابتعاد عن كل قديم في الأدب والعادات والتقاليد والحياة الاجتماعية . ولكنها ظهرت في الأدب بأجلى صورها .

نرى هذا الصراع وهذه الثورة تضطرم في الشعر العربي في مصر والشام ثم تنساب ثمرة ناضجة الى العراق يتلقفها أبناؤه مابين هاضم لها ومتمثل وبين مار بهايستافمن أريجها ويتباهى بشمها .

هذه التيارات الغربية التي اصطبغت بالطابع العربي أخذت تلائم الحياة الجديدة فاذكت الرغبة الجامحة في التطور والتجديد فانفلت الشعراء من أسر الشعر المقيد وتركوا تلك الموضوعات المحدودة كالنظم في باقة السعف وبناء غرفة في البيت أو استهداء محفظة نقود أو التغني بالدجاجة (١)

وغدت آلام الامة واحداث الشعب وخطوب اليوم تؤثر فيهم التأثر الواضح فاختلفت الاوزان الشعرية وتبدل نسجها وموسيقاها . إذ لم تعدالقصيدة تستهدف اختيار الالفاظ الرنانة ورصف الكلمات القاموسية في اسلوب قديم انما اعتنى الشعراء بالمعاني عناية واضحة وتحولوا تحولا بينا عن تلك العناية القديمة وانصب اهتمامهم نحو الحس الداخلي للامة والشعور الفياض الدافق الذي يمليه عليه شعورهم . ولا يغربن عن البال شيء مهم هو أن شعراء هذا العصر لم يتركوا شخصيتهم العربية الاصلية وثقافتهم الاسلامية عندما نزعوا الى التجديد إنما كانت هذه الشخصية واضحة المعالم في الانتاج وهذا ماأضاعه ابناء الجيل الذي جاء بعدهم فقد ذابت شخصياتهم واضمحلت في التيار الاجنبي فلاتكاد تجد في شعر هؤلاء إلا صدى آراء لاتمثل الا شخصيات اجنبية بعواطفها واحاسيسها تتحدث باللغة العربية ويؤسفني أن اقول أن بعض هذه اللغة تهاوى وخارت قواه بين أيدي بعضهم فالفرق بين الزهاوي والجيل الحاضر ان شعراء عصره جددوا في الاساليب وفي الموضوعات وتمثلوا تجاوب كثير من دعوات التجديد لكنهم استقلوا

(١) يراجع الشعر العراقي في القرن التاسع عشر بصدد الامثلة

بأساليبهم وبشعورهم فكان عربيا يحمل في طياته أفكاراً عربية وارتفعوا بعقولهم ومواهبهم كثيراً ووقفوا أدبهم على خدمة العرب والمسلمين ولم ينسوا مشكلات العالم سواء أكانت في اليابان أو الصين أو تركيا.

كنت حددت أول حركات التجديد الحقيقية في العراق باعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ (١) ولم احدده ابتسارا كما اعتبرت الرصافي في الشعر العربي مثل (كولرج ووردز وورث) (Words Worth) في الشعر الانكليزي بعد دراسة وتمحيص وقد سار على هذا المدى بعض الدراسين دون وعي والواقع ان تحديد التيارات الادبية أمر صعب فقد يسبق تيار تياراً وتعمل التيارات الفكرية ببطء وتتسرب هينة رخيصة حتى تتجمع في اللاشعور وتتدفق دون وعي.

والانسان العربي المسلم كأي انسان آخر يتأثر بالمؤثرات النفسية ويخضع لنواميس الحياة الطبيعية لكن الارث العريض الطويل والدراسات العربية العميقة التي يدرسها الاديب العربي تخلق في نفسه الاستعداد لكل جديد ولكل حديث فان كثيراً من الشعراء الممتازين كالرصافي والشبيبي كانت لهم جذور في الثقافة العربية وكل شاعر من الجيل الماضي له ثقافته التي تختلف باختلاف دراسته الاولى وبيئته، فتقبله يكون على قدر ثقافته وعلى مدى احتكاكه ببواعث هذه الحركة فقد وجدنا التجديد في شعر الرصافي والزهاوي وخيري الهنداوي ثقافة أظهر من شعر الشرقي وعبد الحسين الازري ومحمد علي اليعقوبي ولا اعني ان هؤلاء لم يجددوا في اساليبهم وموضوعاتهم انما اندفع الرصافي اكثر من بقية هؤلاء الشعراء وهوى الزهاوي الى الحضيض في طلب التجديد. اذ لم يكن لهم جميعاً مثل يسيرون على هديها انما هي انماط من الثقافة يتلقونها من مجلة المقتطف والمؤيد

(١) الشعر العراقي الحديث

والهلال والمقتبس ، تأثر بها كل الشعراء فكان اثرها عميقاً في النفوس واتجه الشعر العربي في العراق الى شيء جديد لم يألفه في القرن التاسع عشر فقد اعتنى عبد الغفار الاخرس بالمديح فأجاد فيه ولمع الحليان في الرثاء والحبوبي بوصف الخمر ولكنهم لم يأتوا بجديد مستحدث يتساوق والحياة التي كانوا يعيشونها انما كانت دفقات التجديد خطرات عامة تظهر في شعر الاخرس مرة عندما يتغنى بقومه ويطالب بالاصلاح وعند عبد الغني الجميل عندما يرى الاجانب في العراق البلد العربي والذي استشرى نفوذهم فيه وادعوا ان الحق لهم وحدهم رغم غربتهم وقلتهم وما كان يئن منه عبد الباقي العمري من الفساد الذي استشرى في العراق .

لم تكن المشاعر التي كان قد احس بها الشعراء قبل الزهاوي الا مشاعر عامة أحس بها الشاعر العربي وحده وادرك ان له حقوقا طبيعية في ارضه ووطنه وليست للحكومة العثمانية الحق في سلبه هذه الحقوق والتصرف بها لان حقه الطبيعي يجب ان يتوطد في ارضه ويجب ان تصان حريته وتحترم شخصيته وتفكيره ولكن المجتمع العربي لم يدرك اهمية هذا الحق وانما عاش كتلا بشرية تأكل وتنام.. ولا تفكر في مصيرها وحريتها .

ولما جاءت التيارات الفكرية انهضت الناس من ركودهم الفكري وخاصة التيار العلمي فتوسعت المدارك وعرف الشعب ان له حقوقا يجب ان تحترم في هذه الحياة .

وقد انفرد الزهاوي بأنه أخذ بكل ماجاء في المقتطف والمؤيد والمقطم وغيرها من المجلات العربية فكانت آثارها في شعره واضحة المعالم وخاصة الأثر العلمي ونظرية دارون وآراء كستاف لوبون ونظريات الفلك ، لذلك فالزهاوي كان مفكراً أراد أن يجدد وهو عميق الفكر حاول أن يحيط بالمذاهب الفلسفية

الحديثة وحاول أن ينظمها شعراً ولا اظنه قد افلح في ذلك وتجرأ على نظم هذه الآراء شعراً كان أكثره مهلهل النسج فأخذ الناس بالآراء التي جاء بها وتأثروا بصداها أكثر من تأثرهم بشعره وأدبه . اذ قد تأثروا بثورته على القديم وعلى الاستبداد وعلى الحكم الفردي الذي كان يحكم به السلطان الشعب آنذاك أكثر من تأثرهم بجمال العبارة وسلامة الاسلوب وقوة نسج القصيدة وتأثر الناس بعاطفته الصادقة وتدفق احاسيسه ومظهره المريض المشاول وبشيخوخته أكثر من تأثرهم بجمال بيانه وروعة اسلوبه ولم يكن الشاعر قادراً على أن يرتفع اعلى مما ارتفع ومن الظلم أن تطالبه بالارتفاع الى مستوى شوقي والمتني وأبي العلاء ان هذه هي قابلية يحدها المرض الدائم والشيخوخة والقلق واضطراب الحياة العامة .

ان احاسيس الشاعر الصادقة واضحة المعالم وغرضه النبيل وحبه الصادق للتجديد او الاصلاح خير شافع وأجمل ميزة امتاز بها الزهاوي الشاعر .



اقتراحات

حول أصول بعض الألفاظ الأجنبية

للدكتور عبد الكريم اليافي

كنت منذ مدة قد بحثت أخيلة الشعراء العرب واوصافهم لبعض الازهار واسترعى نظري شدة التقارب بين لفظ النعمان في شقائق النعمان وأنيمون Anémone الاجنبي وهو لفظ يكاد يكون واحداً في اللغات الاوربية كالفرنسية والانكليزية والالمانية والايتالية والاسبانية والروسية وغيرها . ومعاجم اللغات الاجنبية

تذكر أن هـــذا اللفظ الاجنبي آت من اللاتينية المتأخرة Anemone وأنه دخل اللاتينية من اليونانية Anemōnē وأن هذا آت من Anemos باليونانية نفسها أي الريح اذ كان هذا الزهر يتفتح بتأثير الريح . ويذكر الفرنسيون بداية استعمالهم لهـذا اللفظ حول سنة ١٥٤٤ والاسبـــانيون حول سنة ١٥٥٠ . بيد أن اللغويين الاسبانيين ينوّهون بأن الكلمة آتية من اللاتينية الى اليونانية . هذا ولا وجـه للتمحل وادعاء مجيء اللفظ من اليونانيـة مع شيء من التحريف في وقت كان الاوربيون مع لغتهم اللاتينية مغمورين بالحضارة العربية يقتبسون من انوارها ومن معانيها وألفاظها . وكل مافي الامر أنهم اقتصروا على الشق الاخير من شقائق النعمان ولم يستطيعوا أن تتلفظ حناجرهم بالعين منه . ومن المعلوم ان النعمان معناها بالعربية القديمة الدم . فكأن تلك الازهار والدم اشتقت جميعاً من أصل واحد على حسب الخيال العربي البصري .

والذي جعلنا أخيراً نفرض مجيء اللفظ اللاتيني من العربية أننا سئلنا مرة عن أصل لفظ Amalgame واستعماله بالعربية ، فرجعنا الى الكتب الأجنبية فرنسية وانكليزية فكانت تذكر مجيء الكلمة من اللاتينية ثم قبلها من اليونانية وتتحمل الوجوه في ذلك الارجاع ماعدا بعض المعاجم منها Dictionnaire éthymologique الفرنسي فهو يذكر مجيئها من أصل عربي ويقول ان هذا الأصل مجهول ، وماعدا المعاجم الاسبانية فهي تقول انها آتية من العربية وتحاول ردها الى مادة جمـــع . ولكن الذي يرجع الى المعاجم العربية القديمة يجد فوراً أن المُلْغَم كل جوهر خلط بالزوواق . وعندئذ ينجلي المشكل ويبرح الخفاء .

وأكثر الألفاظ الاجنبية الغامضة الاصل التي يتمحـــل الاوربيون في ارجاعها من اللاتينية الى اليونانية من المناسب التفكير في أصولها العربية .

ولا يزيد اللغة العربية جمالاً أنها أمدت لغات كثيرة بألفاظ شاعت وساغت فيها . فاللغات يستمد بعضها من بعض دائماً . وإنمـــا يستغرب المتأمل عدم تحري الأوربيين الصواب لأصول لغاتهم . وذلك لا بد من أن يكون راجعاً الى زمن التعصب القديم عندهم .

هذا وربما لا يجد اللغويون الاوربيون أصلا في اللاتينية للفظ شاع عندهم وعندئذ يقفون في أصله عند اللغة الاسبانية او البرتغالية ويتحيرون في هـــذا الاصل ، كما وقع بالنسبة الى لفظ الباروك Baroque ووصف الفن به . وانما هو آت من لفظ البراق العربي كما بينا في كتابنا « دراسات فنية في الادب العربي ».

بعد ان كتبنا ماسبق وتحدثنا به ذكر لنا صديق ان الاستاذ مصطفى الشهابي كان قد نبه على اصل لفظ Amalgame العربي في مجلة المجمع المجلد ٢٥ ص ٦٠١ — ٦٠٦ . ورجعنا الى مقاله فوجدناه يتفق مع ما ذكرنا . أما لفظ Anémone و Baroque فربمـــا كنا نحن اول من نبه عليها . وعندنا ان شقائق النعمان هي التي تقابل لفظ Anémone الاجنبي كما هو شائع في مصر وهي الازهار الجميلة التي افتتن بها الشعراء العرب وتغنوا بهـــا . وهي كثيرة في وادي بردى ومروج دمشق ، واذا قطفت بقيت مـدة في الاصيص دون ان تذبل . هذا مـع العلماء السوريين يطلقون احياناً لفظ الشقيق على ما يقابل Coquelicot بالفرنسية، و Corn -poppy وكان العرب القدماء يدعون هذا الزهر بالمنثور والخشخاش وهو من فصيلة الخشخاشيات غير فصيلة الشقيقيات التي منها شقائق النعمان وان تشابه النباتان في اللون الاحمر القاني كأنه اللهب .

نجوى وذكريات

من نظير زيتون
إلى شفيق معلوف

حبذا الكتاب ونجواه ، والحرف وشذاه ، والقلم في مجراه ومداه ونهاه ، والبحر ودره الزهراه ، والولاء متجليا في سناه ، والخلق المعطار صداحة موسيقـــاه ، خصبا مجناه ، هطالا جداه .

واهلا بكتاب الشفيق ، العبق الرقيق ، البليغ الوشيق ، يطل كالفجر الفتيق ، بوجهه المتهلل الطليق ، وديباجه الموشى الانيق ، وادبه الاصيل العريق ، وما أوفاه من صديق ، وما احبه من رفيق بل اخ شفيق .

ولقد سرني واثلج صدري ماتبلج في سطورك من آيات الود والوفاء ، ينضح بها قلب معطاء ، وكأنها ديمة هطلاء ، اصابت صدرا يشتاق الظل والماء ، ويحن الى النجعة الخضراء ، وينشد الكلمة الزهراء ، ويرصد النجم واللألاء ، ويتصبى الصهباء ، والغناء ، والحب والرواء ، ويسلك كل درب الى النقاء والصفاء والضياء .

---

* لولا انه نظير زيتون ، ولولا حبه العظيم لعربيته وعروبته ، لقلنا انه اسلوب في الانشاء عضى عليه الزمان،وخلفته وراءها الركبان ... فلنسر مع المهجريين الاكابر ، في انشادهم الكلمة العربية وتطريبهم بسحر الوانها وانغامها — المعرفة —

وما اكثر ما اثاره كتابك العبهري في خاطري من ذكريات وذكريات ، وكم اضرم في ضلوعي من حنين حنان رؤوم الى تلك السنوات المشرقات ، على ماشابها من كبوات ونبوات ، بين رفاق تآلفت قلوبهم وتجندت ارواحهم للمروءات والمكرمات ، والذود عن ام اللغات ، في دنيا غريبة اللغات والعادات ، فكانوا احنى ضلوعا على الحرف العربي من المرضعات ، واوفى بالضاد من شيوخها السادات . وأكلف بالفصحى من صوفي بالعبادات . واغضب للغة القرآن من مضري في حومة المساجلات وعكاظ ، المفاخرات .

ويا درهم كم اشرعوا لهــا من رايات ، وكم اطلقوا من هتافات ، وكم شيدوا من قصور مشمخرات ، حامت حولها ارواحهم هائمات مستلهمات ، وكأن الفصحى سيدة الالاهات المعبودات.

ويا بارك الله لهم ، كم طرزوا من معلقات ، وكم صاغوا من مذهبات ، وكم رصعوا من رسائل وآيات ، واخذوا نفوسهم بنفائس المؤلفات والترجمــات ، والقصص والروايات ، وكم ساروا بالفكر العربي في مواكب الحضارات والفتوحات ، مجاهدين صوفيين بعزائم ماضيــات ، لاتثنيهم مثبطات ، ولا تصدهم عقبات ، وأيد جاحدات .

وما كانا كرمهم رفاقاً نظمتهم عقود سامية المطالب والغايات ، في ظلال العربية الام زينة الامهات.

فأي قدر جاء بهم من سورية ولبنان ، مدنا وقرى ، والقاهم في هذا المهجر الاميركي السحيق وأي يد اختارتهم وجمعتهم ونظمتهم في عقد فريد متوهج البريق ، واي وحي هبط عليهــم فاطلق اذهانهم وقلوبهم وايديهم تمجيدا للسان العربي العريق العتيق . وأي ملك نوراني كريم فجر مواهبهم وعبقرياتهم ، فكان للفصحى في عصر الظلمات ذلك الفجر الفتيق ؟

هــذا سؤال جوابه في فم القدر العربي ، والوحي العربي ، والملك النوراني العربي ، وليبحث النقاد وينقبوا ماشاء لهم البحث والدرس والتنقيب فلن يلقوا الجواب الا حيث قلنا ، وما سوى هؤلاء فزاعم لاطائل وراءها ...

واعود الى ذكرياتنا المعذوذبات ، فما كان احلاها من ندوات ومسامرات ، وامسيــات زاهرات ، ومجالس انس عامرات ، ومجاني ادب ممرعات ، في محاضرات ومقابسات ، ودراسات ومطالعات ، وكم لنا من وقفة على منابر الاشراق والاشواق والمكاشفات ، وكم زركشنا صحائف ملهمات ، من للفكر وثبات وانتفاضات ، وللروح نسمات معتدلات متألقات . وللقلب نفحات موشوشات هامسات ، وللخاطر آفاق وواحات. وللعين منتجعات ممرحات وللعربية حلى موسوسات.

ولا شك انك تذكر قصرك ياشفيق ، أفتذكر تلك الخيام التي طالما نصبناها للادب فجراء ، وللشعر سحرا وللنثر خمرا ، وللروض هزارا وزهرا . أكنــا آنئذ دما في شرايين العمران ووقودا في معركة الحيــاة والبقاء ، ام كنا سمارا حالين في فسطاط امير من امراء الصحراء ،

وللمهباج رقصة وحداء ، وللقهوة طلعة وبهاء ، وللروح نشوة عذراء ، وحلم وضياء ، وصلاة ودعاء . وللخيال فراقد وسماء ، واجنحة تشق مجاهل الفضاء .

ما اكثر مانصبنا من الخيام في قصرك ، وما اكثر ما عاطيتنا من خمرك وبشرك ، ونثرت لنا من درك وبحرك .

ويا لدارتي ابرهيم بسيط ، الشاعر والموسيقي ، ويوسف اليازجي ، الوطني والوجيه . كم عقدنا فيهما من مجالس حافلات ، وقضينا ليالي مكوكبات ، وكم بسطنا للادب والطرب والعرب من سرادقات ، وكم ارتعشت للعود اوتار شجيات . وكم كانت للقومية الام صولات وجولات . وكم كان للنفس دعابات ومجازات وكتابات . وللحناجر نبرات ورخامة ابتهالات ، وزفرات اشواق وآهات ، وللآذان دغدغات واهتزازات ، وللعيون مسابح ومفاتن وصبوات ، وللقلب وميض خطرات ، وخفقات ، ومجنى ذكريات ..

ولله يوم قضيناه في المياس السانبولى بضيافة فؤاد وتوفيق بندقي ، تكريما لوفد فلسطين العربي المؤلف من اكرم زعيتر الفلسطيني وتوفيق اليازجي السوري رحمه الله ، ونصري معلوف اللبناني ، جمعتنا فلسطين العربية في حدائق المياس ، على ضفاف بحيراته ، وفي افياء خمائله واشجاره التي بسطت اغصانها مرحبة في نضرة الغيد الاماليد ، وما احيلاها متعة وللبلابل اغاريد ، وللحناجر اناشيد ، وللاوتار فرحة عيد . وللكؤوس انفاس عشاق معاميد ، وفي الصدور دندنة زغاريد ، وللنسيم الفواح بوح وترديد .

كان عدد الضيفان ينيف على مائة وخمسين من ادباء وشعراء وحملة اقلام ووجهاء ، يتقدمهم حبران جليلان هما المطران اغناطيوس حريكة المشهور بمواقفه الوطنيـة ، والمطران نيفون سابا شاعر الالوان البديعية ، وحاشيتها الاكليريكيـة ، والقنصلان السوريان سامي الخوري وفريد اللحام ، واللبنانيـان هكتور خلاط ومحمد فتح الله ، اجتمعوا كلهم في المياس ، في ظلال العلم الفلسطيني العربي ، ذلك اليوم ، كان يوم فلسطين المستطاب (١٩٤٧) ولقد كانت آمالنا مضمخة بالاطياب ، تلبس للنصر أبهى جلباب . نعم كنا مؤمنين ايمانا راسخا بالفوز في ساحة الغـلاب ، وكيف لانتحمس ويأخذنا الزهو ونشرب الاكواب تلو الاكواب ، انخابا في انخاب ، ونصفق طرباً للقصيدة وللخطاب تلو الخطاب ، نعم كيف لانتحمس ونطرب وقد اقتربت ساعة الحساب ، ويالها من ساعة تشق الحجاب وتخلب الالباب .

اكان يدور في حدس احدنا ماطبخه لنا القدر من حنظل وصاب ؟ اكان يقع في خلدنا اننا كنا نمضغ السراب ونحسبه صفوة الالباب ؟ لاورب الارباب ، لقد كانت ثقتنا بقادتنا قوية وطيدة لايرقى اليها ظن وارتياب ، ولكن ابى الدهر الا ان يأتي بالعجب العجاب ، وكانت نكبة فلسطين منا وفينا ويالهول المصاب ، ولكننا مع هذا الواقع الاليم لم نستسلم ، غير ان التبرعات

المالية الطائلة التي جمعناها وتتئذ ناراً وحديداً في صدور المعتدين المجرمين ، آلت ويا للاسف ، بل يا للعار ، الى مناديل تمسح بها دموع الآلاف من اخواننا المشردين ، بين ثواكل وايتام واطفال بائسين وشيوخ عاجزين . واحر قلبي على فلسطين ، تفتك بها نصال قايين ، وتعبث بقدسيتها ايدي الصهاينين ، فيذبل الورد والنرجس والياسمين ، وتذرف النجوم دمعها السخين . .

ذكريات تلوح في خاطري واحرص عليها فأسقيها من دموعي ، واحنو عليها بضلوعي ، واحرق لها شموعي ، واصلي عليها في يقظتي وهجوعي ، وأنذر لها حبات من قلبي وخفقات من ولوعي ، كم تقلدتها سيفا ولبستها درعاً من دروعي ، وكم سكبت على اصدائها من ينبوعي ، وما أكثر ما اطلقتها سفائني وقلوعي ، دنياً عوامة جوابة فتانة تملك علي جلال ربوعي ، وابتهالي وخشوعي ، لها الله تلك الذكريات ، فنها زاد روحي ، واليها جوعي . .

اكتب هذا الغيض من فيض ذكرياتي ، فيهتز القلم طربا وتخفق عجبا دواتي ، وكأن في سردها تجديداً لحياتي ، وفي بثها بحثاً لصبواتي ، وتسعيرا لضرام اشواقي وصباباتي ، وطلاً يطفىء من لظى آهاتي ، وطلة تحوم حولها متهللة آهاتي ، فاذا القلب ترفرف عليـــه بسماتي ، واذا العين تجلوها عبراتي . .

ولنضمن في النجوى ، وقل معي ، رحم الله خالك ميشال معلوف اول رئيس لعصبتنا الاندلسية وموطد دعائمها باعانه واحسانه ، رحمه الله وافاض عليه من شآبيب رعايته ورضوانه ، كم مجلس لنا في ايوانه ، وكم منهل من دنانه ، وكم نشوة من ادبه وبيانه ، وسراوة مخبره وعيانه . وصفاء نفسه وانطلاق جنانه ، ومزايا كمينين رقة ، في مناعة لبنانه ، يا له مثلا رائعا في غيرته على غسانه ، واعتزازه بعدنانه وقحطـانه ، واكرم به رائداً من رواد الادب المهجري وفارسا في طليعة فرسانه ، ماسمعنا (الخريف في فرسايل) الا تخيلنا عرائس الشعر طوع بنانه وتشييع الخريف المصوح العريان صدى شجونه واحزانه ، يا للقلب الـكليم كيف يعطف على الخريف الكليم في نجوى وجدانه ، ويخلع عليه من ارجوانه ، ويعقد له من تيجانه ، فاذا الخريف يخطف الابصار بلمعانه ورعشة اجفانه ، ودفء حنانه .

ماشمنا مجلسه يوما الا تمثلنا تدفق البحر وروعـــة شطآنه ، ونفاسة دره ومرجانه ، وبشاشة الروض وعبير ريحانه ، وعندلة القمري على اغصانه ، وكأنه كاهن الادب في هيكله بين بخوره وزيته وقربانه .

في محياه طالعتنا بسمات الاخ لأخوانه ، وفي كفه قرأنا آيات فضله وتهتانه ، وعلى شغاف قلبه تفتحت ازاهير الحب فواحة بعرفانه ، فسلام على روحك السماح يا ميشال في اناشيده والحانه ، ومعاريجه وجنانه ، ستعيش ذكراك في ضمائرنا ما أشرق الربيع في بستانه ، وداعب نسيمه خدود زنابقه واقحوانه ، ما عاش الحرف العربي في ديوانه .

ولنذكر بالاعجاب والاطناب منابر النادي الحمصي وحفلاته وشعراءه وخطباءه ومن جلجلوا في حلباته ، ونثروا جواهر البيان في ردهاته ، فاذا علم الفصحى مزهو بهالاته . وكأنه ملك بين جحافله ورايانه ، وماذا تقول في مسارح النادي الزحلي وتمثيلاته ، وفنونه في تقديم رواياته ، من اندلسياته الى سموألياته ، كان للفن العربي المسرحي آية من آياته ، وللحرف المفرد الصداح دارة من داراته ، وكم صفقنا وانتشينا وقد اخذنا الابداع بومضاته وموجاته .

فسلام الله على روح مؤسسه اخيك فوزي وجاده بغيث من بركاته ، وتغمده بالرعاية كرمى اياديه وحسناته .

ولنعرج على شيخنا ابي الطيب المتنبي في ذكراه الالفية . ولنشنف آذاننا بسماع شعراء العصبة الاندلسية ، في هذه الحفلة العكاظية التاريخية . ولقد أصغينا اليهم فرأيناهم امراء ينشدون في حضرة المتنبي صاحب الجلالة الملكية . كما كان ابو الطيب ينثر درره في ديوان سيف الدولة الحمدانية ويقهر خصومه وحساده بالابيات الخالدة العصية . ويؤجج في صدورهم نيرانا جهنمية . وما همه ان يتألبوا عليه ويجحدوا فضله . وقد لها بهم لهوة زربة ، وعفرت شوارده لحى لهم سرية ، وانوفا حمية ..

انصتنا لشعراء العصبة فأخذتنا نشوة علوية . وكأننا بهم يستلهمون القوافي فتنزل خمرا بابلية ، واقواسا قزحية . وأخذا سحرية ، فاي دنيا مسحورة كشفتها لبصائرنا تلك الرقى الذهبية؟

ولقلنا ان في اقلامهم من سحر العصا الموسوية ، لولا انها دفقات عبقرية ، ووثبات ذهنية ، واستنباطات بيانية ، وانطلاقات شعرية ، في ضبابات غيبية .

ولقلنا انها قبس من البدائع الأحمدية ، لولا انها لا بيداء فيها ولا سيوف هندوانية ، ولا خيل ولا ظباء ولا رماح سمهرية ، بل كحل العيون البدوية ، واغانيها الدافئة الغزلية ، ووضاءة المباسم العبهرية ، وحرارة الصدور الحفية ، ولفتات القلوب السخية الوفية ، في نبضات حضارية ، وانفاس ندية عنبرية ، وخطرات يلمعية سحبانية .

ولم تكن ذكرى المتنبي في سان باولو حفلة ولا مهرجانا ، بل رواقا باذخا رتلنا فيه صلاة وقدمنا قربانا ، وقرأنا انجيلا وقرآنا . **وركعنا خشعاً في محراب الفصحى شيوخاً وشباناً ، وبزغت العربية في صدورنا نوراً وايمانا ، وحباً واحسانا ، وفصاحة وبيانا.**

وتجلى (الطائر المحكي) الهاما وفيضانا ، ومهندا وسلطانا ، وغيثا هتانا ، وزأرة وتحنانا ، وملكا كبا به جواد الدهر وسقاه تسهيدا وحرمانا ، ونبا سيفه وقد طالما ابلى وطاعن فرسانا ، فما تقاعس بل تعاظم إباء وعنفوانا ، وغنى العبقرية الوانا وافنانا والحانا . ومضى به الردى وقد خلف للفصحى تراثا خالدا يهز عصورا وازمانا ، ويباذخ عروشا وبلدانا . واذا حنحن على المجد فامتطاه كان حصانا ، فما اعتاد الا أن يركب العظمة العذراء حصانا رزانا ..

ولله در شعراء سان باولو ، اذ كانوا ترجمانا له ولسانا ، وعزاء وسلوانا ، ويالفرحة المتنبي ذلك الذي يكاد يأبى لنفسه شمما ان تسكن اللحم والعظم ، يالفرحته اذ لقي بعد الف سنة ، في بلاد غريبة قصية مجهولة اخدانا له واخوانا ، قدروه حق قدره وصاغوا له من عقيان الشعر تيجانا ، ومن القوافي الصداحة عرشا وصولجانا ، وجاؤوا له بالملوك ندمانا ، وشرحوا صدره بعد غصص وآلام تجرع كؤوسها ظلما وعدوانا ، وجراح متلألئة كانت لعين البطولة انسانا ، ولقد طال صبره على قلة الانصاف وثار غضبانا . ويالقلة الانصاف كم زعزعت بنيانا ، وما كان العقوق الا بالنعمة كفرانا ، والا للنذالة عنوانا .

وفي سان باولو انفرج غم المتنبي والقى عن ظهره كرباً واشجانا ، فطابت نفسه وقرت عينه واطمأن قلبه وكأنه نسي ماعاني ...

فشكرا لكم ياشعراء العصبة الاندلسية ، شكرا لك ياشفيق وسحى لرائعتك الدالية ولرفاقك شعرائنا فرحات ونصر سمعان وجورج حسون والمرحوم عقل الجر ، وهناك آخر غاب اسمه عن ذاكرتي .

في تلك الحقبة الميمونة التي مرت كخلسة المختلس ياشفيق ، كانت تدور خمرة الادب بكؤوس مترعات ، وتسجع حمائم البلاغة مسترغدات مترفات ، وترقص عرائس الشعر على رفارف النجوم الساهرات ، تحف بها ارواح بالجمال هائمات ، وقلوب الى الحب ظامئات . وشفاه الى النار القدسية جائعات . وعيون كانت تطوي بانوارها الاقاصي وتتطاول صعدا الى السموات . وهناك تلقي خاشعة ماحملته من قرابين وصلوات ، وتسجد ثلاث سجدات ، ثم تتمسح بعفاف الجنات ، حيث فواكه المعرفة جنيات شهيات ، وينابيع الخير منبجسات متدفقات ، حتى اذا شبعت وارتوت ، آبت على جناح من سوابغ البركات ، في زاد من لطائف التأملات ، لتزرع الجمال في الارض الموات ، وتطعم النفوس الساغبات ، وتسقي الصدور بسحائب الحب الغاديات ؛ ولقد زرعنا وزرعنا واطعمنا واطعمنا ، وسقينا وسقينا ، وكانت لنا القرابين الزكيات ، منذورات غير مأجورات .

أ كنا آنئذ ياشفيق مجانين فتيان ضلالات ومغامرات ، ام كنا ميامين متعبدين ، اصحاب رسالات ؟

لا ادري ولكني كنت موقنا أننا لم نكن ضيوفا على الحياة ، نعيش على هامشها ، وانما الحياة هي التي حلت علينا ضيفا نبيلا ، اثيلا ، فرحبناها وقدمنا لها مايفرضه علينا شرف الضيافة من واجبات وحفاوات وتكرمات .

كما كنت موقناً ايضاً ، اننا لم نكن في مواكب الشعوب والحضارات ادعياء متطفلين نكرات ، بل كنا اصلاء لنا الجذور العميقات ، والصفات العريقات .

ذلك بأننا عرفنا انفسنا فأوتينا فيضاً روحانياً دفاقا ، أغرقنا في التأملات والانتفاضات ،

وغالينا في نذور الأضاحي والصدقات ، وأسرفنا في العطاء الدافىء المسات ، الحنون النغمات ، اللماح البسمات ، الخفي الضيافات ، المتأرج النفحات .

وذلك ايضاً باننا لم ندفن ما وهبنا الله من وزنات ، بل دفقناها وأعددناها أمهات ، تلد البنين والبنات ، وتنمو وتتكاثر فاذا هي مئات ، واذا هي نور في الظلمات ، وظل وزاد وماء فرات .

ولقد اتيح لنا أن نعطي دون ان نفسد عطاءنا بالمن والتبجح والدعوى العريضة البرقشات وكنا الكاسبين المفلحين ، فلن يستوي في ميزان الكرامة رجل يبسط قلبه ويقول : خذ ، وآخر يمد يده ويمن ويقول : هات وأين من يستوفي اجره بدنانير معدودات ، ممن يقدم قرابينه هبات متبتلات ، ونذوراً صامتات ، وعفا الله عن سهام طائشات ، وخطى تائهات ، ووجوه مبرقعات ومسوح ماكرات .

ذلك كان عصر العصبة الاندلسية ومجلتها الرفيعة الوضيئة، الرزينة الوزينة بارك الله في حياتك وحياة رئيس تحريرها حبيب مسعود ، انه ازهى عصور الحرف العربي في الأميركات. كان عصر مجلة الشرق عروس المجلات . وخميلة الحمائم الساجعات والقوافي المفردات. حسب صاحبها فضلا ، مدالله في حياته ، انه ترجم من العربية ، الى البرتغالية تراثاعبقري الكلمات ، عبهري الصفحات.

أنه عصر العشرين جريدة ومجلة عربية كانت تصدر في وقت واحد في سان باولو ، والمئة صحافي وكاتب وشاعر . كما كان ايضاً عصر نعمة يافث ورشيد عطيه وفتى لبنان والدكتور سعيد أبو جمرة والدكتور خليل سعاده وسلوى سلامة اطلس ومجلتهـا الكرمة ، وجورج مسره ويوسف ناصيف ضاهر ، وفوزي معلوف ، وميشال معلوف ، وجورج انطون كفوري وانيس الراسى وعقل الجر وحسني غراب ويوسف البعيني وانطون سليم سعد واسكندر كرباج وسعيد اليازجي وسليم لطف الله وحبيب بشعلاني وداود شكور وسواهم ممن زرعوا الحرف العربي في البرازيل ، كل بما اوتي من موهبة وفضل ، وجهد وبذل . ويالهفي عليهم وقد فارقوا دنياهم صفر الأكف الا من نضال وحراب ، فارقوها وفي الأضالع جمرة الأغتراب . وانقاض ذكريات ولهاب . وفي العين خيال موطن الأحباب . والمدرسة والمعلم والكتاب ، وطيف الصبا التلعاب ومجالس الأصحاب ، وصور الجمال الخلاب ، والثغور والأهداب ، الى صيف العرزال والرباب ، والدبكة والصبايا وهمس العيون في سؤال وجواب ، واللماظات والسلافة والأكواب في احضان النهر المترقرق المطراب ، الى خريف التفاح والأعناب ، والتين والزيتون وثمار آب والجو الشاحب الوجه والاهاب ، فيه من الصيف بقايا أنسام عذاب ، ومن الشتاء وشائج واسباب الى شتاء الموقد اللهاب ، والثلج والمطر في تهطال وتسكاب ، والريح القر في اياب وذهاب ، الى

ربيع الأحلام النرجسية المتأزرة بالسحاب، والأشواق المتبرجة بألف لون من الخضاب . لها النضرة والزهر والورد جلباب ، والأنفاس اطياب ! والكوثر شراب .

هذه كلها تتراءى للعيون في وجد واكتئاب وانتحاب ، يا حسرة الحنين تعوي في جنباته الذئاب ، وتنهشه أقسى النهش بالانياب ، وكأن ذلك المحتضر يقضم جلود العذاب ، ويتوجع وفي القلب يأس ونداء غير مستجاب ، وفي الأذن نعاب الغراب ، وها هو شبح الموت يطرق الابواب ، وها هو ناقوسه يستعجل الرحيل والغياب .. له الله ! في المخيلة المضطربة دمعة وضباب وفي الكف المنقبضة حفنة من سراب . فيا لها من حشرجة مشدودة بألف عذاب ، ولكنها صلاة موصولة بأجر من الباري وثواب .

الا فسح الله لارواحهم في جنانه . وتغمدهم بالجميل من رضوانه . واثابهم بظل من حنانه ورعى البقية الصالحة عماداً لفسانه ، وذخراً لمدنانه وقحطانه . وبارك في حياتهم الغالية بلطفه وتحنانه لتظل مجلجلة في العالم الجديد لغة قرآنه .

وهنا اتساءل بمرارة : اين هي آثارهم الادبية وماذا نعمل لبعثها ونشرها باشفيق ، قبل ان يفوت الاوان وتندرس معالمها وتغيب كما غاب أصحابها فنندم ولات ساعة مندم ، وينبري بعدئذ ابناؤنا وحفدتنا ، فيندودن غضاباً ويقولون : ويح آبائنا ما كان ازهدهم في كنوز الادب المهجري .. !

بعد هذا لا يسعنا الا ان نزجي تحية شكر واعجاب وا كبار الى اخينا الهمام المقدام الشاعر جورج صيدح الذي اصطنع يداً سخية بيضاء ، لا بد لهـا شكر وثناء ، حينما زف الى المكتبة العربية مؤلفه العظيم (ادبنـا وادباؤنا في المهاجر الاميركية) وقد أصبح اليوم مرجعاً للطلاب والمعلمين على السواء في دراسة الادب المهجري ، وسنداً في وضع الاطروحات المتعددة لنيل اعلى الشهادات من البكالوريا الى الماجستر فالدكتوراه . ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه لولا كتاب جورج صيدح لفقـد التاريخ الادبي العربي سلسلة ذهبية فريدة من سلاسله الحديثة الطريفة ، ولضاع تراث فكري نفيس تفخر به المكتبة العربية .

وجورج صيدح رعاه الله انفق مالاً جزيلاً وبـذل جهداً ثقيلاً وصرف وقتاً طويلاً حتى تسنى له نشر كتابه الثمين مع هذا لم يمن ولا تبجح ، بل ابت عليه سراوة في مكرماته ، ونهاوة في آياته ، الا ان يزرع دون ان يحصد ، والا ان يرفد ، ومع العطاء الا ان يشكر الله ويحمده .

ونحن اذا اثنينا على جورج صيدح ، فهذا لا يعني اننا نجحد فضل اولئك البحاثين الامينين الذين صنفوا المؤلفات في الادب المهجري امثال البدوي الملثم ومحمد قره علي ومحمد عبد الغني حسن ومحمد مصطفى هداره وعبد الكريم الاشتر وعيسى الناعوري ووديع ديب ونادره جميل سراج وسواهم ، فلهؤلاء الافاضل ايضا شكرنا المنضوع بعبير الوفاء والثناء .

ويجب علينا ايضا ، مادمنا في صدد الحديث عن الادب المهجري ، ان ننوه بفضل وزارات التربية والتعليم في سورية ولبنان ومصر خاصة لعنايتها بالادب المهجري وتقرير درسه الى جانب الآداب العربية، وكنا نود لو ان دراسة الادب المهجري شملت المنثور ايضا فهناك صفحات مشرقة لاتقل روعة عن المنظوم ، كما ان هذا النثر المهجري فتح للفكر آفاقا جديدة قلما عالجها الشعر .

* * *

اراني يا اخي شفيق ، وقد امتد بي النفس وطاب ، انشيء فصلا من كتاب ، لارداً على خطاب ، ولا جوابا على تحية شاعر النجوم والسحاب ، والقوافي العراب ، ولكن ما العمل يااخي ولي في حنيني الى الماضي عجب عجاب . ولي في ودي لرفاقي عهد لايشوبه مذق او خضاب ، ولي في الذكريات عمر مبعوث يمضي بي الى شواطيء الشباب ، ولي في النجوى سماء مفتوحة الابواب مفتونة الرحاب ، تغشاها الروح مطوفة من محراب الى محراب ، بين صلاة وركعة واحتساب ، فاغيب مغبوطا في جو محبب من الخيال اللاهب الوثاب وما احلاه من غياب .

ولكن الدهر كما عرفناه مستبد اروع ، له حالات تحمد واخرى لاتحمد ، ولعله في يوميه الابيض والاسود ، حكيم بصير لايدرك سر حكمته فكرنا الأرمد ، وعلينا ان نؤمن بالخير ونفسر القضاء السلبي خيرا وان كنا نجهل القصد ، فالخير هو الاصل ، وهو المرجع وهو المسند اليه والمسند ، والحب هو المنهج وهو المورد .

ذلك باني غادرت البرازيل وقد توثقت صلاتي بمئات ومئات من اصدقاء الفكر والمبدأ . وبعشرات وعشرات من رفاق النضال الادبي ، نضال الحرف العربي الذي ينشد الانطلاق والابداع ومثل هذا العدد من الاخوان الذين وصلت بيني وبينهم اواصر القربى الروحية ، ووشائج الصداقة الشخصية ، اقول ، يممت وجهي شطر الوطن ، وقد كسبت في البرازيل والارجنتين وتشيلي وسواها جيشا من الاصدقاء والرفاق والاخوان ، كنت اعده ثروتي الكبرى ، ولكن ما كادت تنطوي بضعة اعوام حتى شعرت بالجزر بعد المد ، ثم اخذت اتلفت عبر المتوسط والاطلسي ، استنشي ريحهم ، واسأل عنهم واستقصي اخبارهم مدفوعا بالذكريات والشوق والحنين ، فلا افوز بما ينقع الغليل ، ولا تقع عيني على غير القليل القليل ، من ذلك الرعيل الحفيل .

اين هم ؟ وماذا اقول في امرهم وامري ؟ أأقول ان البعد مدعاة الى السلوان والنسيان ، مبعثة على تصرم الصلات بين الاخوان ، وعلى فتور العواطف بحكم الزمان والمكان ؟ أأقول ان من لاتقع عليه العينان وتصافحه اليدان ، ويقرع بصوته الاذان ، قلما يلهج به القلب واللسان، لا عن نفور وهجران ، وانما هي طبيعة الامور في الانسان ، وقد قيل « من غاب عن العين غاب نصيبه » من مودة الخلاق ، فاذا الصداقة ضباب ودخان ، وسراب ظمآن ، واذا الود القديم

اطلال بنيان، عفته رياح الزمان ، وكأنه احلام خيال وسنان ، واذا الوفاء يقيم في صحراء الحرمان يرثي الذكريات الحلوة بدمعه الاسوان .

مع هذا لا اعتب ولا اتذمر ولا استرسل في الشكوى ، وانما هي نجوى ، لي فيها عزاء وسلوى ، ولكل امرىء ان يدفع الدعوى بالفتوى ، وحسبي ان يكون للحب في اضالعي اكرم مثوى ، وارحب مأوى وابلغ فحوى ، وانما الحب هو الابقى وهو الاقوى وهو الغاية القصوى وللنفس ان تنزع ماتهوى ، وعند الحصاد تخمد الجدوى وتسقط الدعوى .

اين هم هؤلاء الاصدقاء الذين شاركوني في معارك الحرية والعربية ، والانطلاقات الوطنية والاجتماعية ، والمثل العليا في اهدافها الانسانية ، اين هم هؤلاء الذين تلوت عليهم صلاتي ، وجبلت قربانهم بدم من شرايين حياتي ، وسقيتهم قراحا من دواتي ، وقلدتهم المرصعات من آياتي . فكانوا الربيع الريان في مرآتي ، وكانوا الشهد في فمي ولهاتي ، والسنان في قناتي ، والزيت في مشكاتي ؟

اين هم ، ولمـــاذا اخذوا بقول القائل — من غاب غاب نصيبه — ولم يأخذوا بقول الاخر اقصى رفيقيه له كالاقرب ؟

ولكن ، لا علي ، أليس لي في الحرف الوسيم المفتتح الريان ، شهبان وتيجان ، ورعية واعوان ، سمـــار وندمان ، وومضات تخلب الاذهان ، ورؤى تحسر الحجاب فاغيب في نشوة روح ووجدان ، واطرح دنيا الطين والبهتان ، دنيا الوجوه المستعارة في حرباء الالوان ؟

بيد اني استثني رهطا كريما وفيا ساقاني ودا صافيا نقيا كثلج لبنان ، والق البدر في نيسان ، وأسبغ علي من باذخ الحب والوفاء ، مايزري بالقيعان ، وما يعتز به صاحب صولجان ، فما اجدرهم بالثناء والشكران ، وما اجدرني بالفخر اذا باهرني القمران .

وبدهي بعد هذا ان احتفي لرسالتك ياشفيق ، واتذوق بلاغتها سطرا بعد سطر ، وكأنها للعين رقيـــة سحر وخير ، وللخاطر روض أريض ونهر . فخذ بهمس القلب في بلاغة الشكر ، متلألأ كالبدر ، منتظما كعقد الدر ، ساطعا كالعطر ، واذا تمنيت على الله من أمر ، فلا اتمنى الثراء وفخفخة القصر ، اطليه متأبها بالتبر ، واحشد فيه تحف العصر وروائع الدهر ، ولا النجوم الغواني الزهر ، يتهادين كبرا على كبر ، ويتأودن في الغلائل البيض والحمر ، وفي العيون براءة الحب والطهر ، فاقتحم عليهن الحجـــاب واساقيهن رحيق الشعر ، واخليهن بدراري النثر ، واعانقهن صدرا الى صدر ، والثمهن ثغرا على ثغر ، وظلا على جمر ، والعفة ملء النفس والفكر ، ولصهباء الهوى العذري رعشة وسكر . هذا كله لا اشتهيه ، ولا يملأ عيني وروحي على شهيات مجانيه ، وانما اتمنى العودة الى البلد الازهر البكر ، حيث قضيت ازهى سنين العمر ، الملم ذكرياتي الخضر ، واحتسيها خمرا في خمر ، واتقع غليل الحنين بعد مر الصبر ، وانعم بالدفء بعد القر ، وازرع القلب زهرا في زهر ، وارووي الروح بسلسبيل كذوب الفجر ، فبعضي يشتاق بعضي وقـــد طالت

الغيبة والهجر ، بلى وهناك ارعى وطني بعين النسر ووثبة النمر وغضبة الضرغم الحر ، وادفع عنه حملات الشر والغدر بايمان اصلب من الصخر .

وكأنا هناك في المهجر ، نرى الله تعالى اعظم واكبر ، وأسمح واقدر ، واوسع رحمة واغفر ، وكأنه جل جلاله نقل كرسيه من موطن الرسل والانبياء ، الى البرازيل الخضراء حيث الغابة العذراء والديمة الهطلاء ، والشمس والكواكب والارض والدأماء ، تسبح بحمد رب السماء ، وترفع اليه الصلاة والدعاء ، صبحا ومساء .

والى اللقاء يا شفيق في رسالة اخرى وهاجة القنديل ، فواحة البخور حنانة الترتيل ، او تحت سماء البرازيل ، حيث انجلى الروح افقها الجميل ، ووقع الفكر على الدرب الحفيل ، وحيث زرعنا السنين حروف اوهام واباطيل ، او في ربوع لبنان الفنان البجيل ، حيث الظل الظليل ، والنور والسلسبيل ، والضاد والتنزيل ، او في حمص ابن الوليد وديك الجن والزهراوي وسلوم وهاشم الاتاسي وعريضه والحداد والمغربي وسمعان وسواهم من اخ وصديق وعديل .

واسلم لعبقر شاعراً ، ولآي البيان ناثراً ، وللاخوان صدراً عامراً ، وللفضل بحراً زاخراً .





حلوى الفقير

قصة لهيرمان ملفيل

ترجمة : ملك أبيض العيسى

— الا ترى ذلك الى :

قالها لي بحماسة الشاعر دوسرادور — منذ مايقارب الأربعين عاماً — بينا كنا نسير على طول الطريق ، والثلج يتساقط ناعماً رخواً في أواخر شهر آذار . وأعادها :

— ألا ترى اليها . ياصديقي ، صاحبة الغبطة التي تنثر النعم على الناس ، انها الطبيعة ، الطبيعة الخيرة أبداً . اضف الى ذلك . انها تعمد الى الكتمان حين تمارس اعمالها الخيرية كما يفعل اكثر المحسنين المجهولين .

ان هذا الثلج الذي يبدو جد متأخر عن ميعاده ليس الا استجابة دقيقة لاحتياجات المزارع الفقير . ان هذا الثلج الناعم الذي يتساقط في آذار قبيل موسم الزرع انما يتساقط في الوقت المناسب ، وان الاسم الذي يطلق عليه « سماد الفقير » هو اسم صحيح ايضاً .

ان هذا الثلج الذي قطرته السماء المعطاء على الارض يبلل برفق كل مدرة من الارض ، كل شق ، وكل كومة منه . انه عند المزارع الفقير يساوي ماتعطيه المزارع الغني حظيرة حيواناته كلها من مواد مخصبة . فاذا اضفت الى ذلك ان الفقير ليس مضطراً لاجهاد نفسه في فرش هذا السماد على الارض كما يفعل الغني بسماد حيواناته ، اذا أضفت ذلك عرفت ثمن هذه الهبة السماوية .

وأجبت دون ان اشاركه نفس الحماسة، وانا أزيح عن صدري بعض هذه الندف الرطبة .

– ربما كان ذلك صحيحاً ، ربما كان الامر كما تؤكد ياعزيزي دوسرادور . ولكن قل لي بربك . كيف اتفق أن تجر الريح كتل سماد الفقير هـــذا ، خارج أرض الفلاح الفقير « كوتر » التي لاتتجاوز الهكتار لتكدسه أبعد من ذلك على أرض المالك الغني «دورجونغ» التي تتجاوز الهكتارات العشرة .

– آه ! طبعاً . طبعاً ... اوه ! .. ان ذلك يعني ، على ما اعتقد ، أن حقل « كوتر » قد أصاب ماهو بحاجة اليه . وانت تعرف حق المعرفة ان الكفاية تعني الفيض أليس كذلك؟

فاجبت وأنا انفض عن نفسي دفعة جديدة من الكتل الندية :

– بالتأكيد . عندما يتعلق الأمر بهذا الثلج الرطب العزيز . ولكن قل لي بربك . اذا كان ثلج الربيع الدافىء هذا يأتي محملا بالخيرات كما تؤكد ذلك لي ، فما هو رأيك بالثلوج الباردة التي ماتفتأ تهطل طوال فصول الخريف الطويلة ... الطويلة في هذه المنطقة ؟

– على رسلك . ألا تذكر مايقوله داوود في المزامير : « الرب يعطي الثلج كما يعطي الصوف » ألا يعني بذلك ان الثلج ليس ابيض فقط كالصوف ولكنه دافىء أيضاً مثله ، لأنه يبدو لي أن السر في نعومة الصوف هو أن الهواء يتخلله ويدفأ بالتالي خلال خيوطه . واذا مانظرت من ناحية أخرى الى الحقل في شهر كانون الأول عندما يكون مغطى بجزة من الثلج ترى حرارته ترتفع عدة درجات عن حرارة الهواء المحيط بها . وهكذا ترى أن ثلج الشتاء نفسه ثلج نافع . فهو وان تقمص شكل الجليد أحياناً فان هذه الصورة نفسها تحفظ للأرض حرارتها . وتلك صورة من صور الاحسان الذي يبدو شرس المظهر . وما تلبث أن تأتي تلك الكتل الندية في آذار لتزرع في الأرض الخصب والنماء .

– كم أحب ان اسمعك ياعزيزي دوسرادور تتحدث على هذه الصورة . ولا يسعني بدوري الا ان ابتهل – يحدوني الى ذلك قلبك الكبير – لايسعني الا ان ابتهل الى الله ان يمن على الفقير « كوتر » بكمية هائلة من سماد الفقير هذا .

وقال دوسرادور بحرارة :

– ليست هذه المنافع كل شيء ، هل سمعت قط بحمام عين الفقير ؟

– لا ! لم أسمع به مطلقاً .

– خذ ثلج آذار الناعم هذا وذوبه ثم ضعه في زجاجة . انه يظل في نقاء الكحول وهو علاج لامثيل له للعيون الحساسة . لقد جمعت منه انا نفسي دناً كبيراً . واذا ما اصيب أشد

الناس بؤساً بمرض في عينيه فما عليه الا ان يستخدم هذا الدواء السماوي . ألا ترى الى هذه العناية الرحيمة .

— اذا كان الامر كما تقول ، فهل يكون سماد الفقير هو نفسه حماماً لعين الفقير ؟

— بكل تأكيد ! وهل هناك ماهو اكثر اقتصاداً ؟ شيء واحد يصلح لغـايتين معاً ، لغايتين شد ماتختلفان .

— انهما تختلفان ، في الواقع ، اختلافاً كبيراً .

— آه ! يالك من مخاتل ؛ انك ابداً تحول كل ماهو جد الى سخرية

ليس ذلك بالأمر المهم ، لقد كنا نتحدث عن الثلج ، فلنتحدث الآن عن شيء آخر . خذ مثلا ماء المطر العادي ، كما يهطل طيلة السنة ، انه اشد فائدة ممـا ذكرنا . ولئلا نقتصر الحديث على فضيلته الاساسية في اخصاب الارض ، لننظر اليه من زاوية اخرى . هل سمعت قط ببيض الفقير ؟

— لا ، مطلقاً . وما هو بيض الفقير هذا ؟

— حسناً سأخبرك به . في بعض الاطعمة التي تكون المادة الاساسية فيها دقيق القمح أو الشعير ، تستطيع ان تستخدم ، عوضاً عن البيض الذي يوصي به كتاب فن الطبخ ، قدحاً من ماء المطر البارد فهو يقوم بعمل الخميرة . وهذا هو السبب الذي تطلق ربات البيوت من اجله اسم بيض الفقير على قدح ماء المطر الذي يستخدم لهذا الغرض . وهنـاك كثيرات من ربات البيوت الثريات اللواتي يلجأن اليه .

واجبته حالاً :

— اغلب الظن انهن يلجأن اليه عندما لايحصلن على بيض الدجاج ، ياعزيزي دوسرادور . اني اجد حديثك — واقول ذلك بكل اخلاص — غاية في المتعة .

— هناك ايضاً جبار الفقير الذي يستعمل لمعالجة الجروح وبعض الاصابات الاخرى انه علاج ملين شاف يجري تركيبه من بعض العناصر الطبيعية البسيطة . ونظراً لرخص ثمنه فانه في متناول اشد الناس فقراً ولا يتردد الاغنياء في استعماله .

— لا اظن انهم يعالجون انفسهم به قبل استشارة طبيبهم الخاص ودفع الاجرة له . أليس كذلك ياعزيزي دوسرادور ؟

— انهم يبدأون باستشارة طبيب من دون شك ؛ ولكن ربما كان هذا التصرف الحذر غير ضروري البتة .

— ربما ! اني لا اخالفك فيما تقول . تابع حديثك .

— هل تذوقت قط حلوى الفقير ؟

– تصور اني لم اسمع بها مطلقاً .

- أحقاً ماتقول ؟ تعال اذاً ستصيب شيئاً منها على مائدة رجل فقير ، وسيكون ذلك من صنع امرأة فقيرة تعده بصورة سريعة ؛ وأذا لم تخرج بعد الطعام وانت تقول ان حلوى الفقير تعادل حلوى الاغنياء من حيث الجودة والطعم ، فاني سأتخلى اذ ذاك نهائياً عن رأيي . وهي تتلخص في أن الفقراء بفضل الطبيعة المعطاء يستمتعون بالراحة في احضان فقرهم .

. . .

سأمتنع عن ايراد بقية احاديثنا حول هذا الموضوع (فقد كانت عديدة . لاني كنت حينئذ في ضيافة دوسرادور في الريف لأسباب صحية) . واكتفي بأن اذكر اني بناء على الحاح دوسرادور نفسه ، طرقت باب منزل « كوتر » ذات يوم من ايام الاثنين عند الظهيرة ، وكان الثلج قد ذاب . فاصطنعت حجة ساذجة لدخولي المنزل وهي ان اطلب – بصفتي مسافراً يسير على قدميه – أن اطلب الراحة والاستجمام لمدة ساعة او اثنتين .

لم يخل استقبالي من الحرج الظاهر - ربما كان ذلك بسبب من وضعي - ولكنه تم مع ذلك بجفاوة صريحة خاليةمن الكلفة . كانت السيدة كوتر تغادر لتوها سلة الغسيل لتعدغداءهاقبل ساعة واحدة من عودة زوجها الطيب الذي كان حينئذ في حرش عميق يقع على بعد الفياردة تقريبـــاً بين الهضاب لقاء اجر يومي لايتجاوز خمساً وسبعين سنتاً . كانت ربة المنزل تغسل الملابس خارج المنزل الرئيسي ، تحت مخزن عتيق ذي منظر هزيل وتقف على قطعة خشبيـــة نصف مهترئة ، مبتلة بالماء لتحمي قدميها ، بالقدر الذي تستطيعه ، من رطوبة الارض العارية ؛ وهذا هو السر في شحوب لونها وتجمد اعضائها . لقد كان لشحوبها ، على مايبدو ، سبب آخر اعمق من الاول : انـــه شحوب امرأة تنتظر ان تصبح أما . لقد كانت زرقة عينيها الرقيقة القنوعة التي تكشف عنها النظرة الهادئة التي ترسلها تعكس في اعماقها ألماً هادئاً سحيق الغور . ولكنها ابتسمت لي كما لو أنها تعتذر عن الفوضى التي لايمكن تجنبها يوم الاثنين ويوم الغسيل ، ثم قادتني الى المطبخ وطلبت الي الجلوس على احسن مقعد عندها ، وهو مقعد من الطرازالقديم في حالة مؤسفة .

شكرت السيدة وجلستوانا افرك يدي امام النار الواطئة الضعيفة واطوف بصري من حين لآخر في ارجاء الغرفة محاولا ان ابعد عن نظراتي طابع الفضول وحب الاطلاعبالدرجة التي استطيعها . بينما كانت المرأة الطيبة في تلك الاثناء تلقي ببعض قطع الخشب في الموقد وهي تبدي لي اسفهالأن الغرفة لم تكن اكثردفئا . ثم اضافت، دون اية شكوى ، بعض الملاحظات عن ان المحروقات التي تستخدمها قديمة رطبة . لم تكن تلك المحروقات سوى قطع من حطب ميت التقطتها من غابة المالك دورجونغ حيث يعمل زوجهـــا في قطع الاشجار الحية الزاخرة

بالتبغ لتعمر بها نار المالك . ولم تكن ملاحظتها ، مهما كان شكلها ، ضرورية لتجعلني أقتنع بأن الحطب الذي تستعمله من نوع رديء ، فقد كان بعضه مغطى بطبقة من الطحالب والفطور لمكثه طيلة الخريف بين الاوراق الميتة، وكان يرسل صفيراً حزيناً وينز لعابا عديم الفائدة اذاما اشتعل.

قالت المرأة

– استرح هنا من فضلك حتى ساعة الغداء على الاقل . انت مدعو لمشاطرتنا ما عندنا من الزاد .

شكرتها من جديد ورجوتها ان تنصرف لأعمالها المعتادة دون ان تهتم بوجودي عندها كنت في دهشة لمظهر الغرفة . كان المنزل عتيقا رطبا بصورة لا يجدي معها علاج لانها تنبثق من تكوين البيت ذاته .

كانت أطر النوافذ الخشبية ترشح قطرات من الماء وكانت الالواح الزجاجية الخضراء مغطاة بطبقة من البخـــار لذوبان الجليد المستمر . ولم تلبث ربة المنزل ان انتقلت الى غرفة مجاورة لتجلب شيئاً ما وتركت طرف الباب مفتوحا فوقع نظري على الغرفة الاخرى . كانت أرضها عارية كأرض المطبخ . ولم اجد حولي غير بعض الاغراض الضرورية جدا للمنزل، والتي لم تكن مع ذلك من النوع الجيد . لم يكن على الجدار اية لوحة ، ولكن كان هناك مجلد قديم لدودريج على طرف الموقد المغطى بالدخان .

– يبدو انك سرت طويلا – ايها السيد – لأن التعب باد عليك

– يبدو لي اني اقل تعبا منك .

– اوه ! ولكني معتادة على ذلك . اما انت فانك لم تتعوده على ما يبدو قالت ذلك وهي تجيل على ملابسي نظرتها الزرقاء الهادئة الحزينة ، ثم تابعت

– علي أن اكنس نشارة الخشب هذه . لقد صنع زوجي هذا الصباح ، قبل الفجر ، مقبضاً جديدا لفأسه . وكنت منهمكة بغسيلي لدرجة لم استطع معها ترتيب البيت . ان نشارة الخشب هذه هي ما احتاجه بالضبط لاذكاء النار . كان من الممكن ان تكون افضل لو لم تكن خضراء الى هذا الحد .

وقلت لنفسي : لو كان دوسرادور هنا لأطلق على هذه النشارة الخضراء اسم «ثقاب الفقير» انه قد يطلق عليها حتما اسما جميلا من هذا النوع .

قالت المرأة الطيبة وهي تلتفت الي من جديد دون ان تكف عن العمل بين اوعيتها التي تلمسها النار بلسانها .

– لا ادري ما اذا كنت ستحب حلوانا . انهـــا مجرد شيء من الارز والحليب والملح تغلى على النار معاً

– آه ! انك تعنين ما يسمى بحلوى الفقير على ما اظن ؟

وارتسمت على وجهها حمرة سريعة كنوع من اللوم وقالت :

ـ نحن لانسميها كذلك ايها السيد ..

وران عليها الصمت .

ورحت ألوم نفسي على غفلتي وانا افكر من جديد فيما يمكن ان يقوله دوسرادور . اذا ما سمع هذه الكلمات ورأى هذا الاحمرار .

واخيرا تناهى الي صوت اقدام بطيئة ثقيلة . ثم قرع الباب وصاح صوت جديد :

– هيا ياامرأة .. اسرعي .. اسرعي . علي ان أعود الى هناك فوراً . اذا كنت تصرين على ان اتناول وجبات طعامي كلها في المنزل فما عليك الا الاسراع لان المالك ..

ثم صاح عندما رآني وهو يدخل المنزل .

– يوم سعيد ايها السيد

واستدار نحو زوجته متسائلا ثم مكث دون حراك كجذع شجرة بينما كانت الرطوبة ترشح من خفيه المرقعين اللذين طرحهما على الارض .

– لقد توقف هذا السيد هنا لحظة ليستريح ويستعيد قواه . سيتناول الغداء معنا . سيكون كل شيء جاهزاً في الحال . اجلس على المقعد يارجل واصبر قليلا .

وتابعت وهي تلتفت نحوي :

– أرأيت أيها السيد . ان غليوم يود لو حمل معه في الصباح الى الحقل طعاما بارداً ليوفر على نفسه مشقة الذهاب والاياب ظهراً عبر الحقول . ولكني لاادعه يفعل ذلك . ان الطعام الساخن تعويض كاف له على هذا المسير الطويل .

قال غليوم وهو يهز رأسه :

– لاادري . لقد تساءلت كثيرا عما اذا كان ذلك يستحق الجهد الذي ابذله . ان الامر في الحالتين سواء ، فليس هنالك من فارق بين السير في الجو الرطب بعد العمل المضني وبين تناول الطعام في الجو الرطب قبل العودة الى العمل من جديد . ولكني أحرص على ادخال السرور على قلب امرأة طيبة كمارتا وأنت تعرف – أيها السيد – ان للنساء اهواءهن الخاصة

ـ أرجو ان يكون لكل النساء مثل هذه الاهواء الرقيقة التي تحملها زوجتك .

– أنت على صواب . لقد سمعت الكثير عن سيدات لسن سكراً وعسلا . ولكن بما انني مسرور من زوجتي مارتا فانني لم اعرف شيئا كثيرا عن الاخريات .

قلت بلهجة حالمة .

– يجد المرء في الخراج حكمة نادرة .

ـ والآن ايها الزوج العزيز ، ساعدني لاخراج المنضدة اذا لم يكن التعب قد بلغ منك كل مبلغ .

قلت :

ـ لا ، دعيه يستريح واسمحي لي بمساعدتك بعض الشيء .

قال غليوم وهو ينهض :

ـ لا ابداً

وقالت لي زوجته

ـ استرح من فضلك

وما أن وضع الخوان حتى اخذنا امكنتنا حول المائدة امام اطباقنا

قال كوتر :

ـ اترى ماعندنا ؟ لحم خنزير مملح ، وخبز شعير وشيء من الحلوى . دعني اقدم لك شيئاً من اللحم . اني احصل على لحم الخنزير من المالك . انه يبيعني اياه (على الحساب) انه لحم خنزير من العام الفائت وهو اقل جودة من لحم هذا العام ولكنه يزودني بشيء من القوة للقيام بعملي . واني لااطعم الا في سبيل ذلك فاذا ماسلمت من الروماتيزم وماشابهه فانني لااسأل عن اية لذائذ او متع اخرى مها كان نوعها . ولكني لااراك تأكل لحم الخنزير !

قالت زوجته بهدوء تشوبه الكآبة :

ـ ارى ان هذا السيد يحس الفارق بين لحم هذا العام ولحم العام الفائت . ولكنه ربما احب الحلوى .

لجأت الى كل ما املك من ضبط النفس واجبت مبتسماً على اقتراحها دون أن ادعها تستشف من تعبير وجهي انطباعي عن لحم الخنزير الذي ذقته . ولأقل الحق : لقد كان يستحيل علي ان آكل منه شيئاً (رغم انه كانت بي شهية للطعام ولكني لم اكن احس الجوع الشديد) . كان مغطى بطبقة صفراء اللون كما بدا لي طعمه رديئاً الى حد بعيد . لاحظت ان السيدة كوتر لم تصب منه شيئاً بدورها ، رغم انها سمحت لزوجها ان يضع شيئاً منه في طبقها . كانت تتظاهر بالعبث به عندماتقع عينا زوجها عليها ولكنها طعمت من خبز الشعير فعلت مثلها .

وقال كوتر :

ـ والآن الى الحلوى ، اسرعي يا امرأة ان المالك جالس الى نافذة غرفة استقباله وهو يشرف منها على ابعاد واسعة خلال الحقول وان ساعته لدقيقة جداً .

وسألته

- الا يتجسس عليك ؟

- اوه لا ! انا لاأقول ذلك . ليس المالك رجلا سيئا . انه يعطيني عملا ويتطلب ادامه بدقة . اسكبي للسيد شيئا من الطعام ياامرأة .. تصوري ماذا سيحل بي .. لو فقدت عملي . قال ذلك بلهجة فيها من النبل ما يحملني على احترام البشرية . ثم ألقى نظرة سريعة ذات معنى على زوجته وعاد يقول حالا بعد ان بدل لهجته بعض الشيء : ماذا سيحل بهذا الفرس الجميل الذي سأبتاعه عما قريب .

وقالت السيدة كوتر بلهجة غريبة ، لهجة مزاح مكتوم دون اي ابتهاج : اني لعلى يقين اني اؤكد ان هذا الفرس الجميل الذي يحدث لك ان تحلم به بسرور سيبقى طويلا في زريبة المالك . ولكن لابأس مادام السائس يحملني عليه بعض ايام الاحد .

وصحت :

– أتمتطينه في بعض ايام الاحد ؟

فأتم كوتر :

– سأشرح ذلك : ان زوجتي مغرمة بالذهاب الى الكنيسة ، ولكن اقرب كنيسة في هذه المنطقة تبعد عنا اربعة اميال على الجانب الآخر من هذه التلال المكللة دائماً بالثلوج . وهي لاتقوى بالطبع على اجتياز هذه المسافة سيرا على الاقدام ، وانا لااقوى بدوري على ان اوصلها الى هناك محمولة على ذراعي ، بالرغم من انه سبق لي احيانا ان حملتها على ذراعي حتى اعلى السلم . ولكن السائس ، كما قالت لك ، يدعوها لركوب العربة احيانا عندما يصادفها في طريقه . ولذلك تراني اتحدث عن الفرس الذي سأشتريه يوماما عندما ستشرق الشمس . ولقد عمدته مارتا من قبل ان احصل عليه ولكن .. لنر الان بما كنت افكر؟ هيا هياياامرأة الحلوى قدمي منها للسيد .. المالك ، المالك ، فكري بالمالك ! ومرري الحلوى علينا الواحد تلو الاخر ــ يكفيني منها لقمة ، لقمتان او ثلاث .. وداعاً ياامرأة ، وداعاً ايها السيد . اني ذاهب .

واختطف الرجل الفقير الطيب قبعته المبللة بالماء واندفع مسرعاً في الماء والوحل وخطر لي حينئذ ان دوسرادور ربما قال في هذه الحالة بلهجة شاعرية : ان هذا الرجل ذاهب ليقوم بنزهة الفقير .

قلنا للسيدة حالما اصبحنا وحيدين :

– ان لك زوجا رائعا ياسيدتي .

– ان غليوم يحبني ياسيدي حتى هذا اليوم كما كان يفعل يوم زواجنا . قد يحدث له ان

يلقي ببعض الكلمات السريعة . ولكنها لاتصل ابداً الى حد القسوة . اني أود لو كنت افضل مما أنا عليه لفائدته وفائدتي معاً (وهنا استحالت العينان الزرقاوان الجميلتان الهادئتان الى ينبوعين صافيين) . كم يحزنني ان يكون غليوم الصغير ومارتا الصغيرة قد توفيا ، ان المنزل يبدو فارغاً بصورة محزنة . لقد اطلقنا على الصغير اسم أبيه غليوم ، وعلى الصغيرة اسمي أنامارتا.

عندما تكون الى جانب مخلوق يفيض قلبه من تلقاء نفسه ، فان أحسن ماتفعله هو ألا تفعل شيئاً . لقد اكتفيت بأن اطرقت محدقاً في طبق الحلوى الذي لم اكن قد تذوقته بعد .

- كان عليك ، ياسيدي ، ان ترى غليوم الصغير . صبي متوثب ، رجل حقيقي مصغر في السادسة من العمر ... اين هو الآن ... انه يثوي في لحده .

وادخلت ملعقتي في طبق الحلوى ووضعت قطعة منها في فمي لأحمله على الصمت .

- ومارتا الصغيرة ... اوه ! ايها السيد ، كم كانت طفلة جميلة ! يالمصيبة ، يالمصيبة ! على المرء أن يتحمل مآسي كثيرة .

ولامست لقمة الحلوى سقف حلقي ، فشعرت بطعم غث أجاج وتعرفت منه الى الارز الفاسد الذي يشترى بثمن زهيد ، والى الملح الذي سحب من برميل لحم الخنزير المتبقي من العام الفائت .

- آه أيها السيد ! لوكان هؤلاء الصغار الذين لم يأتوا بعد الى الدنيا ، هم نفس الصغار الذين ودعوها بصورة محزنة ! آه لو كانوا اصدقاء يعودون غرباء ، غرباء ، دائماً غرباء ! ولكن الأم تتعلم كيف تحبهم بسرعة لانهم قادمون حتما من المكان الذي حل فيه الآخرون ألا تعتقد ذلك أيها السيد ؟ بلى ، ان جميع اصحاب القلوب يؤمنون بـــه ، اعرف ذلك ، ولكن ... ولكن ... اخشى ان يكون هذا الموقف من جانبي سيئاً ، كثير التشـــاؤم . حاولت تعزية نفسي : تخيلت ان غليوم الصغير ، ومارتا الصغيرة يرتمان الآن في السماء ، قرأت الدكتور دودريج ... ولكن الأسى العميق يرشح مع ذلك من بين جانحي كما يرشح المطر من خلال سقف منزلنا . لشد ما اشعر بالوحدة . يوم يمر وآخر يتلوه وطوال اليوم يكون غليوم العزيز في عمله ، وطوال اليوم الماطر ماينفك الحزن يتساقط على روحي. اني ابتهل الى الله أن يغفر لي هذا ، اما الباقي فاني اتدبر به .

مرة هي حلوى الفقير ، مرة عفنة هذا ماهمست به لنفسي وانا في حالة نصف اختناق من جراء اللقيمة الوحيدة التي تناولتها والتي ابت أن تبتلع .

لم أكن اقوى على البقاء اكثر من ذلك ، استمع الى الشكوى من المآسي التي يقف حيالها العطف البشري ، مهما كان مخلصاً ، عاجزاً عن تقديم العزاء الكافي .

لم أعد اقوى على الوقوف صامتاً امام قناعة من النوع الذي يخشى ، اذا ما تحدث المرء عنه طويلا ، يخشى ان يزعزعه .

لم أعد اقوى على البقاء اخيراً امام تبكيت الضمير الذي لاجدوى منه ، والذي لم تكن لتبدده المحاكات العقلية .

لم اقدم ثمنا مقابل ضيافة لاتقل تسامحاً وتقديرا عن ضيافة امير ، لأني ادركت بانيسأسيء اليها ان فعلت ذلك .

ان الفقراء الامريكيين لايفقدون مطلقا احساسهم الرقيق ، ولايتخلون عن كبريائهم فاذا لم يهبطوا الى حضيض المهانة الجسدية الذي ينحدر اليه الفقير في اوربا ، فأنهم يتألمون فكريا اكثر مما يتألم الفقراء في شعوب العالم كلها . ان الحساسية الاجتماعية الخاصة ، وهي ثمرة مبادئنا السياسية الخاصة ، ترفع من الاعتداد الاصيل لدى الامريكي الموسر ، ولكنها في مقابل ذلك تزيد في الضيق الذي يعانيه الفقراء ، لانها تمنعهم من جهة ، من قبول وجوه الاحسان العديدة التي ربما استطاعت تخفيف الضائقة التي يعيشون فيها ، ولأنها تجعلهم من جهة ثانية يشعرون بصورة حادة بالفوارق الهائلة التي تفصل مثلهم الاعلى في العدالة البشرية عن تجربتهم . تجربة العبد يدير الرحى – وعن آلامهم : وعن الضعة التي يوصلهم الفقر اليها ؛ آلام وضيعة . مظاهر تبقى دائماً هي هي ، كما كانت أبداً وكما ستبقى دائماً هي نفسها في الهند ، في انكلترا ، وفي امريكا وفي كل مكان .

تذرعت بأن علي متابعة سفري ، لأودع السيدة كوتر . فصافحت يدها الباردة والقيت نظرة اخيرة على عينها الزرقاء القنوع وخرجت تحت المطر .

كان الجو في الخارج كئيباً رطبــاً ، ولكني بالرغم من الرطوبة الشديدة والجو الثقيل المنذر باحتمالات عدة ، بالرغم من كل ذلك شعرت نتيجة التباين السريع ، بأن هواء المنزل الذي غادرته لتوي كان فاسداً كذلك الهواء الفاسد الذي يصادفه المرء في غرف الملاجىء ، والذي يصعب على الكثيرين احتمال وطأته .

ان بعضهم ليعيب على الفقراء سوء تهوية غرفهم في الشتاء ، وهي عادة يصرون عليها أيما اصرار . يعيبون عليهم ذلك مدعين انها تعود لتهاون الفقراء في تطبيق ابسط القواعد الصحية . والواقع ان غريزة الفقير ابعد نظراً مما نعتقد . ان الهواء عندما يتجدد يبترد ، لذلك يرى الذين يرتعدون من البرد القارس ان الدفء في الهواء الفاسد خير من البرودة في الهواء النقي . واذا مانظرنا الى الانتقادات السخيفة التي يوجهها البشر الى البشر انفسهم ، فليس فيها مايضارع في السخف الانتقادات التي يوجهها عادة الى تصرفات الفقراء ، قوم ينعمون بالمنـــازل المريحة والتدفئة الجيدة والطعام الوفير .

. . .

وفي المساء نفسه ، بينا كنت اجلس على الاريكة المريحة ، بعد تناول الشاي ، في منزل دوسرادور قرب نار متأججة وإحد اطفاله ذوي الخدود الحمر يجلس على ركبتي قلت لصاحبي :

ـ دوسرادور ، لست ممن يحق لي أن اسميهم اغنياء ، انك تعيش في بحبوحة كافية لا أكثر ولا اقل ، أليس كذلك ؟ لذلك لن اسيء اليك اذا ماقلت :

اذا ما خطر لأحد الاغنياء ذات يوم ان يتحدث لي ببطر عن احد الفقراء ، فاني لن احجم عن وصفه بـ « ...... »

ولكني امتنعت عن التلفظ بها



الأم

قصة للسيدة أم عصام



الألحان تنسكب في أعماق ذهولها، هادئة ناعمة ، صامتة لاتحرك ساكناً غرقت في جنبات المقعد الذي حنا على جسدها وضمه بحنان وشفقة . . تتألم . . تحس بأسى يعتصر قلبها . . قلب الأم الحنون . . ابنها سافر بعيداً . . بعيداً.. سافر الى بلاديتمم فيها دراسته الجامعية.. هي فرحة لمستقبله الباسم الزاهر . لكن الوحشة التي خلفها لها جامحة عنيدة ، لا تستكين لمنطق ولا تتوقف لعذر .

أيامها غدت قاحلة . تلفحها ريح صحراء مقفرة . ليس فيها ظل شجرة ولا حفيف همسة من صوته الحبيب الغالي ما تغمض عينيها مرهقة . تتنهد بحرقة ، تمسح دمعة قاسية سكنت في المآقي المتعبة المقرحة .

الألحان تعود الى أذنيها . تاملها . تمسح عنها عذاب ليل لا يعرف الصباح ثم تهجم الذكرى ، تحزنهـــا . تؤلمها . تمتص منها دفق عذاب وحنين لا يعرف الحدود .

صوت مغن جزائري يحملها طائراً الى البارحة . البارحة بتـــاريخه المحدود . البارحة بلوعته التي جمدتها انسانة تتصنع الفرح ، وهي تغرق في عواطف الأمومة المقدسة .. وتنساب الموسيقى مع الكلمات .. يهمس الصوت :

— لقد تركت بلدي ..

— لقد تركت بيتي .. حياتي .. كأبتي بدون سبب ..

— تركت شمسي .. تركت أمنياتي ..

— ذكرياتها تيقظت بعد وداعي .. »

وتغفو الأم مغمضة عينين ذابلتين حزينتين . تغفو مع اللحن ومع وجـه حبيب رحل . تغرد ذكراه مع الكلمات . صوته الدافىء يعطر أذنيهـا ، بعيـداً كالصدى عبر آفاق ضاعت ولم تلتق .. سافر ابنها .. سافر وترك لهـا دفق حنين يزغرد في الحنايا ، وصورة وداع تمركزت في مخيلتها . كيف تستطيع أن تقنع نفسها بمنطق الأم الرؤوم بأن ابنها أصبح نقطة وراء الأفق ؟ .. كيف تتنـاسى أذناها هدير طائرة تخطفه ؟ .. ووجهه الغـالي يشحب خلف زجاج كوة صغيرة حفرت في تلك العلبة الحديدية العجيبة ؟ .. كيف تنسى يده تلوح مودعـــة ولآخر مرة ؟ ..

ويعود اللحن والصوت الجزائري الى انسيابه يردد :

« — شمس بلدي ضاعت .. والمنازل البيضاء التي كنت أحبها ..

— وفتيات كنت أعرفهن ..

– تركت صديقة .. لا أزال أرى عينيها ..

– عينيها المبللتين بالمطر .. مطر الوداع .. »

ويتوقف سمعها عند كلة وداع . وتقسو عليها الكلمة .. ويغوص قلبها يئن .. ويئن .. يتلوى وجهها .. عواطف زاخرة تجتاحها . لا تتوقف .. تستمر الكلمـــة كالمطارق الفولاذية في سمعها . يتعالى الضجيج . يتعالى . يتضاعف الأنين . يصبح زمجرة وحشية تجرح صبرها . يتوقف تفكيرها .. تنساق مجبرة وراء لفحة شوق تلهبها . تضيع كل القيم في خاطرها . لمَ تركته يرحـل ؟ . لمَ فضّل الدراسة هناك ؟. بعيداً عنها ؟ ..

كيف تتحمل ضياع أمنيات كانت تغذيهـــا ؟ كيف يصمت تفكيرها وهو يحاكم ويناقش ؟ ابنها كان لها ، ملكها ، والآن أصبح لمن ؟.. لمستقبله ؟ للبلاد التي سيعيش فيها ؟.. لفتاة سيتعرف عليها ؟ . سينساها وينشد السلوى في صداقة فتاته ؟ ولو فرضت انه عاد بدونها . سيفتش حين عودته عن فتاة تشاركه الحياة .. إذاً فرحلة ملكيتها له قد انتهت .. انتهت والآن بداية النهاية التي تترقبها وتلوعها..

وتتأكد لها السعادة سراباً في حياتها . . تراها من أجـل منْ تعذبت وتعبت ؟. من أجل منْ سعت وراء هدف كانت تحسبه أبدياً ؟ لقـــد خدعتها الاوهام وجعلتها تعتقد بأنها بنت أملاً .. بنت هدفاً .. ذابت في ظل وحيدها واهمة بانه منها ولها . لكنها الآن سجينة أصابع متشنجة . أصابع تضم الوهم . وتقبض على الفراغ . على العدم الذي تسبح فيه . لا شيء في حياتها . لاشيء ..

ماذا لو خلق البشر بيد ليست فيها أصابع متفرقـة ؟ لكان ما تمتلكه في قبضتها قوياً لا يتسرب الىالفرار ؟.. كل آمالها ابتلعهافجر وداع .. كل ما كانت تحسبه سعادتهاوملكها انصهر فيبوتقه أحرف تدوي في رأسها..الوداع ..الوداع ..

وتتجسم الصورة زاخرة بالشجن مشحونة بشوق دافيء يسكن عينين تمطران دموعاً وتنهدات وانفعالات تبذر ألف قصة .. لتنبت الحسرة والضياع ..

وتتحسس دفء ذراعيه تطوقانها .. وشعيرات صغيرة ثابتة في ذقنه تدغدغ وجنتيها ، وصوته الذي سرى فيه دم الشباب يهمس : وداعاً يا أمي . .

وتتشبث به تطيل لحظة سرقتها من غفوة الزمن ، وتشيح بوجهها لتخفي دمعات ساخنة حفرت الحزن عميقاً في القلب والروح ، وانجد ذراعيها تضم الهواء وتلوح في دائرة فارغة ، قوس قزح كان يوشح سماءها واختفى .. أضمومة مشاعر رضية سمحة كان ابنها .. في وجنتيه زيف من خدود غيمات راحلة .. في أغوار عينيه مجاهل سعادتها وخفقات قلبها . في صوته يغرد ألف عند ليب طروب .. كل هذا غاب .. كل هذا بقي في خاطرها صورة ولوعة ووداعاً ..

وتنتبه الأم من اطار الصورة إلى واقعها .. الى الصوت الجـــزائري الحنون وهو يرنم :

— لا أزال أرى ابتسامتها .. قريباً من وجهي ..

— ابتسامتها التي تسحر أمسيات بلدتي ..

— ومن طوف الباخرة .. التي كانت تبعدني عن الرصيف .

— سلسلة في الماء .. تضرب كالسوط ..

— تأملت طويلا عينيها الزرقاوين ..

— عينيها اللتين تختفيان .. والبحر يقودهما الى تيار الندم ..

وتلمس الأم عينيها .. وتبلل يديها الدموع اللاهبة .. ويقف اللحن .. وتنتهي الكلمات التي حملتها الى ابنها البعيد .. الى الحبيب الغالي .. الأوحد العزيز .. لكن نفسها تمزقت اشلاء .. لم تستطع جمع ذاتها .. كان هناك هدير قوي يصـــم أذنيها .. هدير طائرة تبتلع ابنها .. وتضج محركاتها .. ويتعالى الهدير .. ويتعالى ..

وتبدأ الطائرة بالاقلاع .. وتجمد لفترة .. فترة يصبح فيها ابنها نقطة بعيدة في جبين الافق الظالم .. وتعود الام الى بيتها لتجده فارغاً .. كل مافيه لن يهبها السلوى !. سريره الفارغ .. رداؤه الذي يحمل رائحة جسده ملقى على الحائط الجامد .. قلم حبر رافق حداثته وصورة له داخل إطار في الزاوية تبتسم .

وتتشاجر هي وآمالها التي تذوي .. وأيامها التي تشحب ، ويصبح الزمن لديها ساعة معطلة ليس لها عقارب . تتساوى ساعاتها ولياليها ، في شمسها وظلامها في فجرها ومسائها ، مع كل هذا تتساءل : أيصبح ابنها إطاراً وصورة ؟.. ويعتصرها حزنها وهي تبحث من غرفة الى أخرى .. صمت بيتها يعذبها ويضاعف من اندلاع ثورتها . ولكن ماالفائدة من كل هذا ؟. الفائدة في أن تستلهم السماء عزاءً لنفسها .. وتستمطر الدعوات لابنها .. ومن خلال حفر الدموع تبتسم ، وتتخيل الأيام مسرعة تدور وتلف .. ويعود إليها شاباً صلب العود ، قوي النفس ، يحمل أعلى الشهادات .. وتتساءل عن ملكيتها له حينذاك ! فتجد التسامح يحل محل ثورتها ، والمحبة تسري في كل خلية من خلاياها .. فتضحك وتضحك حين غيب الافق البعيد طائرة تحمل شاباً طري العود الى بلاد نائية كانت عيناه تنهلان من الشمس لآخر مرة ، لأنه سيستقبل بلاداً لاتعرف الشمس ولادفء الشرق ، بلاداً سيعرف فيها كل شيء.. سيتعلم فيها ماخفي عليه ، ومالم يخف.سيجد هناك كل مايريد ومايطلب .. إلا أماً غادرها سابحة في دموعها وحنينها وصمتها ... ودعواتها الخيرة الطيبة .

الكتاب والموضوعات

- الاسلام والتصوير التشبيهي

عفيف بهنسي

- الحلم الثالث

قصة عن الالمانية لغونترايش

ترجمة محمد حرب فرزات

الفنون

التجريد والتصوير التشبيهي

بقلم : عفيف بهنسي

منذ بداية هذا القرن ، اصبح اهل الفن التشكيلي يفرقون بين اتجاهين اساسيين في عملية التشكيل ، الاتجاه الاول تشبيهي بمعنى ان الموضوع مرتبط ومشابه لاشكال الواقع ، من وجوه وأشياء ومناظر . والاتجاه الثاني غير تشبيهي ، بمعنى ان العلاقة بين الموضوع وبين اشكال الواقع معدومة اطلاقا ، وهذا الاتجاه هو الذي نعرفه جميعاً تحت اسم الاتجاه التجريدي .

على ان هذين الاتجاهين اللذين يتزاحمان اليوم في الغرب . هما قديمان واصيلان في الشرق العربي ، فالى جانب الصورة التي تحاكي الواقع المألوف ، كانت هناك صورة مجردة عن واقعها ، وبعيدة عن اصولها ، وهي ان اصبحت رمزاً ، فليست رمزاً لشيء معين بقدر ما اصبحت رمزاً لذوق أو عقيدة أو تفكير .

ولقد كثر الحديث عن الفن غير التشبيهي عند العرب ، هذا الذي انتشر انتشارا واسعا ، وبرع فيه العرب الى درجة الاعجاز ، وكانت له طرائق ومدارس ونظريات ، ومن المؤسف أن الآراء في هذا الفن كانت حتى ظهور الفن التجريدي في الغرب ، متفقة على اعطائه صفة التزيين . ولكن فلاسفة التجريدية وكتابها وقد صمدوا امام اتهامات الخصوم الذين اعتبروا التجريدية مجد ذاتها تزيينا ، وجدوا انفسهم مسوقين الى الدفاع عن الفن العربي غير التشبيهي ، حتى ان بريون

ودولوره اعتبرا الفن العربي « الأرابسك » وهو مانسميه بالرقش العربي ، اساساً ومصدراً للفن التجويدي الحديث .

الرقش العربي الذي كتب له الاهمال زمنا طويلا ، اصبحت له اليوم المكانة الاولى في تقدير كبار الكتاب والنقاد . وهم في معالجتهم الاخيرة يتساءلون عن اسباب ازدهار هذا الرقش دون التصوير والنحت التشبيهين . واكثرهم يعتقد أن الدين الاسلامي منع تصوير الكائنات الحية ويستشهدون على ذلك بما جاء بالسنة فعلا وقولا .

في كتاب « اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » ذكر الازرقي ان اهل قريش اعادوا بناء الكعبة ، وانهم ذوقوا سقفها وجدرانها وبطنها ودعائمها وجعلوا في دعائمها الانبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن ، شيخ يستقسم بالازلام ، وصورة عيسى بن مريم وامه وصورة الملائكة . وعندما دخل النبي الكعبة بعد فتح مكة قال لصاحبه شيبة ابن عثمان: «ياشيبة امح كل صورة فيه الا ماتحت يدي » قال : فرفع يده عن عيسى بن مريم وامه.

وروى البخاري ان رجلا جاء بن عباس فقال : « اني انسان انما معيشتي من صنع يدي ، واني اصنع هذه التصاوير . فقال له ابن عباس : لا احدثك الا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صور صورة فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ ابدا ، فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه ، فقال : ويحك ان ابيت الا ان تصنع فعليك بهذا الشجر ، كل شيء ليس فيه روح .

وفي القرآن قال الله تعالى في سورة المائدة « يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وقد تمسك عدد كبير من المجتهدين بهذه الآية وتلك الاحاديث وفرعوا منها العديد من التفسيرات ، فاضافوا اليها منع تصوير الحيوان مستندين الى الحديث المنسوب الى النبي « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة » وقد توسع في ذلك النووي في صحيح مسلم .

ولكن هذا التفسير لم يبق بدون معارضة ، حتى ان جماعة من المختصين في الفن الاسلامي قالوا ، ان الاسلام لم يمنع التصوير ، وان الاحاديث التي رويت عن الرسول كانت موضوعة . ويتحمس لهــذا الرأي المستشرق الاب Lemmens لمانس . والعــالم المعاري المختص بالعمارة الاسلامية كريزويل . Creswell

والحق ان هذا القول تؤيده الشواهد التي لاحصر لها عن الفن التشبيهي عند العرب في ظل الاسلام . فمنذ معاوية ، كانت النقود العربية مزينة بصور آدمية ، حتى ان عبد الملك بن مروان جعل صورته على النقود . كذلك قام المتوكل والمقتدر الذي ضرب النقود على وجهها الاول رسمه وفي يده كأس وعلى الوجه الآخر رسم شخص يعزف على آلة موسيقية .

ومنذ صدر الاسلام ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك الذي بنى المسجد الجامع في دمشق بفسيفسائه الشهيرة ، كان قصير عمرة القريب من عمان ، قد حفل بصور جدارية اكتشفها البحاثة موزيل Musil وصورها قبل ان تصاب بالتلف . ونرى في بعض هذه الصور رسم الخليفة على عرشه وفوقه مظلة محفور على عقدها كتابة كوفية تتضمن عبارة دعائية . وفي مكان آخر رسوم صيد واستحمام وراقصات ونساء شبه عاريات . بل هنالك رسوم رمزية لالهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند الاغريق، واخرى لبعض مراحل العمر المختلفة ، الفتوة والرجولة والكهولة كما يوجد رسم لقبة السماء في احد السقوف مرسوم ضمنها بعض النجوم والبروج التي كانت معروفة. يضاف الى هذا كله رسوم طيور وحيوانات وزخارف نباتية . ومن ابرز هذه الرسوم صورة لستة اشخاص يرتدون ملابس فاخرة وهم في نسقين ، في كل نسق ثلاثة ، وفوقهم كتب بالعربية واليونانية (قيصر) (ولودريق) اخر ملوك القوط في اسبانيا ، و (كسرى) ملك الفرس والنجاشي ملك الحبشة . وربما كان الخامس امبراطور الصين وكان السادس ملك السند وقد سميت هذه اللوحة الجدارية بصورة اعداء الاسلام .

وفي سامراء المدينة التي بناها المعتصم ، عثر المنقبون في قصر الجوسق ، على اثار غرفة مربعة زينت برسوم ادمية هي صور نساء يرقصن وحيوانات واشخاص وطيور في مناظر صيد . ومن المؤسف ان الصور التي عثر عليها العالم المنقب هرتزفلد لم يبق منها الا اليسير ، فقد وضع معظمها في صناديق ضاعت ابان الحرب الاولى ولكن هذه الصور كان قد نقلها مكتشفها ونشرها في كتاب خاص ومنها صورة لفتاتين ترقصان متقابلتين رقصة ايقاعية وكل واحدة تسكب للاخرى شرابا.

وفي جنوب القاهرة اكتشف حمام فاطمي وفيه بقايا صور ملونة بالاحمر والاسود وفي بعضها رسم انسان على الجص وعلى رأسه عمامة تحيط بها هالة وبيده كأس . وغيرها من رسوم الفتيات والفتيان والطيور والازهار .

وقد وجدت الصور التشبيهية على السيوف ايضا كصورة على بن ابي طالب المنقوشة على سيف عضد الدولة . كما وجدت في المخطوطات ، ومن اشهر مصوري المخطوطات عبد الله بن الفضل الذي صور نحوا من ثلاثين صورة في كتاب خواص العقاقير . ويحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطي الذي كتب عام ١٢٣٧ مخطوطا من مقامات الحريري محفوظا بالمكتبة الوطنية في باريس تحت اسم حريري شيفر ، فيه نحو من مائة صورة لتوضيح الحكايات التي يرويها الحارث بن همام، عن حيل ابي زيد السروجي ونوادره .

وقد يطول الحديث عن الصور التشبيهية التي كانت موجودة على الثياب والستور وعلى الخزف ، ولكن ماهو اكثر اهمية هو الصور المتعلقة بالنبي وحده ، كتلك الواردة في مخطوط الاغاني ومخطوط جامع التواريخ للوزير رشيد الدين والذي يتضمن صورا لحوادث مشهورة في

السيرة النبوية ، احداها تمثل مولد الرسول والثانية مع الراهب بحيرا وفي الثالثة الرسول يرفع الحجر الاسود في الكعبة ، وفي الرابعة الرسول في غار حراء ، وفي صورة خامسة صورة محمد مع ابي بكر في طريقهما الى يثرب .

وثمة صور اخرى للرسول العربي في مخطوط للبيروني محفوظ في ادنبره . ومخطوط كتاب روضة الصفا لمير خواند وفيه صور بعض الحوادث النبوية ، منها موت ابي جهل في معركة بدر ، واخرى تمثل النبي يحطم الاصنام .

وهكذا فان الرسول كان موضوع الكثير من الصور ، وفي احداها ايضا صورة احدى زوجاته خديجة ، وفي اخرى مع صحابته واهل بيته . ولقد كان المصورون جميعا من المسلمين ولم يحل دونهم اي مانع ديني ،فلقد رأينا ان اكثر الرسوم امر بها خلفاء الرسول ، بل ان الرسول نفسه كان له ترس عليه صورة عقاب، وان زوجاته كانت تستخدم اقمشة مرسوما عليها صور انسان وحيوان ، دونما حرج ، واذا اعدنا النظر في الرواية الاولى المتعلقة بطلب الرسول من شيبة ان يمحي الصور التي كانت في الكعبة ، فاننا نرى الرسول وقد استثنى صورة عيسى بن مريم وامه مما يدل على ان المنع لم يكن مطلقا .

ومع ذلك فان منع التصوير التشبيهي كان واقعاً بالفعل ، ويستعرض المؤرخون امثلة كثيرة على تطبيق المنع فقد ذكر النووي ما ملخصه :

١ — ان تصوير الانسان حرام شديد التحريم ، وهو من الكبائر : لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الاحاديث .

٢ — تصوير الحيوان مباح اذا كان على بساط يداس او على مخدة او وسادة ، بمعنى اذا وضعت الصورة في مكان مهان فان صنعها ليس بحرام .

٣ — ان تصوير الانسان حتى لو وضعت الصورة في مكان مهان فهو حرام بدلالة قول النبي (اشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله) .

٤ — يحرم تصوير الحيوان اذا وضع في مكان محترم على عمامة ، او على الحائط ، او غير ذلك .

وهناك من يقول : ان الرسول نهى عن الصورة التي لها ظل (اي التمثال) فقط ولكن الزهري يرى ان التصوير ممنوع على اطلاقه سواء اكان له ظل اولا ، بل ممنوع دخول البيت الذي يحوي صورة ، سواء اكانت صيغته في ثوب او وجدت على جدار او على بساط . وذلك بحسب قول النبي (لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة او كلب) .

وقال آخرون واخصهم القاسم بن محمد (يجوز التصوير على قماش ولا يجوز تصوير ماله ظل) واستثنى القاضي من ذلك نصب الاطفال .

على انه من استعراض هذه المبادىء ، يتبين لنا ان المنع لم يكن محدداً ، بل كان يتقلص ويمتد بحسب تصلب الروح العصبية وتساهلها . والواقع انه نادرا ما كان للمنع تفسير منطقي مقبول.

فبعضهم يرى في التصوير زهواً وترف يتعارضان مع روح البساطة والزهد والبعد عن الدنيا عند المسلمين . وبعضهم يراه نوعا من اللعب يتنافى مع روح الجد .

ويختصر المغرضون كل هذا كيما يقرروا ان التصوير محرم في جميع اشكاله في الاسلام وان الفن اخذ سمته الى التزيين .

ترى كيف لنا ان نقف على الحقيقة ، امام هذا التعارض . فاذا قبلنا بصحة الاحاديث النبوية المتعلقة بالتحريم ، كانت الاعمال الفنية التي تحدثنا عنها والتي امر بها الخلفاء ، من الاعمال شديدة التحريم كما يقول النووي . ولئن كانت الاحاديث موضوعة كما يدعي بعض المستشرقين فكيف نفسر كراهية التصوير التشبيهي التي بقيت تقليدا الى يومنا هذا ؟ **اما نحن فاننا نعتقد ان الاحاديث صحيحة وان المنع واقع في الاسلام ، ولكنه محصور بتصوير الله وصناعة الاصنام ، واما كراهية التصوير التشبيهي فهي ارث قديم سابق للاسلام.**

ان الدين الاسلامي قام على وحدانية الله ، وعلى سرمديته ، منهياً بذلك عهد الوثنية ، في الجاهلية ، حيث كانت الصورة او التمثال لاتستعمل الا كرموز الهية يتعبد العرب من خلالها ، او يقدمون القرابين .

وبديهي ان يحارب النبي في صدر الاسلام كل رمز الهي غير الله . والصور بحسب ما كان شائعا هو مروج هذه الاوثان المختلفة . ولذلك فان عذاب الله الشديد موجه اليه خاصة.

وليس من المعقول ان يفسر قول النبي الى ابعد من ذلك ، لمجرد الاعتقاد ان الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب او تصاوير . بل ان هناك محذورا اكثر اهمية ، هو محذور الاشراك بالله والردة الى عبادة الاصنام ؛ وعلى هذا فانه لابد من اعادة النظر في الاحاديث النبوية لفهمها على ضوء السبب .

والحق انه منذ الف عام قام النحاة بالتعرف على حقيقة مضمون هذه الاحاديث ولقد كتب ابو علي الفارسي ، وهو من كبار النحاة ، في كتابه « الحجة في علل القراآت » وذلك في معرض حديثه عن المفعول الثاني المحذوف في بعض الايات ، هذا المقطع الذي ابرزه البحاثة الفني المرحوم بشر فارس يقول ابو علي : اما قوله تعالى « ثم اتخذتم العجل من بعده ـ البقرة (٥) ـ وقوله « باتخاذكم العجل » البقرة (٥٤) . « اتخذوه وكانوا ظالمين » الاعراف (١٤٨) واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا (الاعراف) ١٤٨ فالتقدير في هذا كله : اتخذوه الها ، فحذف المفعول الثاني . الدليل على ذلك ان الكلام لايخلو من ان يكون على ظاهره كقوله « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ـ العنكبوت (٤١) ... او يكون على ارادة المفعول ، فلا يجوز ان

يكون على ظاهره دون ارادة المفعول الثاني ، كقوله : ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ـ الاعراف ١٥٢ فمن صاغ عجلا او نجره ، او عمله بضرب من الاعمال ، لم يستحق الغضب من الله والوعيد عند المسلمين . فاذا كان كذلك علم انه على ماوصفنا من ارادة المفعول الثاني المحذوف في هذه الاية ، فان قال قائل : فقد جاء في الحديث (يعذب المصورون يوم القيامة وفي بعض الحديث (فيقال لهم احيوا ماخلقتم) قيل (يعذب المصورون) يكون على من صور الله تصوير الاجسام ، واماالزيادةفمن اخبارالاحاد التي لاتوجب العلم ، فلا يقدح لذلك في الاجماع على ماذكرنا . »

ويؤيد ذلك ان القرآن لم يمنع التصوير اطلاقا ولم يمنع صناعة التماثيل وانما منع كل مايتصل بصناعة الاصنام لعبادتها (انما الخمر والميسر والانصاب رجس من عمـــل الشيطان فاجتنبوه) والانصاب مع ذلك لاتعني التماثيل بل هي هيا كل واحجار تستعمل للأضاحي والعبادة .ولقدفسرت الكلمة خطاء على انها التماثيل . كما وردت على لسان الدكتور علي العناني ، وصححها كريزويل وجاك بيرك كما ابانها ذكي محمد حسن بوضوح .

ويؤكد ماسبق ذكره ، ان الله عند العرب والمسلمين منزه عن المثــال والشبه والند (ليس كمثله شيء)(ولم يكن له كفوا أحد) . ويقول احد المستشرقين المعاصرين **ان الفنان في كل مرة كان يسعى فيها الى التعبير عماهو روحاني ، او الهي ، كان يسعى الى التجريد ، وهذا قائم بالفعل بالنسبة للفن الاسلامي ، حيث كان المتعالي يعبر عنه دائماً بصورة غيرتشبيهية** كذلك كان الامر في الفن اليوناني البدائي ، حيث كانت الاصنام التجريدية ، مبعثها الشعور بانتشخيص الاله فيه استخفاف لقيمتها . وتعاليم الدين الاسلامي متفقة مع الفلسفة الدينية الاصلية عندالعرب والقائمة في حد ذاتها على سرمدية الله . اذ ان الازلام والانصاب لم تكن الا زلفى لله ،(مانعبدهم الا ليقربون الى الله زلفى) المزمر (٣).

ولقد كانت كراهية التصوير التشبيهي قديمة عند العرب منذ قبل الاسلام . واستمر ذلك لديهم حتى في ظل الاسلام ، دون غيرهم من سائر المسلمين كالفرس والاتراك والكرد . ويرى البعض ان كراهية التصوير هذه كانت عامة عند الساميين جميعـا . ويرى ذكي محمد حسن « ان تاريخ الساميين يدل على انـــه لم يكن لشعب منهم فنون تصويرية الا اذا قامت على اكتاف شعوب اجنبية ، فالبابليون مثلا قامت فنونهم على يد السومريين ، اما الاشوريون ، فقد كان مصوروهم من القبائل الـــتي اخضعوها في شمال بلاد الجزيرة . واليهود لم تكن لهم فنون تصويرية خاصة بهم » .

والواقع انه منذ ان ظهر موسى عليه السلام،فقدوردت في العهد القديم هذه الاية « لاتصنع

لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض ، لاتسجد لهن ولا تعبدهن » .

والى جانب الامتناع عن تصوير الله ، كان هناك امتناع عن مضاهاة الله في قدرته الخالقة (هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له مافي السماوات والارض ، وهوالعزيز الحكيم) . وكان هذا الامتناع تقليدي عند العرب كما يؤكد المؤرخون . بل لقد بلغ الاعتقاد عند بعض المسلمين ، ان التصوير عمل من اعمال الله وحده ، بدليل قوله تعالى «خلق السموات والارض ، وصوركم فاحسن صوركم واليه المصير « التغابن » . ولقد ذكر المقرى في نفح الطيب وهو يصف جامع قرطبة انه قيل ان فيه ثلاثة اعمدة من رخام احمر مكتوب على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى واهل الكهف وعلى الثالث صورة عذاب نوح عليه الصلاةوالسلام الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع) كذا ...

وفي حديث شريف قال الله عز وجل ، « ومن اظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقي فليخلقوا ذرة ويخلقوا حبة ، اوليخلقوا شعيرة » .

ولعل الشعور من ان عملية الخلق منوطة بالله تعالى دون غيره ، هو الذي دفع المسلمين الى تحوير وتحريف رسومهم ، ويمضي دولوره اكثر من ذلك اذ يعتقد ان المنع كان مطلقا فهو يرى ان المسلم كان يجنح الى التحريف او الى طمس الوجوه او الى قطعها بخط اسود خشية حساب الله يوم القيامة ، فهو يسعى الى التمويه على الله كي لا يرى فيه شبها لمخلوقاته اومضاهاة لوظيفتـــه . فيتخلص بذلك من عذاب يوم القيامة . ولقد كان هذا الوهم ساريا في الواقع ، فكثير من الآثار التي وجدت في جنوب الرافدين من رسوم جدارية اوتماثيل غوديا وجدت مطموسة او محطمة ، بـــل ان اكثر المخطوطات الموجودة في متاحف ومكتبات العالم تعرضت رسومها الى طمس متعصب ، او على الاقل فصل رأس الصورة بغيرة قـلم كما في رسوم مخطوطات مقامات الحريري الموجودة في مكتبة لينين غراد .

ولقد رافق الاعتقاد بان في التصوير مضاهاة لله ، بعض التطيّر الذي دفع الى الاعتقاد بأنه في الصورة تكمن قوى سحرية . حتى ان المسلمين كانوا يقصدون من وراء بعض الصور ان تكون طلسما ، وذلك كالحيات المنقوشة على قلعة حلب وفي باب الطلسم في بغداد وكالتمثال الذي اقامه المنصور على رأس القبة الخضراء في ايوان قصره ببغداد . وكذلك طلسم الجامع الازهروهو صورة ثلاثة طيور منقوشة على ثلاثة اعمدة . وهي بقوتها السحرية تمنع العصافير ان تسكن الجامع او ان تفرخ به ، وكذلك سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره .

ويتضح مما سبق ان العنعنات الدينية هي التي ادت الى العزوف عن التصوير التشبيهي . اما منع تصوير الله فهو من الامور التي لايمكن الطعن بها ، ذلك لأن الله بمفهومنا يبقى فوق

مستوى التحديد والتشخيص ، وهو كما يقول ابن سينا (غير داخل في جنس او واقع تحت حد او برهان ، بريئاً عن الكم والكيف والاين والمتى والحركة ، لاند له ولا شريك ولا ضد . وانه الواحد من وجوه لانه تام الوجوه) .

الله وهو المعنى الذي لاتصل اليه حدود المقاييس الارضية ، يبقى في الاسلام حريزاً عن ان يكون قريبا من مقاييس الانسان التي حاول الغرب الهليني وفي عصر النهضة ، تثبيتها عليه تعالى . ونحن اذا تذكرنا صورة مايكل انج لله ، التي صورها على سقف كنيسة السيكستين ، لاتضح لنا عندئذ الفارق البسيط بين الله والانسان ، بين المثال والموضوع ، في الذهن الغربي .

والحق ان الفارق مازال واسعا جدا عند الشرقيين وخاصة عند العرب ، بل ان ضآلة الانسان في الاسلام تتمادى بقدر ماتستعلي مكانة الله فيه . ولهذا لم يكن للانسان مقياس في تصوير الله ، كما لم يكن في التصوير عامة . وذلك على عكس الفن الكلاسي وفن النهضة الذين اعتبرا مقاييس الانسان اساس كل عمل فني ، فالعمود الدوري وابعاد معبد البارثينون مرتبطان بابعاد تماثيل ميرون ، والعمود الكورنثي ومعبد زيوس مرتبطان بابعاد تماثيل براكسيتل وليسيب . اما الفن العربي فكان حرباً مستمرة على هذه المقاييس ، بل كانت المقاييس الذوقية المحضة هي السائدة ، ومن هنا كانت قرابة النقش العربي بالتجريدية الحديثة .

وثمة نظرة اخرى مشابهة لتفسير هذه العلاقة الصوفية ، هي العزوف عن الحياة الدنيا واللجوء الى الله دائما ، موئل الانسان في الحياة الاخرى (اعلموا ان الحياة الدنيا لعب وزينة) الحديد ٢٠ . (ذلك خير للذين يريدون وجه الله واولائك هم المفلحون) الروم ٣٨ .

ولقد افرد بشر فارس في ذلك بحثاً مقتضبا ، اكد فيه على ان الفنان العربي كان انما يرى في تصوير الحياة متاع الغرور . (وهو متاع يضمحل وينحل بازاء الذي بين يدي الله) . وفي القرآن (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح) الكهف ٤٥ .

وهكذا يسعى الفنان العربي المسلم ، الى ازالة كل صلة في موضوعه مع الحياة الزائلة والتقرب من المطلق ، من الله (وما عند الله خير وابقى) القصص ٦٠ .

ويقول بشر فارس (يتصفح الفنان اجزاء المادة حتى يتيسر له ان يلتقط منها ما كان نسجه اقل فسادا ، وهكذا تعاني المادة ماتعانيه من اقتطاع وتضمير ، فتبدو مبتورة ممسوخة ، فتنم على الشية التي تلابس ماهيتها في دنيا تفنى انما تفنى) . اما تصوير الانسان ، فليس من حق البشر ان يضاهي الله في قدرته وليس للانسان ان يتجاوز فعل الله ، فصورة الانسان التي صورها الله هي صورة الكمال ليس من قبلها ولا من بعدها صورة . « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم » (التين ــ ٤ ــ وصوركم فاحسن صوركم واليه المصير ـــ التغابن

على ان هذا التفسير وان استجاب الى نظرة الاسلام للانسان بالنسبة الى الله فانه لا يستقيم مع نزوع المسلم المتعالي ، الذي يدفع به دائماً الى التواجد مع الله ومع المطلق ومع الاعلى . هذا هو بنظرنا التفسير السليم الذي دفع الفنان المسلم الى التخصص بالرقش وما فيه من صيغ اشعاعية صوفية ، ومن تكرار سرمدي ، ومن ايقاع صوفي ، ومن تجريد بعيد عن العارض متصل بالازلي الخالد .

ولكن ثمـــة من يقول بعد كل هذا ، وبعد جميع الآثار المنتشرة في انحاء العالم العربي ، في قرطبة وغرناطة والقيروان والقاهرة ودمشق وسامرا ، بعد هذه الروائع الخالدات من الرقوش والصور ، ثمة من يقول بعجز الفنان العربي عن التصوير .

فاذا كانت حجـــة هؤلاء ان الرقش العربي ، اى الفن التجريدي غير التشبيهي هو فن تزييني ليس اكثر وهو موضوعي وتقـــلي ، فان الجواب على ذلك يحتاج الى مناسبة اخرى ولكننا نعتقد ان الوف الكتب والمجلات التي كتبت عن هذا الفن كافية للرد على هؤلاء القائلين .

واذا كانت حجة هؤلاء عدم دقة المحاكاة في الفن التشبيهي فان ذلك يبرره الطابع التعبيري والشخصي الذي يدافع عنه الفنانون الحديثون .

ونحن اذ نرفض اتهام الضعف والعجز عن التصوير ، فاننا نرى ان الرقش العربي غير التشبيهي ، كان اقرب للتعبير عن الذوق العربي وعن خياله وعن فكره المتعالي . فبالرغم من وجود عـــدد ضخم من الآثار التصويرية التشبيهية في الفن الاسلامي ، فانه مما لاشك فيه ، ان الاتجاه العام للفن الاسلامي ، رغم هـــذه الاستثناءات هو عدم التشبيه . لقد فهم العرب التجريد في فنهم ، بنفس الطريقة التي قبلوه بها في شعرهم (فليس على الفنان والـكاتب كما يقول غوستاف لوبون الا ان يترجم عن ذاته واخلاقه ومشاعره ، وعن الحاجات العامة عن طريق اشكال غير مرئية .

ففي مجال الشعر ، فان كثيرا من القصائد الطويلة المعروفة ، وخاصة قصائد الصوفيين كانت اشبه بالرمز الذي يتسع لاكثر من معنى ، كذلك القرآن الكريم ، فان التفسيرات المتطورة التي رافقته ، تجعله يحمل دائماً معاني لاحد لها ، صالحة لـكل زمان ومكان .

ثم ان العقيدة المبنية على التوحيد ، على إله غير مرئي ، غير مشخص وعلى عالم آخر خيالي ، هو عالم الجنة ، هي عقيدة ناشئة عن طبيعة العرب وعن مميزات تفكيرهم . وفي هذا الصدد يقول مارسيل بريون « لقد كان الفن الاسلامي شديد الارتباط بمفهوم الدين وبفلسفته ومعرفته العلمية، وبتقنيته ذاتها ، لقد قدم اشرف جهد دفع الفكر الانساني ان يتجاوز الزائل ، والعرضي والواقعي والعارض . لقد نشأ في الصحراء التي علمت مفكريه وفنانيه ديمومة الاشياء . لقد بحث عن الاستقرار في الابدية وفي العالميـــة . وعاش بظل دين توحيدي ، الله فيه بدون شـكل، وفعل القدر عال ومقبول قبولا مطلقا ، مما لا يقوده ابدا الى التحول ، بل الى الحركية الاكثر توترا ، الى فكرة السيطرة المتوثبة والحازمة ، مما لم يشهد له مثيل قط » .

ورغم هذا كله لابد ان نعترف **ان العصبية التي دفعت الى جعل الصورة التشبيهية عملا محرماً أو انها طلسما سحرياً فحالت دون تشجيع المصورين وادت الى تحطيم وازالة جميع الآثار التشبيهية ،هذه العصبية قد تركت اسوأ الأثر في تطور الفن التشكيلي عند العرب .**

ونحن اذ نقر ان الفن العربي التجريدي قد تجاوز جميع المراحل التي مر بها الفن الغربي الا اننا نحس ان التجارب الابداعية عند الفنان العربي لم تكن كاملة ، **وكان ينقصه دائماً الدخول في صميم الحوادث والاحداث والقصص التاريخية والدينية لكي يترك المستقبل اثره الفني منها** . وليس اغنى من تاريخ العرب وقصص القران واحداث الاسلام والسيرة النبوية ، ان تصبح موضوعات للفنانين يثبتون بصورهم وتماثيلهم امجاد هذه الحضارة العريقة . وابطالنا التاريخ وادباؤنا وشعراؤنا وفنانونا وعلماؤنا ، ابن سيرتهم وابن وجوههم؟ **ان الصورة تزيد الحقيقة بياناً** وتطبع في النفوس المظمة الشخصية لاوائلنا . لقد اغنى الدين المسيحي الفن بموضوعاته التي لاحد لهـا ، كذلك اغنى الفن الدين المسيحي عندما خلد القصص الديني واحداث المسيحية في اللوحات والتماثيل الموزعة في انحاء العالم في كنيسة السكستين وكنيسة القديس ابوليتير في فينا . وفي كاتدرائية شارتر بل حتى في كانا كومب كاليستو .

ومع ان الفقهاء الحديثين امثال الشيخ محمد عبده والشيخ عبد العزيز شاويش وغيرهم ، « متفقون على ان التصوير لمصلحة العلم والكشف والحضارة هو مرغوب به في الاسلام ، وانه مبـاح اذا كان للزينة واللهو ، وهو محرم اذا اتخذ للتعظيم والعبادة والشرك » ، نقول ،على الرغم من ان فقهاء اليوم قد اجلوا عن قضية المنع هذه فاننا ولاشك نعتز بالفن العربي غير التشبيهي ، هذا الفن الذي كان السبب في تغيير اتجاه الفن العالمي القائم على الهلينة والتشخيص وتحويـله الى الشكلية التي منها البيكاسية والتجريدية وجميع المدارس الحديثة .

المراجع

ابو علي الفارسي : «الحجة في علل القرآت» مخطوط محفوظ في مكتبة الاسكندرية رقم ٣٥٧٠ ج

زكي محمد حسن ومحمود تيمور : التصوير عند العرب

Th. Arnold : Painting in Islam . Oxford 1928

J. Bourgeoin : Les Arts Arabes Paris 1873

M. Brion : L' Art Abstrait Paris 1956

K. Creswell : The Lawfulness of Painting in Early Islam Ars Islmica XI-XII-1946

B. Fares La Querelle des images en Islam Damas 1957

الحلم الثالث

صورة مسرحية للكاتب الألماني غونتر أيش

ترجمة محمد حرب فرزات

يعتبر غونتر أيش واحدا من الأدباء الالمان المعاصرين الذين لاقوا حظاً كبيراً من الشهرة بعد الحرب العالمية الثانية . ولد في الاول من شباط عـام ١٩٠٧ في ليبوس الواقعة على نهر الأودر ، وهو يعيش الآن في لنغفويس في بافاريا العليا في المانيا الاتحادية . وهو شاعر صدر له ديوانان الأول في عام ١٩٤٨ والثاني عام ١٩٤٩ . وقد اشتهر بصورة خـاصة في كتابة التمثيليات الاذاعية ، وقد صدرت حوله عدة دراسات اهمها فوهوف ولفيزر فير .

★ ★ ★

في السابع والعشرين من نيسان ــ ابريل عام ١٩٥٠ حلم لفيـــس شتونه ، الذي كان يعمل ميكانيكياً في معمل للسيارات في مدينة فويتناون الواقعة في مقاطعة كونيلاند في اوستراليا ، حلم بساعة من تلك الساعـات التي قد تجلب للانسان أشياء مختلفة ، كما قد يتراءى في الحلم لكل انسان ويمكن أن يلاحظ بكل اطمئنان أن شتونه كان في ذلك الوقت يتمتع بصحة جيدة ، ثم انه نسي حلمه منذ مدة طويلة .

* * *

(غناء وقهقهات من اصوات رجال ونساء واولاد . وعندما بدأ الضجيج يتلاشى ، سمعت الجارة التي كانت تقترب . .)

الجارة ـ سلاماً ! ايه ! انتم !

(يسود الهدوء)

الأب ـ ما الأمر ، ياجارة ؟

الجارة ـ (تقترب) انكم تضحكون !

الأم ـ لماذا ينبغي الا نضحك ؟

الأب ـ نحن سعداء .

الجارة ـ كيف يمكنكم ان تكونوا كذلك ؟

الأب ـ عندنا خمسة أولاد وخبز يومنا . أعندك هموم ، ياجارة :

الجارة ـ ألا تعلمون ان العدو قادم ؟

الأب ـ العدو ؟

الجارة ـ لقد شوهد على الطريق من سدني الى هنا !

الأم ـ ليس من المحتم ان يكون قادماً الى هنا !.

الجارة ـ الى اين تؤدي هذه الطريق اذن ؟

الأم ـ ليس من المحتم ان يأتي الى دارنا .

الجارة ـ لا ، ربما يأتي الى داري انا ، ــ ولهذا السبب تثير في ضحكاتكم . وداعـــاً ، أغلقوا ابوابكم ، ليلة سعيدة !

الأب ـ بوابة الدار مقفلة .

الأم ـ انظر خارجاً . كل المصابيح منطفئة .

الأب ـ نريد ان نطفىء مصابيحنا ايضاً .

الأم ـ نعم .

الأب ـ أحسن .

الأم ـ أين انت يابوب ؟ اين انت يا الزي ؟

بوب ـ هنا .

الزي ـ هنا .

الأب ـ ربما لايكون ذلك صحيحاً ، كان علينا ان نسأل ، عمن رآه . العدو؟ من يعرفه؟

بوب ـ هل الحرب قائمة الآن ياماه؟

الأم ـ الحرب قائمة دائماً

الأب ـ سنفتح النوافذ ونكتفي باسدال الستائر

(يفعلون ذلك)

الأب ـ اذا ماسحبنا الستارة الآن قليلا الى الجانب ، يمكننا عندئذ ان ننظر الى الخارج

الأم ـ الظلام يعم في الخارج ، ولايرى شيء .

الأب ـ انه هلال القمر

الأم ـ وكل شيء هادىء تماماً

الزي ـ ليس هادئاً ياأماه ، اني اسمع شيئاً

الأب ـ ماذا تسمعين ؟

الزي ـ لا أعرف ماهو ، ولكنني اسمع شيئاً

(تسمع اصوات حركة بعيدة عندما يقترب كائن لاشكل له .)

الأم ـ ماهذا ؟

الأب ـ خطوات !

الأم ـ هذه ليست مشية انسان .

الأب ـ حتماً !

(الخطوات المتجسسة تقترب)

الزي ـ انها خطوات باماه .

بوب ـ انه قادم الى هنا .

(الخطوات تتقدم بصخب ثم تتوقف . يمضي الحوار همساً)

الأم ـ الآن يتوقف .

الأب ـ قريب جداً من بيتنــــا .

الام ـ يمكن أن يكون أيضاً في مكان آخر . الصدى يخدع . انظر خارجاً !

الاب ـ اني لاارى شيئاً .

(صمت)

لا ، لأرى شيئاً . ولكنه مثل نور أخضر في شجرة قديمة ، كاللمعان الذي يبدو ليــلاً على الساعة .

الإم ـ هــدوءاً

بوب ـ انه يتحرك !

(تسمع ثلاث طرقات متتابعة متشابهة على بوابة فناء الدار)

الاب ـ انه يقرع على بابنا

الام ـ لا ، ليس عندنا .

الاب ـ عنــدنا .

الام ـ (مجهشة بالبكاء) لا

الاب ـ هدوءاً ! لاتبك ! لايجوز ان يسمعنا .

الام ـ سنتظاهر باننا نائمون .

(ثلاث طوقات كالسابق)

بوب ـ ايريد أن يأتي الينا ياماه

الام ـ يريد الدخول الى المنزل .

بوب ـ ربما يخطر له بأن لاأحد هنا فيذهب الى مكان آخر .

الام ـ انه لن يذهب الى مكان آخر سوى بيتنـــا . لقد اختارنا نحن دون غـــيرنا.

الزي ـ لماذا نحن أنفسنا ؟

الام ـ يابنيتي ، ربما لأننا كنا سعداء .

الزي ـ الا يمكن ان يكون كذلك ؟

الاب ـ لاتتكلموا هكذا بصوت مرتفع !

الام ـ ماذا سنفعل ؟

(الطوقات تتكرر كالسابق)

الاب ـ سنخرج من الباب الخلفي . بسرعة !

الام ـ يجب ان نأخذ معنا شيئاً ، ملابس ، طعام .

الاب ـ لاشيء ! انك تعلمين بأن ليس لنا ان نحمل شيئاً معنا . انه يلاحظ ذلك .

(تقرع البوابة بعنف)

الاب ـ انه يحطم الباب . بسرعة ، اذهبوا !

الام ـ تعالوا ياأولاد !

الاب ـ هنا ، من هنا

الام ـ أأنتم هنا ؟ بوب ، الزي ، كاتي ، فرد !

الاولادـ هنا ، هنا .

(تتباعد الاصوات في اثناء ذلك . وبعد ان سقط الباب تقترب الخطوات المقتحمة بقوة وتتوقف ـ هدوء ـ الحوار المقبل في الهواء الطلق .)

بوب ـ الى اين نذهب ياأماه ؟

الام ــ لا أعلم .

الاب ــ الجارة ستفتح لنا (ينادي بصوت منخفض) سلاماً ، ياجارتنا .

الجارة ــ ادخلوا . لقد حسبت بأنكم ستأتون .

(بينا تستمر الضجة ، منتقلة من الهواء الى مكان مغلق ، يدخل اللاجئون الى البيت)

الجارة ــ ولكن ليس عندي مايكفي من الأسرة . لابد لكم من النوم على الارض .

الاب ــ لابأس في ذلك .

الام ــ هل يمكن المرء عندكم ان يرى ماذا يفعل هناك ؟

الجارة ــ لقد اضاء كل المصابيح ، ويبدو انه يبحث عن شيء ما .

الاب ــ لم نحمل معنا شيئاً .

الجارة ــ طبعاً ، لاشيء .

الزي ــ (بصوت خافت) انت ، بوب

بوب ــ (كذلك بصوت خافت) ماذا ؟

الزي ــ اخذت معي شيئاً ، عروستي .

بوب ــ اهدئي ، لاتقولي شيئاً .

الام ــ عجيب انه اختارنا نحن .

الجارة ــ هذه أقدار لايسأل عنها .

الام ــ هل لانسان أن ينام الليلة ؟

الجارة ــ ولا لانسان .

الاب ــ والذين لم تطرق أبوابهم ...

الام ــ الظلام يتبدد والنور ينتشر شيئاً فشيئاً .

الجارة ــ غداً يعود كل شيء الى مجراه الطبيعي .

الاب ــ الا عندنا .

الجارة ــ ألم تحملوا معكم حقاً شيئاً ما ؟

الام ــ لاشيء ، لقد كان الظلام عنيماً كما تعرفين . لم يكن باستطاعتنا ان نجد شيئاً .

الجارة_ انه مايزال يفتش .

الأم _ كيف يبدو لك .

الجارة_ رجل قصير . ليس فيه شيء غير عادي مطلقاً .

الأم _ وجهه ؟

الجارة_ لم اره بعد .

الأب _ دعوني انظر الى هناك .

الجارة_ انه يأتي الى النافذة . انه ينظر الى الخارج .

الأب _ انني ارى وجهه . له عينان ، يبدو كأنه اعمى .

الجارة_ انه ينظر الى هنا . ابعدوا عن النافذة .

الأب _ ارى انه أعمى ومع ذلك فان عينيه تخيفانني .

الجارة_ انه ينظر دائماً الى هنا . لقد رآني . ربما كان علي ان احييه ؟ (تنادي)

صباح الخير ، ايها السيد الجار .

(هدوء)

الجارة_ انه لايجيب . انه يجعلني ارتجف انه ينظر بجفاء الى هنا .

الأب _ انه اعمى .

الأم _ لقد قلت ياسيدتي : السيد الجار .

الأب _ لقد بدلت موقفك بسرعة ياسيدتي .

الجارة_ انه ينظر بجفاء الى هنا .

الأب _ لقد تخليت عنا ايتها السيدة ، أليس كذلك ؟

الجارة_ احييكم ايها السيد الجار . (هدوء)

الأب _ انه لايجيب ، ربما يكون أيضاً اصم واخرس .

الجارة_ انه ينظر الى هنا شذراً . عليكم ان تذهبوا !

الأم _ نذهب ؟ لماذا ؟

الاب ـ الى أين ؟

الجارة ـ عليكم ان تذهبوا . انه لايريد ان تكونوا هنا

الأم ـ لاتكوني قاسية القلب ياجارة . انظري الى الصغيرة التي غلبها النعاس .

الجارة ـ اذهبوا خارجاً بسرعة ! اخرجوا !

الأب ـ سنذهب الى بيت آخر .

الأم ـ تعالوا يا اولاد . **(تبتعد أصواتهم)**

الأب ـ بوب ، الزي ، كاتي ، فرد !

الأولاد ـ هنا ـ انني تعب . هنا .

الجارة ـ **(وحدها)** الآن لا ينظر الى هنـــا . اوه ، اني اعرف انه ليس اعمى ، انه لايرى احسن منا جميعاً .

(صمت)

(الحوار التالي في الهواء الطلق)

الأب ـ تعالوا ! سنقرع الجرس هنا . كان العمدة صديقنا دائمـــاً . لابد ان يقدم لنا بيتاً آخر . **(صوت قرع الجرس ـ نافذة تفتح)**

العمدة ـ ماذا تريدون ؟

الأب ـ انتم تعرفون ايها العمدة . كان علينا ان نترك دارنا .

العمدة ـ اذهبوا عني . انكم لم تعودوا منا .

الأب ـ ولكن ...!

العمدة ـ بدون لكن ... ـ لم يعد لكم بيت في قريتنا . وما انتم الا لصوص .

الأم ـ لصوص ؟!

العمدة ـ الا تحمل الزي لعبتها على ذراعها .

الأم ـ العروس ؟ يا الهي ، الزي ، هل أخذت معك اللعبة ؟ لماذا فعلت ذلك ؟

الزي ـ لأنني احبها .

الاب ـ ينبغي أن نعيدها .

العمدة ـ تأخرتم . لقد وضعتم انفسكم في حماة الضلال ، وانتا جميعاً لــعداء ، اذ انكم فعلتم هذا . اني صديقكم ، انصح لكم ، اذهبوا قبل ان يقبض عليكم ـ ولا تتفوهوا بكلمة أخرى .

(يغلق النافذة)

الاب ـ تعالوا ! علينا ان نتابع .

الزي ـ هل لي أن آخذ العروس معي .

الام ـ خذيها معك يابنيتي :

الاب ـ هذا لايجوز لنا .

الام ـ بلى ، لأنها تحبها .

الاب ـ فليكن كذلك ، لأنها تحبها .

الام ـ الى اين ؟

الاب ـ ربما يقبلنا آخرون .

الام ـ لن يتقبلنا احد .

الاب ـ ياجارنا ! سلام عليك !

صوت ـ الى الجحيم ! انني لست جارك ، ابعدوا عن وجهي ايها الغرباء .

الاب ـ ولكن ، ألم نولد هنا جميعاً .

صوت ـ ابعدوا ، ابعدوا ! هل تفكرون بأننا نريد ان نحرق اصابعنا بسببكم .

الاب ـ تعالوا !

الام ـ اننا لانحتاج ان نسأل احداً . انهم يقفون جميعاً خلف ستائر نوافذهم ، وينظرون نحونا . ولا انسان يدعونا للدخول . انهم جميعاً سعداء اذا ماذهبنا

الاب ـ بل انهم جميعاً خائفون ـ لايجوز للمرء ان يستاء من تصرفهم .

الام ـ لا ، انهم جميعاً منكسرو الخواطر مثلنا .

الاب ـ لنا اولادنا

الام ـ ولايلزي عروستها

الزي ـ نعم ـ عروستي

الاب ـ هنا آخر بيوت القرية . الحمد لله . اننا ندخل في العراء ، والنور منتشر .

الام ـ ولكن الى اين نذهب

الاب ـ نعم الى اين ؟ ...

مع التيارات الفكرية
العربية والعالمية

- كتاب الشهر – كنايما – من الأدب الفنزويلي
- المكتبة العالمية – المسرح الانكليزي والنقاد الألمان
- مطالعات في الصحافة الأدبية العالمية
- مقابلات المعرفة – ثانية .. مع سادول
- رسائل المعرفة – رسالة من تونس عن الرسم الحديث
- المكتبة العربية – تاريخ الحضارة
- كتب جديدة
- نقد الاعمال الفكرية الأدبية – حول مقال في نسيب الشعر الجاهلي
- النقد والرد – حول حديث مع نعيمة
- الصحافه الادبية العربية
- المسرح
- السينما
- منجزات العلم
- جولة الشهر – مجتمع الشعوب المتخلفة

كنايما

رواية للكاتب الفنزويلي
رومولو جايجوس

عرضه وتلخيص
الدكتور محمود علي مكي

رسالة في موضوع الكتاب

المعرفة : تنشر هذه الرسالة الموجهة الى رئيس التحرير ، تقديماً لكتاب الشهر الذي لخصه ، الدكتور محمود علي مكي ، مع الشكر والتقدير

تحية خالصة وبعد ...

فقد تلقيت دعوتكم الكريمة للمشاركة في تحرير مجلتكم الغراء « المعرفة » التي لها من نفسي ومن نفس كل عربي مكانة عظيمة ، وأنا اذ أشكر لكم هذه الدعوة — أبعث اليكم مع هذا بمقال قمت فيه بعرض وتلخيص لرواية كتبها مؤلف من فنزويلا يعتبر اليوم من أعظم أدباء هذه القارة . والواقع أن أدب أمريكا اللاتينية يتطلب مزيداً من الاهتمام منا في العالم العربي ، فهو أدب يعتبر في حكم المجهول على الرغم مما فيه من روائع في العصر الحديث ، وعلى الرغم من احتكاك أدبنا العربي به في عالم المهجر . وانه لمن الجدير

بالذكر أن هذا الاحتكاك لم يضطلع به لأول مرة الا نفر من عباقرة الأدباء العرب – هم موضع فخرنا جميعاً – ممن خرجوا من أرضكم أنتم : من سورية ولبنان ، ولهذا فقد رأيت من الملائم لنا – ونحن في غمار هذه النهضة الأدبية الرائعة في العالم العربي – أن أقدم اليكم هذا المقال تجديداً لتلك الروابط التي تصل عالم العرب بعالم أمريكا اللاتينية .

مدريد في ١٧ مارس ١٩٦٤

محمود علي مكي

* * *

كنايما

أشجار .. أشجار .. أشجار ..
وحدة تتكرر الى مالانهاية ...
والتكرار لايزال يقابل المرء حتى ينتهي به الى ضرب من الجنون .

وبدت الغابة له في أول الأمر مخيبة للظن : إنها لم تكن من العظمة بحيث تصور ، وهو لم يجد ماكان يتوقعه من تلك الأشجار الضخمة التي لايحيط بجذع إحداها ذراعاه ، بل هو يراها نحيفة السوق تحاول نصب قاماتها الهزيلة بين الأدغال المتكاثفة والنباتات المتسلقة ، فلا يتيسر لها ذلك إلا بجهد شديد .

« أهذه هي الغابة التي طالما حدثوني عنها ؟ لقد كان ما أسمع خيراً مما أرى الآن بين يدي . انها ليست الا جبلا تغطيه الأعشاب والشجيرات ! »

هكذا قال « ماركوس فارجاس » وهو يطالع صفحة الغابة لأول مرة وقد بدا في عينيه الأمل الخائب .

غير أنه بعد ذلك بدأ يحس بعظمة الغابة .. إنها تكمن في التكرار الذي لايبدو له نهاية . شيء واحد يتردد في الصورة حيث نظرت العين : أشجار .. أشجار .. أشجار ، وقممها تتعقد فوق الرؤوس كأنها أقواس معبد هائل يمضي السائر بين تيه أعمدته الشاهقة دون أن يجد لها آخراً . أعمدة من الاشجار تلتف بها نباتات متسلقة ضخمة كأنها جذوع . قرون طويلة مرت على الغابة بين جذورها الراسخة في باطن الارض وقممها السامقة الرهيبة .

هذه هي الغابة التي تمد الآن شباك سحرها على « ماركوس فارجاس » فتلتهمه الى الابد .. الغابة المتوحشة التي لايخترقها الرجل حتى يتحول الى شيء آخر قد يكون أسمى من الكائن البشري أو أحط منه ، ولكنه لن يعود رجلا على أية حال .

ويمضي القارب الصغير يحمل الفتى عبر نهر « الكويوني » ليقتحم به تيه الغابة .. لامر ما أطلق الهنود على هذا النهر اسم «الكويوني» .. فهو لفظ معناه عندهم الشيطان !

أيام وأيام تمضي وهو لايفتح عينيه الا على منظر واحد : ماء وجبـل تغطيه الادغال .. ماء وغابة .. ماء وأشجار !

وماركوس فارجاس مبهور النظر يتأمل الغابة العذراء .. هذا المعبد الهائل الرهيب قد انتصبت فيه ملايين الاعمدة التي تحجب عنه شعاع الشمس وتسوده الظلال .. ظلال خضراء قاتمة ، وصمت مثلها أخضر قاتم لايسمع فيـــه الا حفيف هامس بعيد .

ويقطع القارب أميالا طويـــلة ، ثم تلوح لماركوس فارجاس من بعيد صورة هندي قد جلس القرفصاء وحيداً لايرافقه الا ظله المرتسم على الماء بين الاغصان المتكاثفـة ، وهو يرمق الشجر من مجلسه بعينين متحجرتين لاظل فيهما لاي تعبير .. الهندي أيضاً ملتزم الصمت عميق جامد كأنه احدى شجرات الغابة !

هاهو ذا ماركوس فارجاس قـد اقتحم « الجحيم الاخضر » حيث يستبد الهلع بمن يضلون الطريق ، فيظلون يدورون متتبعين آثار أقدامهم في دوائر مفرغة لاتنتهي دون أن يجرؤ أحدهم على النظر الى عيني رفيقه ، حتى ينطلق صوت الظلام الرهيب بكلمة لم ينطق بهـــا أحد ، ولكنها تجثم على صدورهم جميعا مسعرة فيهـا نار الجنون :

— لقد ضللنا الطريق !

وحينئذ تتصدع عصا الجماعة ، ويمضي كل منهم يبحث لنفسه عن مخرج للخلاص دون أن يهـتم برفيقه .. كل منهم له أمر يعنيه كأنهم في يوم الحشر ، ولكنهم لايلبث أن يلتقي بعضهم ببعض ، وقد التمع في عيون الجميع بريق الجنون .

أشجار .. أشجار .. أشجار !

ويأتي الظلام .. يأتي فجأة ، بلا شفق ولا غروب ، ويبدو للتائهين كأن الاشجار السوداء قد تسللت خفية حتى تسد كل طريق ومنفذ على أولئك الآدميين الغرباء الذين اجترأوا على تدنيس المعبد . لن يصبـح الصباح حتى تنطبق عليهم أذرعة الغابة وتعود كما كانت .. غابة مصمتــة خالصة !

وتمر لحظات سكون ، ثم تتردد خفقات أجنحة البوم ، وعواء الضبع الحاد المستطيل ، وركض قطيع من الظباء أحس باقتراب النمر ، ولكن صوتاً هائلا لايلبث أن يطغى على ذلك كلـــه : صوت ارتطام جذع هائل هوى الى الارض على بعد فراسخ عديدة ، ثم ينطبق الصمت من جديد هو صمت غريب عميق يملأ ارواح الرجال التائهين بجزع تنقبض له النفوس .

ولكن الهنود ذوي الاسماع المرهفة المتيقظة لايخيم عليهم هـذا الصمت الرهيب حتى يصغوا اليه في ترقب وتربص :

— « كنايما » !

إله الغابـة الشرير ... الاله المجنون المسعور الذي منه ينبع الشر واليه ينتهي . . . الاله الذي لايزال في صراع دموي مرير على تدبير العالم مع خصمه اللدود « كاخونيا » إله الخير الطيب ...

انه الاله الشيطاني الذي لاصورة له ، وهو يستطيع مع ذلك ان يتقمص اي صورة ... « أهريمن » الازلي عاد الى الحياة في غابات امريكا ! ...

هو الذي يملأ الظباء فزعاً وهي تركض مهرولة في هربها المذعور أمام النمر الغاضب ، هو الذي يوهج نار السعار في عيون الضبـاع ، هو الذي يهيج حشرات الغابة وهوامها في ظلام الليل ، ويسوق اسراب ثعابين « الكوايا » ذات السم السريع القاتل الى البحث عن ضحايا جديدة للدغاتها الغادرة ، هو الذي تهوي امام نفخاتـه جذوع الشجر الضخمة ، فتلهب في وحوش الغابة غرائزها الدموية وعطشها المجنون الى الدماء الحارة ، وهو الذي يتحول بالبشر الذين انطبقت عليهم ظلمات الغابة الى الوحشية الصريحة .

وهو اخيرا الذي يتمثل الان في صورة هذا الصمت الهائل الرهيب منعقدا على الجو في تلك الليلة ولافاً ايديه حول ماركوس فارجاس كأنها اذناب أخطبوط ...

أدب الغابة :

هكذا يصف « رومولوجاييجوس » اقتحام «ماركوس فارجاس » للغـابات الاستوائية في حوضي « الاورينوكو » و « الامازون » ، تلك الغابات التي تحتل شطراً كبيراً من البرازيل وفنزويلا وكولومبيا ، في قصته التي اتخذ لها عنوانا غريباً مثيراً : « كنايما » إله الغابة الشرير .

ولعل هذا الادب النابع من بيئة امريـــكا اللاتينية هو اجل ماتتضح فيه شخصية هذه البلاد

وروموملوجاييجوس هو ابرز ادباء هذه القارة بغير منازع خلال تاريخها المعاصر ، وانتاجه القصصي من ابدع ماجاد به خيال اديب ، هذا على الرغم من ان بلاده ــ شأنها في ذلك كشأن غيرها من اقطار امريكا اللاتينية ــ قليلة التراث الادبي .

فالادب في هذه القارة حديث المهد بالميلاد ، فنحن نعلم ان عمرها في تاريخ الحضارة لايزيد على نحو اربعة قرون منذ ان حلت على شواطئها مراكب كريستوفر كولمبس سنـة ١٤٩٢ . ولم يكن الاسبانيون الفاتحون الذين استعمروا هذه البلاد منذ القرن السادس عشر الارجالا مغامرين لايولون الثقافة نصيبا كبيراً من الاهتمام ، وان كانوا قد نقلوا الى القارة الجديدة دماءهم ولغتهم ودينهم ، ولم تتفاعل هذه العناصر الا بعد مضي وقت طويل كما تقتضي سنة الحياة .

وهكذا لانجد في هذه البلاد ادبا اصيلا جديرا بأن ينظر اليه بعين الاعتبار الا منذ اواخر القرن الثامن عشر ، ولكنه ظل يتعثر في اول الامر ، شأن كل ادب وليد يتجه ببصره الى الوطن الام يقلده ويجري على مناهجه .

اما ادب القصة فقد كان فقيرا قليل الثمرات خلال القرن الثامن عشر ، ولم يبدأ في النضوج الا في اواخر القرن التـالي في ظل النفوذ الذي باشرته عليه الآداب الاوربية ، ولاسيما منذ ظهور الاتجـاه الواقعي في القصة . وحينئذ اقبل أدباء امريكا اللاتينية على بلادهم يستكشفونها من جديد ويستوحون منها رواياتهم دون حاجة الى التقليد والمحاكاة .

ومن أول من رسموا هذا الاتجاه في أمريكا اللاتينية الكاتب القصصي « خوان ليون ميرا » (١٨٣٢ ـ ١٨٩٤) من جمهورية «الاكوادور» في روايته « كوماندا » ، وفيها نرى تصويراً لحياة الهنود الحمر البائسة بعد أن حرمهم الرجل الابيض من أرضهم وموارد رزقهم ، اذ يعشون الى الغابة ، وهناك تجري أحداث القصة حينا يقع ابن الاقطاعي الظالم في غرام فتاة هندية هي « كوماندا » ، وتنتهي الرواية بمأساة يموت فيها الفتى وتنتحر هي من بعده جرياً على عادة الهنود في قتل النساء أنفسهن حتى يدفن في القبور التي تضم رفات أحبائهن .

وتفتح هذه القصة أذهان الأدباء الأمريكيين، فيتجهون الى بيئتهم وطبيعة بلادهم الفنية المتنوعة، ويخرجون من ذلك نتاجاً أدبياً رائعاً يتميز بالأصالة والطرافة والواقعية .

ويبلغ هذا الاتجاه أوج نضوجه في أوائل القرن العشرين ،وربما كان من خير ثمراته وأخلدها في تاريخ الأدب الأمريكي ، ذلك الانتاج الذي قدمه لنا أديبان كبيران أحدهما من « كولومبيا » والآخر من « فنزويلا » .

أما الأول فهو « خوسيه ايوستاسيوريبرا» الذي نشر في سنة ١٩٢٥ قصة « الدوامة » ، وفيها يصور حياة جامعي المطاط في منطقة الغابات الاستوائية في « القنشادا » في جنوب شرق كولومبيا . واما الثاني فهو «رومولو جاييجوس» صاحب الرواية التي هي موضوع هذا الحديث .

القصصي الذي أصبح رئيساً للجمهورية

ولد « رومولو جاييجوس » في سنة ١٨٨٤ في « كاراكاس » واتجه منذ صغره الى الادب والقصة بوجه خاص ، فنشر في سنة ١٩٢٠ أولى رواياته الطويلة التي كللهـا أخيراً في سنة ١٩٢٩ برواية « السيدة باربارا » ، وهي خير انتاجه القصصي على الاطلاق ، وأحداثها تدور في سهول فنزويلا ومراعيها . وكان رومولو جاييجوس ذا نشاط سياسي لم ينقطع ، وقد اشترك في الكفاح ضد الحكام الطغاة الاقطاعيين الذين تعاقبوا على حكم بلاده ، حتى ألجأه ذلك الى مغادرة وطنه والالتجاء الى الولايات المتحدة ، ثم اسبانيا حيث واصل نشاطه في كتابة القصة ، فأخرج روايته « كنايما » سنة ١٩٣٥ ، ثم اتبعها بغير ذلك من انتاجه ، وفي السنة التالية عاد الى بلاده ، فتولى وزارة التربية والتعليم ، ولم يزل الى جانب ذلك يواصل نشاطه السياسي حتى تقدم الى انتخابات رئاسة الجمهورية في سنة ١٩٤٧ فظفر بهذا المنصب بأغلبية ساحقة . ولكن بقاءه في الرئاسة لم يدم طويلا ، اذ حدث انقلاب عسكري خلعه عن تلك الرتبة الكبرى في اواخر السنة التالية ، فلجأ الى كوبا ثم المكسيك ، ولكنه عاد بعد سنوات الى كاراكاس حيث يعيش حتى اليوم ـ وقد قارب الثمانين من عمره ، مجاهداً في سبيل المثل العليا التي دان بها طيلة حياته والتي

جعلت شعب فنزويلا وشعوب أمريكا اللاتينية تنظر اليه في اجلال عظيم (١) .

سحر الغابة :

ونعود الى « كنايما » ، فنراها تبدأ بصورة مثيرة ساحرة : صورة المغامرين القادمين من غابات فنزويلا ومناجمها : من غابات المطاط التي تحف نهر « الأورينوكو » وفروعه حتى «الكويوني» ، ومن اشجار الأقاويه التي تنتصب على ضفاف «الكاورا» ومن مناجم الذهب في « اليوروواري » .

القادمون ينثالون على « مدينة بوليفار » ، وعن قريب تجري أنهار الذهب في المدينة ، ويخرج الناس لاستقبال مبعثري المال الآتين من « النهر الاسود » على ظهور المراكب ، وقد انبهرت انظارهم واخذ بألبابهم سحر تلك المناطق التائهة في ظلام الغابات الوحشة ، من حيث قدم اولئك الرجال المغامرون لكي ينفقوا ما كسبوه في سهرات معربدة وسكرات منكرة ومغامرات كثيرا ماتنتهي بالمرء الى ان يفقد في ليلة واحدة كل ماجمعه في سنوات من العمل الشاق المرير .

و « ماركوس فارجاس » الصبي الصغير ينظر الى هــذا العالم الساحر الغريب ، فيأخذ بلبه ، ويعهد اليه احد جامعي المطاط العائدين بأن يصحب هنديا قدم معه من الغابة لكي يريه المدينة ويرافقه في جولاته بها . ويحدثه الهندي عن الغابة فيصغي اليه الصبي في ذهول واعجاب .

ولكن أباه يخشى عليه من سحر الغابة ، ولا سيما بعد ان فقد ابنين له في اطواء ظلامها : أما الاكبر فقد أنقلب به القارب الذي كان يحمله ماضيا به الى ذلك العالم المتوحش ، واما الاوسط فقد كان يعمل في جمع المطاط حتى اغتاله رجل يدعى « تشولو باريما » في تلك الليلة المشؤومة « التي اضاءت فيها اسنة الخناجر ظلام الليل في الفنشادا » كما كان ماركوس يسمع اباه يقول حينما يتعرض لذكر هــذه المذبحة التي كثيرا ما خضب مثلها الغابة بالدماء بعد اي نزاع بين جامعي المطاط ورؤسائهم الذين يفرضون عليهــم عملا هو أشبه بالسخرة .

اراد « بدرو فارجاس » ان يحمي ابنــه « ماركوس » من سحر الغــابة فأرسله الى « ترينيداد » عاصمة غيانا الانكليزية ليتعلم في احد معاهدها ، غير ان الصبي عاد بعد سنوات ولم تفارق مخيلته صور ذلك العالم المسحور ، فلم يلبث بعد وفاة ابيه ان قرر الخروج بحثا عن الثروة في مناجم اليوروواري ، وهناك في مدينة « اوباتا » يلتقي برجل كان شريكا وصديقا لوالده هو «مانويل لاديرا » الذي يملك اسطولا من عربات النقل ، وهو تاجر غني يقع منه ماركوس فارجاس موقع الرضا ، فيعرض عليه ان يبيعه عرباته اذ انه يريد ان يصفي عمله ويهجر هذه الارض ، اما السبب فهو ان رجلا من عائلة « اردافين » الاقطاعية

---

(١) كنت قد كتبت عن هذا الاديب وانتاجه بتفصيل في تقديمي وعرضي لاحدى قصصه القصيرة : « رد اعتبار » مجلة « المجلة » التي تصدر في القاهرة ، عدد نوفمبر ـ تشرين ثاني ـ ١٩٦٣ ص ٧٥ ـ ٧١

قد اغرم باحدى بنات مانويل لاديرا ، غير ان الفتاة آثرت عليه شاباً آخر غريبا عن تلك الجهات فما كان من « فرانسسكو اردافين » الا ان ترصده ثم قتله امام عيني الفتاة ، وخشي الرجل على بناته واسرته ، فآثر تصفية تجارته والانتقال عن المنطقة كلها خوفاً من بطش ذلك الاقطاعي الذي لم يكن يتورع عن اقتراف اي جريمة .

نماذج من البشر :

وفي « اوباتا » وما حولهـا حيث استقر ماركوس فارجاس ليدير العمل الذي وكله اليه « مانويل لاديرا » تمر على الفتى نماذج مختلفة من البشر : « فرانسسكو اردافين » الذي لا يكاد يفيق من الخمر والذي يرى في إدمان الشراب ستارا يخفي عن الناس حقيقة نسولته وجبنه فقد كان اهل البلد يخشونه ويهابونه لا لأنه جدير بذلك بل خوفاً من ابن عمه « ميجيل » السياسي الاقطاعي الذي يهابه حكام المنطقة ؛ والاخوان « فيللوريني » وهما فرنسيا الأصل من جزيرة كورسيكا استقرا في مدينـة « اوباتا » ليديرا محلهما التجاري الكبير ؛ و « اراسيليس » صغرى بنات احد هذين الاخوين وهي تحب ماركوس فارجاس وترغب في الزواج منه ؛ و « ابولونيو الكروان » حاكم مدينة « السكاياو » الذي يبتكر ابرع الحيل لفرض ضرائب جديدة حتى على المارة لـكي يقاسمهم اموالهم ؛ و « الاسبانيوليتو » وهو محتال ظريف قدم من اشبيلية باسبانيا ومعه خريطة على رق قديم رسمها هو بنفسه مدعيا انه سيكشف بها عن كنز هائل من خالص الذهب كان مدفونا هناك وباحثا عن شريك ساذج يمول له ما كان يزعم انه سيقوم به من حفائر ؛ و « جابرييل اوربنيا » عامل التلغراف الهادىء المتزن المثقف الذي يهيم غراماً بحب كبرى بنات « مانويل لاديرا » في صمت وتصوف ، و « خوان سوليتو » صائد النمور الذي اخذ عن الهنود فلسفة الصمت والواناً من السحر وكهانات غريبة تضفي على شخصيتـه ظلالا من الغموض ...

المصير المكتوب :

ويبعث ماركوس فارجاس في نفوس أهـل « اوباتا » شعوراً من التفاؤل والثقة والمودة ، فهم يقدرون ذكاءه وحنكته وشجاعته على فتاء سنه ، ويوليه مانويل لاديرا الاضطلاع بأمر ماله الذي كان يصرفه في عربات النقل ، ويفتح له كبار اهل المدينة قلوبهم وبيوتهم ، ويبـدي الفتى من المهارة والحذق مايملأ الناس اعجابا به ، ويبدو كأن حنينه القديم الى الغابة قد انطفأت جذوته ، ولكن القـدر يكتب له غير ذلك ، فقد اشعل الفتى القادم من « مدينة بوليفار » نار الحقد والحسد في نفس « فرانسسكو اردافين » ، فمضى يرسم خطة اجرامية يدبر بها اغتيال « مانويل لاديرا » واحراق عربات النقل التي كان قد سلمها لماركوس فارجاس ، ويعهد بتنفيذ الجريمتين الى احد اعوانه « تشولوباريما » ، وهو زنجي عملاق كان رئيساً لعمال المناجم من قبل ثم اصبح رئيسا للشرطة هناك تحت اسم مستعار ، ولا يسمـع الفتى ماركوس فارجاس اسم هـذا الرجل حتى تهيج في نفسه

الرغبة في الانتقام ، اذ هذا الرجل نفسه هو الذي كان قد قتل اخــاه الاوسط من قبل في مناجم « الفتشادا » فضلا عن هذه الجريمة الجديدة التي ارتكبهـا بقتل ولي نعمته وتدمير مورد رزقه . واخيرا يلتقي ماركوس فارجاس بغريمه في احد المشارب ، وتدور بـين الرجلين معركة عنيفة ، ولكن الفتى الجريء يتمكن من اطلاق النار على العملاق المجرم الذي طالما تأذى به اهل تلك الجهات.

... وهكذا يرى ماركوس فارجاس كيف يقذف به القدر الى الغابة ، اذ لايرى مفرا من قبول العمل الذي عهـــد به اليه « فرانسسكو فيللوريني » صاحب احد مصانع المطاط في منطقة « ميجرومانيتو » في داخل الغابة ، فقد عرض الرجل عليه ان يعمل وكيلا له هناك للاشراف على جمع محصول المطاط ... لا يتردد الشاب المغامر كثيرا في المضي الى اعماق الغابة بعد ان انفضت نفسه لحياة اهل المدينة « المتحضرين » !...

جامعو المطاط :

ويدخل ماركوس فارجاس الى هذا العالم الغريب المسحور .. العالم الذي يسيطر عليه « كنايما » إله الشر الذي لاتعرف له صورة وان كان يستطيع تقمص كل صورة ... ها هو ذا يدير العمل الشاق العنيف الذي جمعوا له اناسا مسا كـــين مهمتهم التوغل في الغابة واعتلاء اشجارها ثم اتخـــاذ سكاكينهم في قشورها حتى يريقوا « دمها الابيض » الذي لايلبث ان يتحول الى كتل من المطاط ، وهم في اثنـــاء ذلك يتعرضون لكل اهوال الغابة : وحوشها الكاسرة ، وثعابينها التي لاشفاء من لدغاتها ، والجذوع التي يمكن ان تنقض عليهم في اى لحظة دون انذار ... ثم هذه الاشجار المحيطة بهم تنظر اليهم نظرات صامتة رهيبة عميقة ، فتؤدي بهم الى الجنون !...

وأقبل ماركوس فارجاس على عمله في تفان واخلاص ، ان جامعي المطاط رأوا منه مالم يروا من قبل في غيره من الوكلاء والمشرفين من قسوة واستئثار ، ولهذا فانهم جازوه بالولاء والجد في العمل ، فلم يكد الموسم ينتهي حتى كان انتـاج المطاط قد تزايد في هذه السنة . وحمـــل الفتى المحصول ومضى بـه الى « أوبانا حيث سلمه » لموكله « فرانسسكو فيللوريـني » ، وشكر له هذا أمانته وجهده ، غير أنه عرض له بأن يقطع صلته بابنته « أراسيليس » ، ولكـــن كلمات الرجل أثارت في نفس الفتى الأبي ثائرة الكرامة ، فأنهى حديثه مع الرجل وصمم على الانتقام ، وحمل الفتاة الصغيرة على الهرب من دار أبيها لكي يتزوج منها ، غير أن الندم أدركه بعد ذلك وعاودتـه الرغبة في التحرر والانطلاق ، وحركه الحنين الى الغابة من جديد ، فترك الفتاة ومضى مرة أخرى في الطريق الى عالمه المسحور .

هو الآن يعيش مع الهنود يشاركهم حياتهم بين أدغال الغابة ويرقص معهم في حفـلاتهم ، ثم يتزوج بامرأة منهم ، ويظل سجين الغابة ما بقي من حياته .

رجل يتحول الى شجرة :

لقد باع ماركوس فارجاس روحه لكناعا الى الأبد ... هو الآن هندي يعمل جامعاً للمطاط مع سائر العمال ، ويتوثب على الاشجار كأنه حيوان متسلق، ويشتغل في مناجم «الكويوني» باحثاً عن الذهب ، ولكن بريق الذهب لا يبهر نظره ، فهو يجمع منه مالم يقدر لأحد غيره ان يجمع، ولكنه لايرى بأساً بعد ذلك الجهد الشاق في أن يتنازل عنه طوعاً لاصحابه من العمال الفقراء وهو غريب الاطوار يروي الناس عنه قصصاً محيرة عجيبة .

ما أكثر ماراوه وحيداً في قارب صغير يشق فروع « الاورينوكو » التي تخترق الغابة وهو يلقي بصرخات هائلة غريبة ، ثم يختفي في لـج البصر ، ويروي واحد منهم انه كان ماشي رفاقه، ثم يتوقف فجأة بين اشجار الغابة السامقة دون حراك وهو شاخص ببصره الى ناحية ، فيظـل ساعات كاملة وكأنه قد تحول الى شجرة من جملة ذلك الشجر ! .. بل ان الرجل يؤكد أنه قـد تحول خلال هذا الوقت الى شجرة بالفعل .

ولكن الفتى الذي كان يبشر بمستقبل مزهر ثم تحول الى قطعة من الغابة الخضراء لايلبث ان يعاوده شعور بالتحرر من ربقة « كناعا » .. غير أن الخلاص لم يعد ممكناً بالنسبة اليه ، فقد وقعت روحه في إسار الغابة الى الابد ، ولكنه لايجد بأساً في أن يبعث بابنه الذي يحمل اسمه : ماركوس فارجاس حينما بلغت سنه الرابعة عشرة الى أوباتا ، موصياً صديقه القديم « أوريلينا » بأن يعتني بتربيته وتعليمه في العاصمة .

اما « ماركوس فارجاس » الاب فهو لايزال يهيم في غاباته وبين هنوده لايبغي بهم بديلا .

ويتردد حفيف الغابة وهزيمها الأجش .. ويتسرب بين أدغالهـا نهر « الاورينوكو » الواسع ماضياً في طريقه قدما الى مصبه ، حتى يقدم حسابا عن عمله الى البحر الكبير .

أما اشجار الغابة الخالدة فهي مازالت في موضعها جامدة تتبادل النظرات بعيونها الخضراء القاتمة .

ولاغصانها حفيف هامس يملأ الجو المعتم :

— « كناعا » !..



١ ـ المسرحية الانكليزية المعاصرة في نظر النقاد الالمان

Das Maderne Englisehe Drama

اشترك اثنا عشر اختصاصياً المانياً في تأليف مجلد من الدراســـات عن المسرح الانكليزي المعاصر . وقدوصف هذا الكتاب بأنه(دراسات عميقة الفهم المسرحيات الانكليزية الحديثة التي كان لها أثر حاسم في تطوير شكل المســـرح الحديث ومضمونه ، خــلال السبعين عاماً الاخيرة) . والكتاب الذين تعزى اليهم هذه الاهمية م سلسلة من المسرحيين تبدأ ببرناردشو وتنتهي بوسكر . كما أن في الكتاب تأكيداً على النزعة الشعرية للمسرح الانكليزي المعاصر . ولهذا فان مايقرب من نصف الدراسات انما يعنى بمسرحيات كل من بيتس واليوت وفراي .

وتتنوع اتجاهات التحليل بحسب الخصائص الفردية للكتاب واتجاهم . فقد اتبع النقاد منهج الالتزام في تفسير وتحليل انتاج كل من ويسكروبرناردشو، واتخذالمنهج الكلاسيكي المسيحي وسيلة لفهم اليوتوفراي . أما التحليل النفسي ودراسات فرويد ، فكانت أساساً لفهم أودن وأوسبورن . واستخدم المنهج الصوفي ومفهومات يونغ في دراسة تطور بيتس .

وكثيراً ما كان يستغرق هؤلاء النقــاد في محيط دراســاتهم ، بدافع رغبتهم في عكس الاسلوب الخاص للكاتب الذي يدرســونه ، فيأتي حكمهم غامضاً أو عاماً . ومن هذا النوع من الاحكام ، قولهم في نهــاية دراسة مسرحية برناردشو (مهنة مسز وارن) .

يقول احدهم في نهاية دراسته لمسرحيــة (مهنة مسز وارن) :

« لو ان على المرأة الحديثة أن تضحي كل هذه التضحيات حتى ترى الحياة على حقيقتها ، فان المرء لابد أن يتخيل ان ابنة مسز وارن سوف تثور على امها اذا حاولت الام ان تمنع ابنتها من ان تعيش على هواها . »

أمـــا عن مسرحية إليوت « موت في الكاتدرائية » فان الناقد يقول عن البطل :

« بالرغم من انــه بسيط صادق كالحمامة ، فان بامكانه أن يكون مخادعاً كالحية » .

أمـــا عن اسلوب اوكيسي في مسرحية (جونو والطائر) فان نتيجة الدراسه هي :

« هذه المسرحية نموذج مثالي للبنـــاء المسرحي ، ففيها ثلاثة خطوط من الحوادث تتألف معا لخلق مأساة » . وهناك بناء مماثل على العقدة في مسرحية سينغ « الطفل اللاهي للعالم الغربي » . فالعقدة مرتبطة بحركة الموج التي ترفع كريستي فوق العالم لتعود وتجذبه الى اعماق المحيـــط ، كل مرة .

غير ان النقد الجارح انصب على مسرحية (حليب الغـــابة) للشاعر ديلان توماس . فهذه المسرحية :

(تنقصها المقـــدرة على الانفجار ضمن الشكل البسيط القوي الذي نجـــده في ابداع مسرحية (يوليسيس » .

أما التحليل النفسي فقـــد قاد الدارسين الى اكتشاف التوازي بين الثنائية في حياة اوسكار وايلد وبين انقسام الشخصية في مسرحية (أهمية أن تكون شريفاً) . كما ان القسم الأخير من مسرحية (هجوم الفرقة ف ٦) لأودن تظهر فصام الشخصية عند البطل رانسوم الى ناحيـــة ايجابية تتمثل في « حب الأم » وناحية سلبية في « كره الاشقاء » . وبذلك يتهم البطـــل نفسه ويدينها .

وقد طبق هذا التحليل الفرويدي أيضاً على زعيم الناضبين أوسبورن في مسرحية (انظر وراءك بغضب) :

« ان جيمي بطل المســـرحية أقنع نفسه بالتزامات جوهرية . واستعاض بهذه الالتزامات عن رغباته الخـــاصة . وبالرغم من انه اسقط التزاماته على رغباته فان هذه الرغبات ظلت غير مروية . ولا بد ان يتولد عنها رد فعل تخريبي » .

غير ان انتقال الدراسة الاوروبيـــة بالمناهج والاقتباسات المعقـــدة ، تفقد هذه الدراسات رواءها ، وتجعلها بعيدة عن القارىء العادي . كما أن النقـــاد الالمان استبعدوا من دراساتهم انتاج صموئيل بيكيت وكتاب مسرح اللامعقول بدعوى أن :

(دراسة هـــذا النوع من المسرحيات التي لايمكن انكار تأثير بعضها ، لاينطبق على مقولات الابداع الفني ؛ وأرى انها تشبه رحلة استكشاف خلال الاعماق السديمية للاشعور الفردي) .

ومع كل ذلك فان كتاب (المسرحية الانكليزية المعاصرة) من اثمن المؤلفات التي تعالج المسرحية كفرع من فروع الادب .

٢ — مختارات في الشعر والنقد

Selected writings- Herbert Reed

لعل الأمر الذي لن يدهش له أحد ، هو أن غلاف هذا الكتاب يتضمن قائمة من الكتب يفوق تعدادها عدد السنين التي عاشهـا السير هربرت ريد . فهو في السبعين من عمره وقد نشر ستاً وسبعين كتاباً حتى الآن ؛ لأنه منذ أكثر من أربعين عاماً ينشر شعره ، وترجمته الذاتيه ، ودراساته المطولة في الأدب والفن وشؤون المجتمع والثقافة ، بالاضافة الى مراجعاته لبعض الكتب ومقدماته لبعضها الآخر ، وتعريفه بالمعارض الفنية. كما أنه شارك في اعداد أحسن دراسة عن صناعة الخزف الانكليزي قبل القرن التاسع عشـر . بل انه ألف رواية تبلغ من الغرابة حداً لايمكن معه تصنيفها في أي نوع من انواع الروايات . وهي بعنوان (الطفل الأخضر) . كما أنه قدم في الاذاعة أفضل الصور الكلامية عن الأدباء المعاصرين . ومما لايجوز أن ننساه ، مختاراته من الشعر العالمي !!

وهذا الكتاب محاولة لابراز نشاطه الفني كشاعر ، وناقد ، ومجادل ،وفيلسوف ، وكاتب مقال .. غير أن هذا مستحيل . فالترجمة الذاتية التي نشرها هذا العام بعنوان (التجربة المتناقضة) ترينا صورته أكثر تعقيداً وصلابة من أن تستوعبها هـذه المحاولة ... حتى ولو اقتصر الأمر على ان أسلوبه حين يتحدث عن نفسه أكثر حيوية وامتاعا من أسلوبه في الحديث عن الافكار . وقد يبدو هذا الحكم غريبا على رجل اشتهر بتواضعه ، غير أن الخمسة عشرة محاضرة التي ألقاها عن نفسه تنفي هذه الفكرة الشائعة . كما أن في قصيدته (مزرعة القمر) المنشورة في هذه المختارات ، يقول الصوت الثاني (وهـو الصوت الذي يختفي وراءه السير هربرت ريد) :

لدينا صوتان .
الصوت الفطري الذي يتدفق كالماء من النبع ، أو كالدماء من الجرح . .
/ وصوت الثقافي الذي يدوي كالبوق نابعاً من مكان ما في الدماغ .

ونجد في انتاج السير هربرت أن الصراع قائم على الدوام بين هذين الصوتين : ان مايقدره ، ومايراه أساساً للفن واسـلا له ، هو الشيء اللاشعوري ، البدائي ، غير العقلاني ،العفوي. وقد قال سنة ١٩٢٤ في كتابه « التحليل النفسي والنقد الأدبي :« للفن أصل واحد فقط: الالهام . » .

وقد سبق هذا الحكم رأي له في البراءة التي تتحول احياناً الى بدائية . وهو يلصق بالفن منعة الدهشة (الدهشة) . وقـد كتب سنة ١٩٥٥ في مقالته (الايقونة والفكر) مايلي :

« ان الذهن يغرق في البلادة ، مالم تواصل جذوره الجائعة بحثها عن الغذاء في المناطق المظلمة من المجهول . ان الاغصان الحساسة تتجه على الدوام نحو الضياء الذي لم يتخيله أحد من قبل».

ان الرومانسية التي ينطوي عليها هذا النص يشير الى ما يفتقده القارىء في كتابات السير هربرت ريد النقدية : ألا وهو العفوية الحيوية اللتان يقدرهما الناقد في الفن، ان كتاباته تردد صوت ثقافة قاتمة مجردة ذات عناصر متداخلة. ومن النادر أن نجد في أعماله النقدية لوحة أو قصيدة أو تمثالاً جرى النظر اليها على ضوء الحجة الدامغة أو الدليل الواضح . مع ان أشعاره هو متقلة بمخيلة متماسكة صلبة .

ان اصالة السير هربرت ريد تكمن في روحه الشعرية الأثيرية . ولن يكون القدر عادلاً اذا دفع النقاد الى اهمال شعره تحت ركام نظراته النقدية . ومن حسن حظه - كشاعر - أن الشعراء في انكلترا أكثر خلوداً من المفكرين .

مطالعات

في الصحافة الادبية الاجنبية

الانكليزية والأمريكية

يقدمها : حسام الخطيب

الثقافة اليوم ملك الجميع[1] . ليس لها وطن معين ، ليس لها حدود . في لحظة الهام تومض فكرة في ذهن نير ، تتلقفها المطبعة تلقف الجائع النهم ، تنشرها في بقاع الأرض وأصقاعها . يتصدى لها المترجمون يلبسونها أثواباً لغوية جديدة ، ينبري لها الناقدون ، يشيدون بمحاسنها ولا يخفون المآخذ ، يرفع عليها العالم رايته تصبح تراثاً مشتركاً ، تتعرض للتفاعل مع غيرها من الأفكار ، ينتج تركيب جديد ، يغنيه تفاعل جديد ... انه الفكر الحديث ، يعيش في توتر دائم القرائح تتلظى بلهيب الابداع ، والعلم يقود الانسان مع اطلالة كل فجر الى أفاق لم تحلم برؤيتها عين ، وكلما انحسر الستار عن أفق نجمت مشكلات ، مشكلات فكرية وحضارية ونفسية ، يلبث الفكر من ورائها ، يسعى الى استيعابها ، ومن أمامه تتشعب المتاهات وتعبس العقبات ، أبداً معقود اللواء ، بوليسي العزم ، قد يكبو ويلتوي عليه السير ولكنه ، ومن ورائه بنات (الميوز) السبع ، لم يعرف التوقف عبر الأجيال .

والمثقف الظامىء إلى المعرفة ، ماعساه يفعل إزاء هذا الموكب المتماوج ذي الألوان

(١) يبـدأ تحرير « المعرفة » بتقديم مطالعات في الصحافة الفكرية الاجنبية في آخر ماتنشره وتعالجه من موضوعات فكرية عامة وأدبية وفنية راجين أن نحقق بذلك اتصالاً مستمراً وثيقاً بين قرائنا وبين النشاط الثقافي في مختلف مراكزه ومصادره .

الطيفية ، تكل عيناه ولا يستطيع أن يرى كل ما يود أن يراه ، يغتاله الوقت قبل أن يستوفي بعضَ بعضٍ من فيض القرائح المبدعة ، واللغة هذا الحاجز الذي يظل حاجزاً رغم آلاف سلالم المترجمين ، اللغة تصد المثقف إن طمح، تفتح له نافذة وتغلق عليه نوافذ .

قديماً قال الحكماء : « ما لا يدرك كله يدرك جله » وها نحن أولاء ، نقتطف بعض ما يستجد من جنى أدبي أو فني أو فكري ، نلم به المامة عجلى ، وقد نقف وقفة التأمل المتمعن عند المحطات الكبيرة وفي مفارق الطرق المتشعبة ، نحاول أن نستجمع شتات الأفكار ، وننظمها في سلك واحد ، كلما أمكنتنا مهلة .

— التفكير الليبرالي تحت المجهر —

يتعرض التفكير التحرري Liberal لمناقشات كثيرة تستهدف امتحان قدرته على الاستمرار في عصر نمت فيه الروح الجماعية حتى في الدول الديمقراطية الى درجة تكاد تضع المبادهة الفردية والفرصة الفردية موضع الحذر والريبة . كما ان مفكريه متهمون دوماً بالتقلب بين المنفعة العامة والمنفعة الخاصة وبميوعة الحدود التي وضعوها بين الحرية الفردية والرقابة العامة مما اتاح لهم في احيان كثيرة ان يتلاعبوا بها ويتهربوا من التزاماتها . والهجوم على التحررية Lberalism قديم قدم الافكار الاشتراكية والتقدمية ولكن الجديد في الامر ما نلحظه في الفترة التي نعيشها من اجماع معظم المفكرين سواء اكانوا يمينيين أم يساريين على الايمان بأن التحررية (الليبرالية) اصبحت عاجزة كسند فكري يمكن ان يفسر ويضبط التطور الحياتي السريع في الأزمنة الحديثة .

وفي حين نرى اهتماماً بنشر آثار بعض المفكرين التحرريين ورائدهم جون ستيوارت ميل نلاحظ ان هناك عدداً كبيراً نسبياً من المؤلفات الانكليزية والامريكية يتولى مهاجمة التحررية وتفنيدها وفي رأسهم الاستاذ (كنيث مينوغ) K. Minogue الذي حاول في كتابه « الفكر التحرري (الليبرالي) Liberal Thought » ان يعرف التحررية بقوله : **انها تصنيف لمعتقدات انفعالية (او حالة فكرية) لم تمنعها عراقتها العقلية من الانحدار الى أميع حدود الرخاوة الاخلاقية .**

ان مينوغ يجرد التحرريين المحدثين من الايمان بالحرية ويتهمهم بتضحيتها تحت ضغط المصلحة والضرورات الاجتماعية ، ويشاركه في ذلك موريس كاولنغ M. Cowling مؤلف

كتاب (ميل والتحررية) ، ويتهم ميل في حبه الظاهري للحرية وسعيه لانشاء مجتمع مبني على الطغيان مخدوع عن نفسه معتمد علــى اسس عقلية مزيفة .

ويورد كاوانغ في هجومه على ميل حجتين : الاولى ان نظرية ميل اقرب الى الديانة والديانة لا تناقش على اسس عقلية والثانيـة ان ميل لم يقدر الحرية الا من حيث انها ، كما اعتقد ، تتيح فرصة خلق مجتمع متصف بالايثار والسمو العقلي.

ان محرر (الايكونوميست) لا يجد في الكتابين السابقين فكراً منظماً دقيقاً وان كان يعترف ان الكتابين يلقيان في روع القارىء الشكوك حول التحررية : **أيمكن اعتبارها اليوم عقيدة واضحة الحدود ؟ وهل مازالت تشبه تحررية جون ستيوارت ميل ؟**

الامريكيون واللبراليــة والنفور من الثقافة

واذا كان الكتاب الانكليز يختصون الفكر التحرري اللبرالي بالتحليل المباشر فان الكتاب الامريكيين – من خلال ما كتبوه في الاسابيع القليلة الماضية – لا يميلون الى معالجـــة الفكر النظري بل يلحون على ان تطور الحيـــاة الامريكيـــة سار في مجرى لم يكن للفكر النظري يد طولى في توجيهه ، وقد ظهر ذلك جليـــاً في كتاب لرتشارد هوفستادتر أسماه : مناهضة الفكر في الحياة الامريكية

Anti.— intellectualism in American Life . . . Richard Hofstadter

وفي رأي محرر الملحق الادبي للتايمز أن مؤلف هذا الكتاب يهدف الى اختبار الاتجاه اللبرالي في امريكا من خلال الصورة التي رسمت له باقلام المؤرخين الامريكيين ، وقـــد قادته نتيجة الاختبار الى ان يصبح متشككاً في بعض الادعاءات التقليدية للتقدمية الامريكية ومعادياً لها احيـــاناً ... وهو يهتم اهتماماً رئيسياً بذلك المظهر من الاتجـــاه الامريكي اللبرالي او الراديكالي الذي مارس بالفعل نفوراً من الثقافة ومن الغرباء ويحاول تحليل هذا النفور وارجاعه الى عوامله الاصلية ، ويقوده هـذا التحليل الى التأكيد بأن الروح الامريكية لم تظهر في النتاج الفكري ، وانما يمكن التماسها في روح المزارع الامريكي الخشن وفي تعاليم الكنيسة الانجيلية ، والفن الامريكي في رأيه ظل بعيداً عن واقع الحياة ولم يعبر عنها .

وقد اهتم بهـــذا الكتاب ايضاً محرر (نيوستيتسمن) وطرقه من زاوية نقدية أهم ما جاء فيها أن التحررية الامريكية عقيـــدة اكاديمية لم تنتعش خارج الجامعة والمدرسة وهذا هـــو ضعفها الاساسي في الاغلب . والقراء الاوروبيون يصابون بالدهشة لغياب أية اشارة للاشتراكية في الكتاب المذكور ولكن هذه الظاهرة جـــزء من الواقع الامريكي وليست غلطة المؤلف ... ولعل الكاتب يشعر شعوراً مبهماً انه ، مثلما رفعت التحررية الطبقة الوسطى وحضرتها ، لعبـــت الاشتراكية دوراً مشابهاً

بالنسبة للطبقة العاملة (في اوروبا على الأقل) ، وفي امريكا يدهش المرء لوجود طبقة بروليتارية من البيض والملونين معزولة تمامـــاً عن سائر المجتمع(١) .

رأي إنكليزي في واقع الثقافـــة الأمريكية

أما محرر (سبكتاتور) فيعتقد أن القيمة الأساسية للكتاب تكمن في الاسلوب الحي الذي عرض فيه الأسس التاريخية للبناء على الرجل العادي الذي يعبر عن جوهر فضيلته عن طريق الدين والسياسة ، وعلى الرجل العملي الذي يعبر عن مزاياه من خلال نشاطه الاقتصـــادي . وخلال مناقشة موضوع التعليم في أمريكا يجـــد (هو فستاتر) يطرق موضوعاً جديداً هو موقف المثقفين من النشاط الثقافي والحد الذي بلغه تسرب (شعبية) الثقافـــة الامريكية في الطبقات المثقفة . واذ يجد محرر (سبكتاتور) أن المؤلف لايفي هذه النقطة حقها يعقب عليها بما يفيد أن مثقفي الولايات المتحـــدة يؤذون الحياة الثقافية فيها بقدر مايؤذيها أدعياء الثقافة والصحفيون المرتزقون . والمشرفون على التعليم الجامعي والثانوي في امريكا قد آذوا الثقافة الامريكية لأنهم ساعدوا عـــلى تحطيم الجمهور المثقف بوجه عام . ولعل ذلك يرجع الى ان الاساتذة والمفكرين الامريكيين انغمسوا منذ سنة ١٩٢٠ في المفهوم الشعبي للتعليم وانصرفوا عن حياة الفكر ، والخلاصة ان اجتماع الشعبية والاختصاص قد تسبب في تضاؤل جمهور الثقافة المحدود أصلا .

الصراع الداخلي في أمريـكا واخفاق اللبرالية أيضـــاً

وهناك موجـــة طاغية في الفكر والادب الامريكيين لمعرفة حقيقة الحيــــاة الامريكية وماستنطوي عليه من تناقض بين الصبوة الى النظام والهدوء وبين العنف الذي يغتلي في داخل الحياة ، مما يسبب توتراً دائماً في الفكر والادب ورغبة في النقد الذاتي تجعل الادب الامريكي قادراً على استهواء القراء حتى لوكانوا من الذين لايرتاحون الى طراز الحياة الامريكية .

ويمثل رينهولد نيبوهر Niebuhr في كتاب (أمةوماتتصوره ANation So Concaited) وجهاً من وجوه الصراع الذي يدب دبيبه في الحياة الامريكية ، ورغم أنه أحد قادة الفقهاء المتحررين في أمريكا يبدو أحياناً في حيرة من أمره حيال مشكلة الامريكي الذي كان يعيش في استقرار وامان ضمن قارته متنصـــلا من المسؤولية تجاه العالم راتعاً في طمأنينته وفطرته . ثم انتقل فجأة الى ممارسة القوة الذرية واخذ يقيم حياته على حافة هوة الفناء الذري فاذا هو مثال حي لدراما التحول التاريخي الذي يثير خيال الصديق والعدو كليهما .

ان الكاتب لايلتهي بنتيجةما من هذاالعرض ،

---

(١) أفردت (نيوزويك) قبل شهر عـــدداً من صفحاتها لمعالجة مشكلة هذه الطبقةالمعدمة في امريكا .

ولكن الاستاذ وليم نيومان يحـــاول في كتابه « التحررية والتراجع عن السـياسة Liberalism and The Retreat from Politics .... William Newman ان يضع بعض الحلول ويقرر نهائياً ان (اللبرالية) التحررية غير كافية حتى في اشكالها الحديثة المتطورة ويميل الى استقاء خط تفكيره من الاشتراكيين وان كان يحافظ على شيء من التوازن بين الراديكالية وبين التحررية المتقدمة فيقترب بذلك من الفابيين.

قصة الحضارة في الميزان

وفي العـــدد نفسه من (يال ريفيو) (Yale Review) يناقش ستانلي ميلون المجلد الثامن من (قصة الحضارة) من تأليف ويل وأريل ديورانت، وتقوده المنـــاقشة الى طرح قضية هذه السلسلة الطويلة في تاريخ الحضارة التي لاقت من القراء قبولاً واسعاً ولاقت اعتراضات موازية من المؤرخين الباحثين . ان المؤرخين المحترفين يقولون ان المؤلفين ديورانت ليس في ذهنها أية فكرة عما تعنيه الوثيقـــة التاريخية ، وهما يعتمدان في كتابة التاريخ على كتب غيرهما لا على مـواد البحث الاصيلة . ثم انهما يعتمدان على كتب ومراجع لا تعد ثقة من ناحية تقصيها للحقائق وهما لا يفيهان مثلاً انه لا يصح اعتبـــار ماقاله فولتير ومثيليه عن عصر لويس الرابع عشر ثقة بالرغم من انهما يعدان مؤرخين عظيمين.

وقـــد سبق ان رد المؤلفان ديورانت على انتقاد مشابه للسيد (بلمب Plumb) بقولهما : «اذا كنا لم نرجع الى مؤلفات الباحثين الاقرب عهداً فذلك لأننا وجدنا خلال خبرتنا الطويلة ان هـــؤلاء لا يضيفون على ما يرد في المؤلفات المتعارف عليهـــا الا نزراً يسيراً من تصحيح لتواريخ او امكنة او كلمات او مؤكدات قليلة الشأن . » وهـــذا غير مقبول في منهج البحث التاريخي . والواقع ان المؤلفين ديورانت ليسا مهتمين بالتاريخ بقدر اهتمامهـــا بالناس ، وهما يرغبان عادة الى سرد حكايات ممتعة عن اشخاص ممتعين ممن عاشوا في الماضي ، وتكون النتيجة مرحلة بين كتاب مدرسي فات اوانه وموسوعة من حجم متوسط تفتقر الى الاثارة العقلية، بالرغم مما جاء في اجابتها على هذه التهمة : « ما أكثر القراء الذين اتهمونا باننا نجعلهم يفكرون » . وهي حجة مردودة عليها لانها يعرفان اكثر من اي ناقد طبيعة قرائها ...



الناقد السينمائي الكبير : جورج سادول(١)

في حديث خاص عن :
الفن السينمائي العربي في سورية والبلاد العربية

بـــاريس

من الدكتور سلمان قطاية

دار نقاشنا حول موضوع السينما العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها في منزل الاستاذ سادول في جزيرة سان لوي الشاعرية وفي غرفة غارقة في جو فني محض وعامرة بالكتب وقد صف سادول ترجمات كتابه عن تاريخ السينما باللغات الحديثة وفي مقدمتها اللغة العربية .

استقبلني ببشاشته المعهودة ، وما ان طرحت عليه بضعة اسئلة حتى راح في حديث طويل ينتقل من موضوع الى آخر ببراعة ولباقة .

فاخبرني بادىء ذي بدء انه يعد دراسة طويلة عن السينما العربية يقدم فيها خلاصة الاعمال الفنية في هذا المضمار وذلك في مهرجان السينما الدولي الذي سينعقد في بيروت الخريف القادم ، واعلمني ان المخرج صلاح ابو سيف زاره منذ بضعة ايام وناقشا طويلا حول مستقبل السينما المصرية .

ثم انتقل الى الحديث عن السينما في شمـــالي افريقيـــا العربية فقال : « سبق أن انتجت تونس فيلمين طويلين وكانت عربيـــة تماما رغم ان بعض الفنيين الفرنسيـــين اشتركوا في انتاجها وكان من اجودها فيلم عن (جحا) اشترك فيه باراتيه فقدم في لندن حيث لاقى نجاحاً كبيرا واستبشر النقاد الاوربيون واعتقدوا بميلاد الفيلم التونسي العربي . الا ان الاتجاه أخذ يميل نحو انتاج الافلام القصيرة على اعتبار ان تونس تريد الدعاية لنفسها كبلد سياحي وتوطيد علاقات حسنة مع بلدان العالم فكثرت الافلام السياحية البسيطة وافلام المناسبات وهذا مارأيناه في تقرير مندوب تونس في بيروت في العام الماضي كذلك فان بعض الافلام الطويلة كثرت فيه المساعدات الفرنسية الفنية فضاعت اصالتها . اما في الجزائر فهي لاتزال في بداية الطريق : لأنني مستبشر بالحركة السينمائية فيها فالاحصائيات تدل على ان فيها حوالي اربعة

---

(١) سبق أن زار سادول دمشق وأجرى معه الدكتور رفيق الصبان مقابلة خاصة بالمعرفة وعندما عاد الى باريس اجرى معه الدكتور قطاية مقابلة ثانية في باريس تضمنت آراء جديدة طرحتها طبيعة الأسئلة.

حالة ونصفها تقريبا اصبح مؤمما ، وهم يملكون ستوديو في التلفزيون ولديهم مخـــابر وهم ينوون استوديوهات جديدة . وكلها مؤممة مما يسمح بتقديم افلام جيدة غير خاضعة لضرورات التجارة والكسب . هذا علاوة على ان الجزائري يذهب وسطيا اربع مرات الى السينما بينما يذهب المصري مرتين .

اما بالنسبة للبلدان الاخرى كالعراق وسورية ومصر فهناك مشكلات عديدة مطروحة للبحث . اولها مشكلة اللغة ، وهي مشكلة مطروحة ايضا في كل المغرب العربي . وهي مشكلـــة استعمال الفصحى ام العامية الدارجة ؟ خذ مثلا الافلام التي تنتجها سويسرا بلغة ألمانية مشوهة ، كذلك في بلجيكا حيث تنتج بعض الافلام باللغة الفلامنكية إلا ان هذه الافلام لايمكن لها ان تتخطى حدود تلك المناطق الصغيرة الضيقة ، وهـذا ما يجب ان تتلافاه الافلام العربية والا انحصر كل فيلم في حدود بلاده ولم يتعدها . لقد لاحظت ان كل الافلام المصرية تتكلم اللهجة القاهرية التي اصبحت مفهومة في كثير من البلدان العربية فاذا استطاعت ان توحد اللهجات كلها فهـذا جيد رغم انني اعتقد ان الافلام التاريخية بحاجة الى لغة عربية كلاسيكية فصحى ولكن هذه غير ممكنة بالنسبة لافلام تجري حوادثها في مناطق شعبية ضيقة ضمن كل بلد .

هناك تجربة هامـة في تاريخ المسرح العربي وهي مسرحيات مارون النقاش ففي مسرحية البخيل التي استوحى بعض حوادثها من مسرحة موليير، قدم كل شخصية بلغة مختلفة قليلا فالنبيل الموسر يتكلم بلغة فصحى ورجل العامة بلغة عامية وهكذا. واعتقد انها تجربة جيدة بالامكان استعمالها مبدئيا.

اما فيما يخص مستقبل السينما في سورية ولبنان ففي اعتقادي انـه يجب ان تتحاشى الاخطاء التي وقعت فيها السينما المصرية . لقد نشأت هذه تحت ظل الاستعمار الانـكليزي ، وكانت ثمة رقابـة انـكليزية رهيبة ، فاضطر المنتجون الى الاتجاه نحو الميلودراما اوالنقل عن المسرحيات والروايات الاوروبية وافلام هوليوود . لأن المستعمر كان يحارب كل اتجاه قومي . خذ مثلا في عام ١٩٤٢ كانت المانيا النازية محتلة فرنسا ، وأخرج في ذلك الحين كريستيان جاك فيلـماً باسم « السامفونية الغربية » وفيهـا يسرد حياة المؤلف الموسيقي الفرنسي برليوز ،وكان الفيلم طبعاً تمجيدا للموسيقى الفرنسية . ونجح الفيـــلم نجاحاً كبيراً لجودته ثم ارسل الفيلم الى برلين حيث شاهـده وزير الدعاية النازي غوبلز . وكتب هذا في مذكراته بخصوص هذا الفيلم « انا غاضب من مكتب باريس الذي يوافق على الاسلوب الذي تقدم فيه (القومية) في افلام الفرنسيين ، لقد اعطيت تعليمات واضحة جداً كي لاينتج الفرنسيون سوى افلام رخيصة فارغة وغبية اذا كان ذلك ممكنا واعتقد ان هذا كاف لهم » .

وهذا تقريباً ماحصل في مصر اثناء الاستعمار فكانت افلام الرقص والغناء والمغامرات الغرامية ، التي تجري في الصالونات والقصور . هناك مثال واضح جدا : قدم المخرج اللبناني نصر فيلما باسم « نحو المجهول » وموضوعه ان مهاجراً لبنانياً يعود الى بلاده ... الخ ... فلاقى هـذا الفيلم

نجاحاً في مهرجان كان لأصالته وطرافة موضوعه ومحافظته على المواضيع واللون القومي. ولكن الفيلم لم يلق اقبالا من اللبنانيين المعتادين على الافلام الاوروبية والذين ينظرون بازدراء الى الافلام العربية. وعندما حاول نصر اخراج فيلم آخر رفض المنتج واصر على ان يكون فيلما تجاريا فقدم نصر فيلمه الثاني « الاجنبي الصغير » الذي عرض في مهرجان كان فاستقبـــل بضحكات السخرية والاستهزاء لانه تنكر للعناصر القومية وحاول ان يكون « دوليا » مقلدا للافلام الاوروبية. هناك قاعدة في السينما انا متأكد منها تمام التأكيد يجب ان تحتفظ بطابعها القومي لا اريد ان اقول ان تكون افلاما فولكلورية بالمعنى السطحي للكلمة، انما صبغة قومية ذات طابع محلي خاص خذ مثلا: الافلام الهندية واليابانية.. لقد كانت مجهولة في العالم ثم قدمت في المهرجانات الدولية واذا بها تنتزع الجوائز العالمية وتدهش العالم كله واصبح كل مخرج من تلك البـــلاد علما ومعلما والسبب هو الطابع القومي.

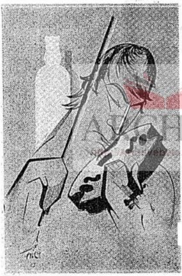
رأيت خلال زيارتي لسورية في العام الماضي بضعة افلام سورية قصيرة وكان منهـــا فيلم « العطش » الذي اخرجه تلميذي صلاح دهني، وهو شاب نشيط وكان فيلماً جيداً انهـــا بداية وبداية طيبة بالنسبة لسورية، ذلك البلد الجميل، ذي الميزانية المحدودة، واعتقد ان الحل بالنسبة لها هو تقديم بعض افلام طويلة في العام وكثير من الافلام القصيرة. واليك المثال العملي: قدم المخرج جان روش فيلماً منذ سنة اوسنتين باسم «العقاب» قام فيه بالادوار ممثلون هواة وصور في المناظر الطبيعية. وكلف الفيلم مبلغاً ضئيلا (٣ ملايين فرنك فرنسي قديم) والجديد في الموضوع هو انه صور الفيلم بكاميرا خاصة جديدة لم تظهر في الاسواق بعد وهي تلتقط الصور وتسجل الصوت في آن واحد وهي من قيـاس ١٦ ميلمتر، واستطاع ان يصور الفيلم هو ومساعده فقط! ثم سجل الفيلم بعد ذلك على فيلم سينمائي قياس ٣٥ مليم. وباستطاعة المنتجين السوريين القيام بهذا العمل اي تصوير أفلام طويلة على فيلم قياس ١٦ ومن ثم نقلها على فيلم قياس ٣٥. وقدعلمت ان في استوديو الجيش في دمشق آلة خاصة للقيام بعملية التسجيل هذا. انها امكانيـة هائلة توفر وقتاً ومالاً كثيراً. وأنصحكم باستدعاء خبير كندي ليشرف على عملية التحويل هذه، فالخبير يرى افضل الفنيين ويمكن ان يتمرن على يدي الخبير بعض الفنيين السوريين للقيام بهذه العملية فيما بعد. يجب ان لاتهملوا قط هذه الامكانيـــة انها طريقـــة المستقبل لاشك. تصور ان فيلم لاروش كان بالالوان وعندما رأيت النسخة ٣٥سم لم الاحظ قط اي فرق بينها وبين فيلم مأخوذ مباشرة بالالوان على فيلم ٣٥ رغم معرفتي الجيدة بالموضوع. المهم في الانتـاج هو المستوى الفني وليست الكمية، كذلك فانا ضد فكرة الافلام الدعائيـة المباشرة (على غرار افلام كليوباترة اوغيرها) لانها تكلف كثيراً وتحبس طاقة بلد صغير كسورية. الافضل تقديم بضعة افلام في هذه الطريقة من تقديم فيلم واحد ضخم.

هذا وربما استطعت زيارة سورية في الخريف القادم حيث ارغب في زيارة قلعة الحصن التي احلم بزيارتها منذ صغري.

معرض الرسام التونسي
عبد الوهاب عميش

تونس

من عبد الرؤوف الخنيسي*



الموسيقار الحالم

البساطة .. الوضوح .. الجمال

من هذه الكلمات نستطيع ان نبني مثلثا (قائم الزاوية) لرسم الفنان الشاب عبد الوهاب عميش . فالبساطة تيسر الشيء ولا تجعله معقدا يعسر فهمه وتذوقه والوضوح يبرزه صافيا والجمال اطار ثالث يخلع على الاثر الفني روعة وجاذبية . ولا ارى فنانا تصدق عليه لفظة ـ عبقري ـ الا اذا ملك اداة الالهام المفجرة لينبوع الجمال والسحر .

لون جديد

لا اغالي اذا قلت ان معرض عميش الذي جمع مايزيد على عشرين لوحة فنية هو لون جديد في الرسم التونسي المعاصر واستطاع عبد الوهاب

* ارسل الينا الاديب التونسي الاستاذ عبد الرؤوف الخنيسي ـ دار الثقافة ـ رسالة شاملة ، تحدث فيها لقراء المعرفة عن شتى مجالات النشاط الادبي والفني في تونس الشقيقة ونحن اذ ننشر القسم الفني من هذه الرسالة ، مرفقة بوثائق رائعة من فن الرسم التونسي ، نعد القراء بنشر تتمة الرسالة في العدد القادم وفيها عرض لشعر الشعراء وأدب الادباء مما هو جدير بالتقدير .

عميش ان يقدم لنا فيه انموذجا منوعا من كفاح الانسان في شتى الميادين .

واقول هو لون جديد لان اللوحات المعروضة كانت مرسومة بالخطوط فحسب وطريقة الخطوط كما يفسرها عبد الوهاب عميش اصدق الوسائل في الرسم المعبرة عن حس الانسان . حس الانسان بالالم والفرح وحركة الانسان ارتفاعا ونزولا . فلوحـــة ــ العامل ــ مثلا تتشكل من خطوط مستقيمة ومنحنية وفي يدي « العامل » نرى هذه الخطوط تبدو اكثر بروزا وتفسيرا لموراء « العامل » نشاهد صورا اخرى اعتمد الرسام في تصويرها على الخطوط المنحنية المقوسة .



بائع الياسمين في تونس

بائع الياسمين

وهناك اقف وقفة قصيرة امام لوحة ــ بائع الياسمين ــ ، واراني قد ذكرتك بشوارع العاصمة في امسيات الصيف القائظ .

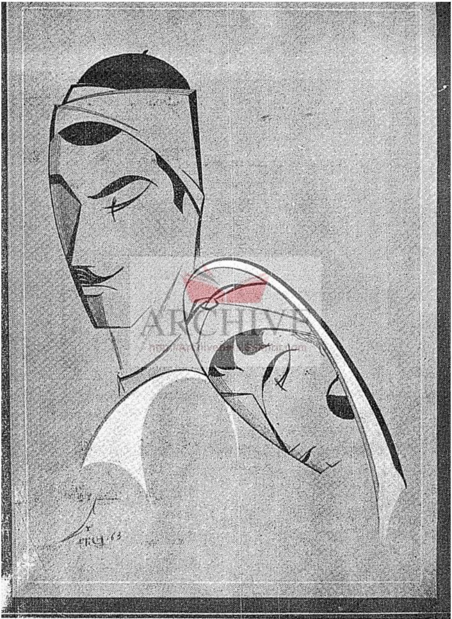
ولعلك تتذكر جيدا ــ بائع الياسمين ــ الشيخ الذي يقضي الساعات الطوال امام « مقاهي باريس » في تونس يغري الاجانب بزهر الياسمين ورائحته العطرة ، ومن يدقق النظر في هذه اللوحة يقارن بين هذه اللوحة المصورة وصورة الرجل الحسية فاذا كنـــا نرى ــ بائع الياسمين ــ راقصا في حركاته وخطواته وكلامه ايضاً نرى في لوحة عميش خطوطا راقصة عبرت لنا في صدق وجمال تامين عن حركات الرجل .

الفن للفن

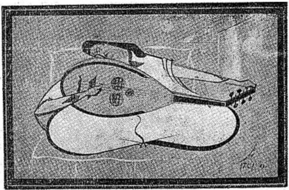
ولا اقصد انني من دعاة مذهب الفن للفن او من دعاة الالتزام في الرسم فأنا لا اؤمن بالمذاهب والمدارس والاتجاهات بقدر ما اؤمن واطالب بحرية الفنان وافساح المجال في دنيـــاه وتركه طليقا حرا .

اما الفن للفن ، فاقصد بذلك ان الرسام عبد الوهاب عميش جمع في معرضه لوحات تنقل لنا اجواء الطرب والفن التي تعيشها العاصمة في ليالي رمضان او في المعهد الرشيدي العتيق ... فهـذه لوحة « العم » **خميس الترنان تمثل لنا الشيخ الترنان وقد انكب على عوده يداعبه في رفق وحنان .**

وشمل المعرض ايضاً لوحات اخرى واقعية تمثل التجميل التونسي والمرأة التونسية القديمة .



الحياء البدوي — للفنان التونسي عبد الوهاب عيش — مجلة المعرفة — دمشق



كبير الفنانين الشيخ خميس الترنان

من الواقعي الى التجريدي :

ولا يخفى على القارىء ان المعرض اقيم تحت عنوان — بين الواقعي والتجريدي — فالرسم الواقعي عرضنا بعض النماذج منه .

اما التجريدي فأكثر لوحات المعرض منه . لايمكننا أن نطلق على لوحة منه اسمـاً معيناً أو نحددها في موضوع معين لأن الرسم التجريدي يخرج عن الحصر والموضوعية ولا يعتمد الرسم التجريدي الاعلى الوضع الفني للصورة وكيفيـة رسمها وما يحيط بها من فراغ جانبي .

واعترف انني قاصر في معرفة هـذا اللون المسمى بالتجريدي لكن الحق يقال ان ماعرض لمعيش هذه الايام اكد لي ان الفن سواء كان واقعياً أو تجريدياً يعبر دائماً عن فكرة أحيـاناً واضحة أو غير واضحة .



وجه تونسي

فخطوط الفن التجريدي هي التي تفرض نفسها معنى ذلك ان كل موضوع هو الذي يختار الخطوط التي تستطيع ان تمكنه على سطح اللوحة فهي بمثابة المرآة التي تعكس كل مايعرض امامهـا بنفس الحس وبنفس الشعور . اذ ان كل خط من هذه الخطوط سواء كان منحنياً أو مستقيماً فانه يحمل مايحمل من المعاني ومن الاشارات التي تفهمها الاعين التي تبصر وتحسها القلوب الـتي تهفو وتشعر .

المدرسة التكعيبية :

ان الخطوط وسيلة من الوسائل يعبرهـا الرسام عن مشاعره وما يدور في ذهنه غير ان هذه الخطوات تمتاز بالتعبير عن حساسية شديدة



ابو القاسم الشابي كما يراه عميش

تسهل الوصول الى المعنى المطلوب وهذه الخطوط حديثة ومقتبسة من المدرسة التكعيبية .

وهي الطريقة التي استعملها النحات المصري محمود مختار في تماثيله وما زال يستعملها الى الآن الرسام الفرنسي المعاصر فرومان في رسومه .

بين مشهدين

واستوقفتني اكثر من غيرها وانا اجوب قاعة المعرض الصغيرة . استوقفتني صورة شيخ انيق يلبس جبة انيقة هي الاخرى و « كشطة » حرير اصفر فلما وقفت معجبا بها كانت يد صاحبي تجذبني الى لوحة اخرى تصور لنا فتاة بدوية حبيبة وفتى بدويا حبيبا ...

ولا يسمى الفنان فنانا الا اذا استطاع بحق جذب المتفرج وسحره وهذا الشعور بالاعجاب ماتاه هذا التجاوب بين اللوحة والناظر او بالاحرى بين الفنان والناظر ذلك الفنان الذي يمكن ان يكون بينه وبين الناظر الاف من الكلو مترات والمسافات الشواسع ان كان حيا ، وآمادا طويلة من السنين ان كان ميتا انه تجاوب لايقهره الزمان والمكان ينتقل من قلب الى قلب ومن روح الى روح .

هذه هي الاحاسيس التي يحملها الخط في قلب الفنان الى سطح اللوحة .. الى الناظر .

اود ان اقول كلمة اخيرة في حديثي عن عميش انه يفكر في مشروع فني ضخم يخدم جانبا مهما في حياتنا الحاضرة وهذا الموضوع هو انكبابه الان على متابعة تاريخنا القديم والحديث وبالتحديد منذ احتلال تونس الى اليوم ليصور لنا بريشته تونس بين عهدين عهد الاستعمار وعهد الاستقلال وهو مشروع ضخم اتمنى ان ينجح فيه بعون الله.

ولئن كان الشباب قوة وخلقا وانطلاقا فان هذا البرعم الشاب سيخلق وينطلق ويشق طريقه في سبيل فن اصيل ...

تاريخ الحضارة الاوروبية

تأليف : كلود دلماس
ترجمة : كوليت حبيب
نشر : وزارة الثقافة والارشاد القومي

عرض وتحليل ياسين رفاعية

يقول « لوسيان فيفر » ليس المؤرخ ذلك الذي يعرف .. انه ذلك الذي يبحث . وانما نبحث .. » وفي الرأي السائد ان الحضارة الاوروبية هي تراث الاغريق والرومان المسيحيين وهذا صحيح . ومن السخف ان نفكر بنواة روحية لها قيمة الحقيقة الواقعة . بيد ان التعريف يظل ناقصا « اذ انه لايوحد الحضارة مع القيم الاخلاقية فحسب . بل يوحي ايضا بأن الحضارة الاوروبية قد تطورت ضمن مجرد الاطر الاخلاقية لهذه القوى الثلاث. ويجعل من اوروبا فكرة خالصة » .

بتلك الكلمات قدم الكتاب ، ولعل المقدمة هي موجز لشتى الافكار التي قيلت في تاريخ الحضارة الاوروبية . وثمة سؤال طرح : ضمن أي اطار تاريخي تطورت الحضارة الاوروبية منذ مطلعها ، يعني بنتيجة اي تواصلات واي انفصامات ؟ وتزداد أهمية السؤال بقدر مايبدو ان التوحيد السياسي لاوروبا يمكن ان يكون الان ، بعد ماظل طويلا يعتبر في حكم الاوهام تتويجاً للجهود المبذولة على المستوى الرسمي مع الجماعة الاوربية للفحم والفولاذ والاتحاد الاوربي من اجل الذرة والسوق المشتركة الخ .. لقد انقضى زمن طويل والاوروبيون يبحثون عن اوروبا .. وهنا يجب ان نطرح سؤالا آخر : هل وجد هؤلاء بلادهم .. ؟ في الظن انهم بدأوا يلمسون الطريق الى ذلك.

تؤكد مقدمة الكتاب ذلك قائلة : في اي تيار حضاري يمكن ادخال **هذا الوجدان الجديد** ؟ انه من المفيد ان ينحني بعضهم على اسطورة اوروبا التي تقول الاسطورة عنها انها ابنة آجيور ملك فينيقية ، وقد اختطفها جوبيتر بعدما تقمص صورة ثور ، وقصدبها الى كريت حيث اصبحت اما لميناس ملك كريت

ـ وان يمنى آخرون دراسة ما كان « الانسان قبل الكتابة » على الارض الاوربية . بمقارنة تماثيل فينوس في اير كوتسك . وديلنـــدورف وليسبون وبراسمبوي . ولوحات لاسكو . ولوحات اسبانيا الكانتبرية .

ويختتم المقدمة بالقول : ان المرحلة البشرية الممتدة بين القرنين الرابـــع والرابع عشر خالقة لاوروبا جديدة ما كان العالم القديم يعرفها اوروبا تطل واجهتها على الاطلسي وعلى بحر الشمال ولقد تكيف الاقتصاد الغربي مع اوروبا الجديدة هذه ، ولعل الزراعة كانت ميـــدان اخصب التبدلات الحادثـــة من جراء ذلك التكيف .

ثم يقسم الكتاب الى عدة فصول . في الفصل الاول كان الحديث عن المغامرات الكبرى في العصر الوسيط الذي تميز بظهور شخصية التاجر المتجول وتوقف الغزوات وحيث نشأت فيـــه الدوقيـــات والامارات وتطور الشعور بمعنى المؤسسات الحرة اي التفتح للشعور المشترك ثم ظهرت البرجوازية التي قطعت علاقاتها مع الملكية التي لم تعد تشكل اطار حياتها ثم نشأ المجتمع الصناعي ، وحيث كانت ايضاً اول محاولة للبرلمان في القرار الذي اتخذه فيليب اغوست قبل رحيله الى الحرب الصليبيـــة . وتطورت الحركات الفكرية والاصلاحيـــة وكانت الحرب الصليبية سببا للتحول الصوفي في ذلك العصر وكانت ايضاً سببا للاحساس بالحرية بعد انتهاء نزاع الاسياد الطويل .

وفي الفصل الثاني تحدث الكتاب عن فجر العصر الصناعي حيث نمت فيه الروح الفردية . ولم يعد الانسان يمني ببلوغ المطلق قدر عنايته بدراسة الطبيعة بغيـــة السيطرة عليها . ونشأ اعتباراً من نهاية القرن الثالث عشر وفي مطلع القرن الرابع عشر ادب علماني يعبر عن احساس اليم بحقيقـــة الموت الانساني . ان الاسف على الحياة ينمو اذن بمثل شدة نمو الوعي لقيمـــة الموت الجسدي الروحية .. بينما ينتصب شيء اشبه بالجدار يزداد ارتفاعاً وصلابة دون انقطاع بين الوطن السماوي والمنفى الارضي . وذلك هو جدار الفناء الجسدي الذي اصبح المسيحيون يجتازونه بصعوبة متعاظمة ، ان الجثمان البشري الذي كان موضوعاً بالنسبة للمؤمنين ، يتخذ في نظرهم شيئاً فشيئاً مغزاه الرهيب المتوعد ، فاذا الموت يحوم منذ ذلك الحين فوق رؤوسهم ، وقد عدل هذا القسر ردود فعلهم الروحية ، فنشأت عن هذا القلق تصورات صالحة بصورة عمومية لكل من شعوب اوروبا كما انطلقت ازمة باطنية سرعان ما اتخذت مظهر حركة تحررية . وفي هذا العصر نشأت النظم الرأسمالية ، وليست الحروب اسباب تلك الظاهرة بقدر ماهي الشروط المناخيـــة والمضاربات النقدية وزيادة السكان . كما استكملت الثورة الصناعية الاساسية عناصرها .. ونتيجة لذلك كان يجب ان تقوم ثورة زراعيـــة لتواكب خط سير الثورة الصناعية .

وفي الفصل الاخير من الكتاب كان بعنوان « بحثاً عن المستقبل » يقول: ان الروابط المنطقية بين الافكار تتقوى ، لكن ناءها يظل حدسياً ومفاهيمها صوفية . ولقد توصل المسلمون الى العقلانية الكيفية ، مع منطق المفاهيم والسببية التوليدية والقياس المنطقي اما الاوربيون الذين ابتعدوا عن العقلانية الكيفية ، في اليونان في القرن السادس قبل المسيح ، فقد تجاوزوها بالعقلانية الكمية .. بينما كان باسكال ونيوتن واصحاب المذهب الميكانيكي يوسمونها حتى العقلانية التجريبية . ماهو سبب هذا التقدم ؟انه تحرير الفرد في المحل الاول . ولم تستطع اوروبا هذه المرة ان تغزو آسيا وتحل محل حضارتها ، لقد انتصرت قليلا ولكن سرعان مارفضت ، واشار هذا الفصل الى ثورة البروليتاريا واسبابها بسبب التبعية التي فرضتها عليها الرأسمالية ، لكن البورجوازية في مكان آخر استقرت هذه المرة ..

وفي البحث عن المستقبل يتساءل المؤلف : الابن الذي ولد في ورشات باريس وارضع في لندن « ايمكن ان يصبح العمل دلالة كرامة الانسان وعظمته ؟ وهل يصبح المعمل ذات يوم رمزاً مماثلا للكاتدرائية . ان البابا ليون الثالث عشر في رسالته السنوية لعام ١٨٩١ قد نادى بتدخل الدولة لحماية العمال . لكن الحركة العمالية . هذا التعبير عن البحث الجديد للصيرورة ، سوف تتطور في مجموعها اذا لم يكن ضد الكنيسة ، فبصورة مستقلة عنها على الاقل .

ان حوار الاستالات والبحوث يتحد بالنسبة الى المؤمنين في صوت الهي . ذلك ان الجزء الأسمى من الانسان يخص الالهي في رأيهم اما بالنسبة الى غير المؤمنين فان هذا الحوار يتحد في صوت بشري ذلك ان الجزء الأسمى من الانسان يخص الانسان في رأيهم . وان تاريخ الحضارة الاوروبية ليحتفظ بهذين القطبين .

ويقول المؤلف : وفي خاتمة المطاف : ان هذه الحضارة هي حضارة الحوار الذي ليس الحصول على انضمام الحدث هو الشيء الاساسي فيه بل احترام هذا الحدث ، بوصفه حدثاً بالضبط احتراماً كافياً كي يظل الحوار ممكناً وهكذا كانت احدى ركائز تاريخ هذه الحضارة التأكيد باشكال مختلفة على الحق الذي يملكه كل انسان في البحث عن حقيقته الخاصة . اذ ليس في هذا الكون حقيقة واحدة – حقيقة باحرف كبيرة – بل حقائق بقدر مافيه من وجدانات .

هذا موجز وملخص لكتاب تاريخ الحضارة الاوروبية . الذي يؤرخ تأريخاً موضوعياً هذه الحضارة التي مازالت الى الآن تعاني الازمات المختلفة بسبب عدم تفهم قادتها انقسامية الحياة الانسانية القائمة على صعيد واحد في كافة ارجاء الارض .

عينان بلا لون

تأليف : خالد الحلي
مطبعة النعمان _ النجف
العراق —

بقلم : ماجد صالح السامرائي

قد يكون ادب الرسائل من الامور التي عفى أثرها الادب الحديث ، فلم يعد امر الكتابة فيها عند ادبائنا المعاصرين كما كان عليه في السابق ، بالرغم مما في هـــذا النوع من الادب من جمال فني ، وتصوير بديـع ، ظهر في نتاجات عدد من الادباء ممن كتبوا فيه ...

فقد ظهرت تيارات ادبية جديدة اجتاحت بموجاتهـــا الهائلة ركامات الالفـــاظ التي كان يعنى بهـــا ادباؤنا في الربـع الاول من القرن الحالي .. فتطورت المقالة من حيـــث الشكل والمضمون والاسلوب ...ولو ان بوادر هـذا التجديد والتطور لم تشمل المقالة أكثر مما شملت القصيـــدة ، والتي اجتاحتها ثورة صاخبة شملت الاوزان والاشكال والمضامين التي لاتتعدى حدود التقرير ، كما شملت الفكرة ؛ فطورتها ، وجرفت في تيـــارها كل قيم الثبات والتحجر ، واجتاحت التجارب التي ادركتها الكهولة ، واناخت بها الشيخوخة ... فراح الادب يستمد عنصر بقـــائه وديمومته من نسغ جديد . وكان لهذا التطور ان احـــدث معارك عنيفة لايزال غبارها قائماً ، بين مجدد ثائر ، وقديم محافظ ... وشتان مابين هذا وذاك ...

و « عينان بلا لون » الكتاب الذي اصدره مؤخراً الاستاذ « خالد الحلي » حاول فيـــه أن يترسم طريق من سبقوه بهـــذا المضمار ، ولكنه من حيث الاسلوب والشكل كان البون شاسعاً بينه وبينهم ... فقد حاول ان يتخطى بعض العقبات الكلاسيكية التي كانت تشيع في نتاج من سبقوه بهذا المضمار ، فجدد في اسلوبه ما استطاع الى التجديد سبيلا ، ولكنه لم يوفق في كل ما كتب ...

الكتاب يضم عدداً من المقالات النثرية الجميلة في طباعتها(١) والتي شاء المؤلف ان يجعلها على شكل رسائل بينه وبين حبيبته ، فعكس فيها حكاية حب ، وأحاسيس قلب ، وكان في ذلك متقفياً اثر المرحوم « مصطفى صادق الرافعي » ومجارياً له في كتابه « اوراق الورد » ولكنه لم يقو على ذلك الا لماماً ، ولم يحقق من ذلك الا القليل ، والقليل جداً ...

فبعض مقالات الكتاب تصل حداً من الروعة بما يوشحها الكاتب من لمسات نابعة من اعماقه ، معـــبرة عن فكرة اصيلة ، مشبعة بالرموز التي

(١) كما ان هناك بعض القصائد ؛ شاء المؤلف ان يضمها لكتابه هذا وان عدد القطع النثرية التي يضمها الكتاب (٤٦) قطعة ، كتبت مابين ٢٦ / ٣ — ٣٠ / ٦ / ٩٦٠ ، عـــدا المقالة الاولى ، وهي احدث المقالات ، فقد كتبت في ١٥ / ٦ / ٩٦٣ .

يتداخل فيها الايحاء والمماناة الصادقة ... كما ان ظلالا رومانسية ترف هنا وهناك ... ولو ان الكتاب لايخلو من عدد من المقالات التي تحتوي على كثير من العبارات والافكار « المعلبة » الجاهزة ، والقسم الاخر يطبعه نوع من عدم الأصالة والموضوعية ، مما افقـــد بعض الصور شيئا من مميزاتها الفنية ؛ فبدت « تجـريدية » خالية من اية لمسة عاطفية ، جامدة مشلولة الحركة ومن ذلك المقالة المثبتـة في ص (٣٧) ، فهي لاتعدو كونها التحدث عن اشياء ـ كما عبر عنها ـ الكاتب نفسه ـ « قد تبدو تافهة » ، وقسم آخر من المقالات لايتعدى حدود التقرير . وكم كنت اود لو ان المؤلف الفاضل تريث قليلا قبل ان يدفع بكتابه الى المطبعة ، واعاد النظر فيـــه مرة اخرى ، لحذف عدداً من المقـالات التي لولاها لـكان الـكتاب تحفة فنية رائعة .

وهناك بعض الظواهر اراها تستوجب التنبيه اود ان اثبتها هنا ، وارجو الاخ المؤلف ان يتقبلها برحابة صدر معهودة منه :

١ – تكرار بعض العبارات في مجالات شتى من الكتاب ، من ذلك ماجاء في ص (٦٠) و (١٠٠) .. كما ان افكارا تكررت في اكثر من موضع في الكتاب .

٢ ـ جاء في ص (٤٣) قوله : « تعجبني العيون التي لالون لها ... العيون التي هي بلون عيونك . » ولما كان الكلام موجه الى شخص مخاطب ، فان الاصح هو « .. العيون التي هي بلون عينيك » .. وقد تكررت نفس الكلمة في الصفحة التالية ، وفي صفحات اخر .. واذا كان الكاتب قصد التغليب في هذه الكلمة ، فما وجهة « التغليب » والشخص لايملك سوى عينين؟

٣ – جاء في ص (٧٦) قوله : « ...وكانت وجهتنا الى شارع أبي نؤاس » والصحيح هو « ... أبي نواس » بدون همزة على الواو ، مع ضم النون وتخفيف حركة « الواو » كما ورد في عدد من المعاجم ، وفي شعره أيضاً ..ولست ادري كيف فات الأمر على الأخ المؤلف ؟!.

٤ – في مجالات شتى من الكتاب نرى المؤلف ينتقل من اسلوبه التصويري الموحي الذي توشحه سبحات الخيال ، وتضفي العاطفة عليه شيئاً من لمساتها ، نراه ينتقل الى اسلوب البحث المجرد ، من ذلك ما جاء في ص (٩٢) : « الأدب - يا حبيبتي – قبل كل شيء شعور مرهف .. وهذا ما لا تربطه بصناعة او حرفة رابطة ما ، وذلك لأن الحرف والصناعات يسلكها من يشاء ولكن الأدب لا يستطيع كتابته الا من حازوا على شرف الموهبة (١) . » فلو حذفنا من هذا الكلام كلمة « حبيبتي » لظن من يقرؤه انه جزء

(١) انا اخالف المؤلف في رأيه هذا ، حيث يذكر ان الادب لايستطيع كتابته الا من حازوا على شرف الموهبة .. فانه لايستطيع ان يحدد مثل هذا التحديد ؛ ويترك الامر محض ابهام ... فالشعر والنقد يتطلبان موهبة يجب توافرها في شخص الشاعر او الناقد . . اما الكتابة والتأليف وغيرهما من الفنون الادبية الاخرى ، فهي لا تتطلب موهبة اكثر من تطلبها الى العقل ، وقد يستطيع تنميتها من شاء بالقراءة والدرس والتتبع المتواصل .

من بحث في موضوع الأدب ، وليس قطعة من رسالة الى « حبيبة » !! .. وعلى هذه الشاكلة نرى في عدة صفحات من الكتاب ان المؤلف ينتقل الى أسلوب البحث المجرد ، ويهرب بعيداً عن موضوعه الأم .

٥ – الانتقال المفاجيء في الموضوع الواحد هو ما نعيب المؤلف عليه ، اذ أنه في هذا المجال يكتب رسائل فنية ليقرأها جمهور ، لا رسائل خاصة يقرؤها من تعنيه الرسالة .. فهو يمضي في الحديث عن شيء ، وفجأة ينقلنا الى موضوع آخر ، وهذا الأمر من العوامل الأساسية في تشويش جو المقالة ، وبالتالي فهو يترك في القاريء اثراً غير حسن .

٦ – مبدأ الذاتية كثيراً ما يبدو واضحاً في بعض المقالات ، وكثيراً ما يعقد الكاتب بنفسه فيسطر اشياء قد لا تبدو مهمة بالنسبة للقاريء كحديثه عن شعره في أكثر من مجال .. وكم كنت اود لو ان الأخ المؤلف حاول ان ينأى عن مثل ذلك بعيداً ، لكي لا يقحم الحوادث ضمن اطار من « الانطلاق الذاتي » ، ولو فعل لكانت الصور ابدع مما هي عليه ...

٧ – بقيت ملاحظة أخيرة لا بد من التنويه بها .. فالذي يقرأ المقالة الأولى في الكتاب ، وهي احدث المقالات ، يلاحظ ان الكاتب قد احرز تطوراً كبيراً في ميداني الفكرة والاسلوب اذ ان عناصر القوة والابداع قد توافرت فيها من خيال خصب ، الى اسلوب رفيع ، وتأثر شديد بالنزعة الرومانسية التي بدت بأجلى صورها في هذه القطعة ... ولو ان فيها نوعاً من الخيال البعيد عن الواقع ، الا انها جيلة اجل ما قرأت في الكتاب من مقالات :



مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخـــارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

مجمع الآداب في معجم الالقاب :

الجزء الرابع من القسم الثاني . لتلخيص كتاب « مجمع الآداب في معجم الالقاب » وقد حققه الدكتور مصطفى جواد . وهو في سلسلة «احياء التراث القديم» التي تقدمها وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق .

وهذا الكتاب يؤرخ حياة اعلام العرب منذ فجر التاريخ . وذلك حسب تسلسل ظهورهم . وقد اعتمد في الحديث عنهم الاحرف الابجدية . والكتاب مطبوع طباعة أنيقة ويقع هذا الجزء في ٧٨٣ صفحة من القطع الكبير كان الجزء الاول في ٦٤٧ صفحة . ويباع بست ليرات سورية .

ادب المغتربين — تأليف الياس قنصل:

في سلسلة الثقافة الشعبية التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بسورية صدر كتاب « ادب المغتربين » من تأليف الياس قنصل .

وقد حاول الاستاذ قنصل ان يرصد حركة الفكر لدى اخواننا المغتربين ، فقسم الكتاب الى عدة فصول فتحدث في القسم الاول عن المغتربين الاوائل .. ثم عن صحافة المغتربين ، فالرابطة القلمية والعصبة الاندلسية فالرابطة الادبية، وأرخ ادب الشمال فأدب الجنوب . وأشار الكاتب في فصل « في سبيل العيش » الى ما عاناه المغتربون في أول رحيلهم .. وبعد أن اطمأنوا الى حياتهم الجديدة تذكروا الصور الزاهية الحلوة في وطنهم فتغنوا بها ومنحوها حنينهم الطيب الزاخر بالقومية والاعتزاز ، وتحدث بعد ذلك عن ادب الشمال وادب الجنوب ودافع عنهما واكد اصالتها . ثم تساءل اخيراً عن ادب المغتربين فقال : ان ادب المغتربين هو أدب خالد لايمكن للدهر ان يمحوه كما محا كثيراً من الاداب التي لم تتمكن من أن تجاري الحياة . ولا أن تقلل من شأنه كما فعلت بعض انواع الادب التي اتخذت لنفسها اسماء ومدارس لانها اعلى من أي مدرسة رمزية أو واقعية . فمدرسته هي الحياة .

تاريخ معرة النعمان

« تاريخ معرة النعمان » الكتاب الرابع في سلسلة بلادنا التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي . وهو من تأليف محمد سليم الجندي وهذا

هو الجزء الاول منه : ويضم الكتاب بين جانبيه ابحاثا متعددة ومتنوعة . ويمكن ايجازها بما يأتي: تعريف معنى المعرة اللغوي والعرفي ، ذكر المعرة في شعر ابنائها وفي نثرهم ، المعرة في القديم ، المعرة بعد جلاء الترك عنها ، لغة المعرة ، وحياتها الدينية والاجتماعية ، خصائص المعريين ، سورية والفرنسيون ، طول المعرة وعرضها وارتفاعها عن سطح البحر والطرق المارة بها ، عدد نفوس المدينة وما الحق بها . حكومة المعرة ومقرها ، المكاتب والمدارس والزوايا والمساجد في المعرة ، بناء ضريح أبي العلاء الجديد والمهرجان الألفي لأبي العلاء . الخانات والحمامات والمقاهي والاسواق والدكاكين والدور والمساكن والمعاصر في المعرة المياه التي هي خارج المعرة ، أودية المعرة وتلالها القباب ومحلات المدينة واماكنها المشهورة ، الحصون بالمعرة وضواحيها ، عاداتها في الوفاة والولادة والزواج وغير ذلك . وبيوت المعرة واسرها المعروفة في القديم والحديث واعلامها المشهورين من علماء وقراء ومحدثين وشعراء وكتاب وادباء وامراء ووزراء وعمال في الحكومة وتجار وغيرهم . ويقع الكتاب في ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير .

ديوان الامير عبد القادر الجزائري

هذا الكتاب اصدرته دار اليقظة العربية ، وقد شرحه وحققه الدكتور ممدوح حقي . ولعل سيرة الامير المناضل عبد القادر الجزائري من احفل سير الابطال في العصر الحديث بالتضحية والجهاد من اجل تحقيق المثل العليا المقدسة : الدين والحرية والكرامة ولقد قدمت له الامارة تقديماً وعرضت عليه عرضاً ودفعت له دفعاً ، وكانت الازمة على أشدها ، فقبلها مكرها بعد الحاح شديد وحمل امانة الحكم باخلاص فنظم أموره الداخلية بسرعة مذهلة وقضى على فوضى القبائل بحزم ، وقطع دابر اللصوص والشطار وقطاع الطريق والغزاة النهابين .. ونشر الامن حتى اطمأن الشعب لقيادته واستراح لادارته ، وخلق دولة لها كل الخصائص فتوجست منه فرنسا خيفة واصطدمت به وقامت حرب بينهما استمرت ستة عشر عاما . واستطاعت أخيراً ان تعتقله وتسجنه خمس سنوات . واخيرا ارتحل الى دمشق واتخذها وطنا جديدا له . ومات في دمشق ودفن فيها .

ويقول الدكتور حقي « تلك هي خلاصة سيرة الرجل اوجزتها من عشرات الكتب الفرنسية والعربية في اسطر قليلة لأعرضها في مقدمة ديوانه لمحة خاطفة تمهد لي السبيل الى بحث فنه شاعراً واديباً . والكشف عن شخصيته اميرا وعالماً .. وما اظنني موفيه حقه ، ولو كتبت عنه مجلدات . فعبد القادر ليس من الرجال العاديين بل هو مجموعة من قوى متدفقة ، لو فرقت في مئات من الرجال لاغنتهم بالحيوية والايمان والذكاء والالمعية .»

المسوحيات

الجزء الثالث من « المسوحيات » صدر للاستاذ جبران مسوح ، وهو مجموعة مقالات وآراء مختلفة وذكريات ، جاء في قول المؤلف تحت عنوان « رؤوس اقلام » : كتب منغولد عن السياسة

فقال : « مصيبة العالم اليوم ان صار فيه من السياسيين فوق الحاجة ، وأقل من الحاجة من الذين يشتغلون بغير السياسة » وهذا التفكير فيه خطأ فاضح يجب تصليحه في اذهان جميع الناس . هو من النوع المستتر المبرقع الذي يندر ان يأبه له احد من المفكرين .. والصحيح ان من واجب كل انسان ان يشتغل بالسياسة ، وان يشتغل بسياسة بلاده وسياسة العالم ليكون له رأي في سياسة بلاده ويكون لبلاده رأي في سياسة العالم .

وعلى هذا المنوال من الافكار امتلأت « المسوحيات » .

الملكة والمتمردون

مسرحية ايغوبتي ، ترجمتها السيدة ليلى صايا وقدمها وراجعها جورج سالم واصدرتها دار الشرق في حلب .

وقد عالج الكاتب الايطالي ايغوبتي هذه المسرحية بروح جديدة واسلوب جديد بلغ من النجاح شأوا عظيما .

ولد ايغوبتي عام ١٨٩٢ في بلدة « كاميرينو » وهي مدينة جامعية صغيرة في مقاطعة المارش ، وتوفي في روما في عام ١٩٥٣ وتطوع عام ١٩١٥ في الحرب العالمية الاولى وأسر في المانيا عام ١٩١٧ وفي معتقله بدأ حياته الادبية بنظم الشعر ، شأن بيرنديللو ، وحين عاد الى ايطاليا عين حاكماً في بارم ثم في روما .

كان بتي كما يصفه اصدقاؤه خجولا متواضعاً ، ضعيف الصوت صامتاً في اغلب الاحيان . وغدا في اعوام قليلة اكبر كاتب مسرحي في ايطاليا بعد بيرنديللو .

مثلت اول مسرحية له « المعلمة » سنة ١٩٢٧ فجذبت الانظار بما فيها من عنف عجيب ثم توالت آثاره القصصية التي تشمل عدداً كبيراً من القصص القصيرة ورواية واحدة وهي « هوت بيير » .

اما اشهر مسرحياته فهي : المقامر ، فساد في قصر العدل ، جزيرة المعز ، ايرين البريئة ، لاعبة ، الملكة والمتمردون وغيرها .

ان المرء ليشعر أمام آثاره بالصوفية الملتهبة ممتزجة بتأثير رومنطيقي جامح وروح شعرية شفافة تغلف آثاره بتوتر أخاذ وخيال واسع جامح .

وتقع هذه المسرحية في اربعة فصول . وتجري حوادثها في صالة كبرى لاهم مبنى عام في قرية تقوم على التلال وهذا المشهد لا يتغير طوال المسرحية .

المعتمد — تأليف نديم المرعشلي —

اصدار دار الكاتب العربي في بيروت

دراسة ادبية تاريخية تحيط بشخصية هذا الشاعر الملك من سائر وجوهها مع تبيان اثر البيئة الاندلسية في نتاجه ..

ويكفي دلالة على قيمة هذه الدراسة الادبية ان يقول فيها الاستاذ انيس المقدسي من رسالة وجهها المؤلف بعد قراءته الكتاب « .. وسرني ان ارى فيه محاولة موفقة لاحياء ذلك العهد في ديباجة مشرقة، ودرس مفيد وان تسلك ما نظمه

ذلك الملك الشاعر الرقيق بعقد دراسة تتسم بالطابع الموضوعي والاداء الذاتي الاصيلين .

وقد اعجبني مقابلتك لشعره في الاسر بشعر ابي فراس وكلاهما فارسان في هـــذا الميدان فجمعت في كتابك التاريخ والادب وقرنت بين الطرافة والفائدة . والحق يقال اني استمتعت بقراءته . .

مجموعة كتب

اهدانا مكتب المعلومات الاميركي مجموعة من الكتب المترجمة الى العربية ، وهي كتب قيمة في الرواية والبحث والعلم ، وسوف نستعرض بعض هذه الكتب في اعدادنا القادمة .

البلطة ـ رواية لميخائيل سادوفيانو

البلطة رواية اصدرتها سلسلة الفن الحـــديث العالمي للكاتب الروماني الكبير ميخائيل سادوفيانو وقام بترجمتها الى العربية صلاح دهني وقد ظهرت هذه الرواية عام ١٩٣٠ ، اذ كانت رومانيا ماتزال تحيا في ظل النظام الملكي . والاقطاع باسط سلطانه في الريف . . وتجدنا منذ البداءة امام حال عصيبة . فالراعي نيكفور ليبان قد راح يشتري جملة خراف من قرية بعيدة ، ولم يعد . ويثير غيابه المتطاول شكوك زوجته : فيتوريا . ترى اين ذهب نيكفور ؟ اهـــو في احضان غريبة ، ام تراه قضى تحت ضربات جماعة من الاشرار طمعوا فيما يحمل من مال ؟ هكذا تشد الرحال مع ابن لها شاب ، وتذهب للبحث عن الزوج الغائب . فنراها تتابع الطريق ذاتها التي اتخذها زوجها ، سائلة مستقصية في هـــدوء واناة وفي غير اثارة للآخرين الى ان تكتشف مصير الغائب التعس .

ان فيتوريا ، المرأة والام التي نكبت في اعز ماتملك ثم تمكنت بتصميمها من الوصول الى الكشف عن جريمة معقدة ارتكبت قبل شهور عدة لتمثل لقاء رائعا وسعيداً بين فحولة الرجل وذكائه مع صبر الانثى ودقتها وغريزتها .

ان هذه المرأة النشيطة لاتشكى ولاتبكي قط ولايدفعها موت زوجها الى اليأس ، ثم ان سادوفيانو يضفي على النزاع خاتمة تتسم بالتفاؤل. ففيتوريا مملوءة قوة وحيوية ، بعد ان لاحقت آثار زوجها وجدتها ، واقامت على روحـــه القداس التقليدي وكشفت العدالة الانسانية عن هوية القتلة .

ولقـد ارتفعت فوق مأساتها ، ولم تلبث مهيضة الجناح امام اية عقبة كأداء او موقف حرج. فما ان تفرغ من مراسم الموت ، حتى نراها تعود الى بيتها وشؤون قطعانها وعائلتها . ونرى الحياة تعود فتأخذ مجراها ، انها تحمل على كتفيها عبء الدار والمزرعة ولا تتكسر امام قدرها بل تكافح في عزيمة .

وبذا تسمو رواية البلطة الى منزلة الكتاب الفلسفي اذ يبرز الشعور بالمسؤولية لدى الفرد الانساني ويصور الفرحة المرافقة لاكتشاف الحقيقة ، حتى عندما تكون الحقيقة مقرونة بالتضحية .

نوارد خواطر ام تناقل افكار ؟؟.

النسيب في مقدمة القصيدة الجاهلية ..

حول مقال للدكتور عز الدين اسماعيل

بقلم ابو سلمى

لايزال الشعر العربي في العصر الجاهلي موضع دراسة واهتمام من قبل النقاد والباحثين بالرغم من تقل الايام ، وذلك لجلاء غموضه وتوضيح سماته وبالنظر لأصالته وصدق تعبيره عن النفسية والبيئة الجاهليين .

وقد قرأت في العـــدد الثاني من مجلة « الشعر » الـتي يرأس تحريرهـا الدكتور عبد القادر القط ، الصادر في شهر شباط ١٩٦٤ بحثاً طويـلاً للدكتور عز الدين اسماعيل موضوعه «النسيب في مقدمة القصيدة الجاهلية» يتصدى فيه لاهمية التعمق في هــذا الشعر الجاهلي وتحليله ، لا من الناحية البيانية ولكن من ناحيـة مضمونه الروحي والنفسي .

واختار الدكتور اسماعيل ظاهرة واحدة من الظواهر العديدة التي تحتاج الى الدراسة على هذا الاساس ، وهي ظاهرة مقدمة « النسيب » التي تفتتح بها القصائد الجاهلية .

وما ان انتهيت من قراءة هذا البحث الجديد حتى شعرت انه لم يكن جديداً علي ولاغريباً ، وبعد قليل ، تذكرت المحاضرة القيمة التي القاها المستشرق الالماني « فالتر براون » الاستاذ في جامعة برلين ، في المركز الثقافي بدمشق ، باللغة العربية والتي تدور حول : « الوجودية في الجاهلية » فعدت الى مجموعة «المعرفة» واذا بمحاضرة المستشرق الالماني منشورة في عدد حزيران ١٩٦٣ وقد قدمتها المجلة بهذه الكلمة (لبى المستشرق الالماني « فالتر براون » دعوة وزارة الثقافة

فالقى في المركز الثقافي بدمشق مساء العاشر من نيسان ١٩٦٣ محاضرة قيمة تدور حول الوجودية في الجاهلية وشعرها ويسر مجلة المعرفة ان تطلع جمهور قرائها عليها » .

قرأت محاضرة المستشرق الالماني ثانية ، وعدت الى قراءة موضوع الدكتور عز الدين اسماعيل فتعجبت ، كيف تكون الافكار متفقة الى هذا الحد ، وحتى يشاركني القارىء في الاستغراب والتساؤل ويساهم معي في الوصول الى جواب حاسم عن سؤالي : هل هنالك توارد خواطر ام تناقل افكار ؟! فانني ساعرض بعض الافكار والتعابير والاستشهادات المتشابهة ، في هذين الموضوعين .

قال المستشرق الالماني فالتر براون في محاضرته « مرادي ان اقدم بعض الملاحظات في الشعر الجاهلي ، والموضوع كما تعرفون ، بحر لا ساحل له ، مرادي ان احده مستلفتا نظركم الى صدد واحد وان اتكلم عن ذلك المطلع الذي يفتتح به الشاعر قصيدته وهو النسيب » .

وقال الدكتور عز الدين اسماعيل في مقاله : « ان الشعر الجاهلي يضع بين ايدينا مجموعة من الظواهر التي تحتاج الى الدراسة واني اختار للدراسة في هذا المقال ظاهرة واحدة منها هي ظاهرة مقدمة النسيب التي تفتتح بها القصائد . »

والمقالة والمحاضرة اعتمدتا معاً على نقد نظرية ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » القائل عن الشاعر الجاهلي : « ثم وصل بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق.. ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه وليستدعي اليه اصغاء الاسماع لان التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل .. »

قال المستشرق الالماني في محاضرته : « هذا هو تفسير ابن قتيبة ، النسيب من رأيه جزء القصيدة الذي يميل به الشاعر انتباه سامعيه ، ما اغرب هذا التفسير ! ! هل هذا الرأي قريب الاحتمال ؟! .. لا اظن .. »

وقال الدكتور عز الدين اسماعيل في مقالته « ونحن نذهب منذ البداية الى ان تفسير ابن قتيبة ليس صحيحا ، او هو – على الاقل – ليس كافيا . »

ثم يقول المستشرق : « يظهر لي ان تفسير ذلك العالم القديم غير محتمل ، وانه بعيد عن الشعراء القدماء ، وكيف لا ؟! فانه كرجل حضري يعيش في مجتمع متحضر بعيد عن البداوة غاية البعد ، في هذا المجتمع الحضري انشد ابو نواس يتهكم الابيات الشهيرة :

عاج الشقي على رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد

ويقول الدكتور : « ان الالتزام بهذا التقليد في مستهل القصيدة جعل هذه المقدمة مع مضي الزمن ممجوجاً ، ومن ثم كان من الطبيعي ان نجد شاعراً مثل ابي نواس يشعر بتفاهة هذا التقليد لتفاهة الغرض المطلوب منه الذي حدده ابن قتيبة فاذا به يهاجم هذا التقليد حيث يقول :

عاج الشقي على رسم يسائله
وعجت اسأل عن خمارة البلد ...

وكذلك يقول المستشرق الالماني « اعتقد ان موضوع النسيب الصميم هو الموضوع الذي حرك

الانسان في كل زمان وهو الموضوع الذي يسترجع فيه انسان اليوم وزنه واهميته وهذا الموضوع هو اختبار الفضاء والفناء والتناهي ..»

ويقول الدكتور عزالدين اسماعيل : « في الوقت الذي عد فيه ابن قتيبة هذا النسيب اداة فنية موجهة الى الخارج نرى على العكس ان هذا النسيب كان تعبيرا يجسم لنا ارتداد الشاعر الى نفسه وخلوه اليها ويعبر فيه عن موقفه من الحياة والكون من حوله فصورة الحياة بالنسبة للشاعر الجاهلي كانت تنطوي في نفسه على عناصر خفية ابرزها التناقض واللاتناهي والفناء . »

يقول المستشرق الالماني « براون » ... « اقدم لكم مايظهر لي بعدما درست الشعر الجاهلي دراسة متعلقة بالمسائل البارزة التي يسألها الفلاسفة والادباء في ايامنا هذه «اعني الوجوديين» ..

ويقول الدكتور اسماعيل عن شعراء الجاهلية الذين استهلوا قصائدهم بالنسيب « وانما هم صدروا في نسيبهم عن مشاعر صادقة كامنة في نفوسهم تمثل نوعاً من القلق الوجودي » .

يقول المستشرق الالماني : « ان لهذه المشاهد الفرحة دائماً ، جانباً آخر عند الشعراء القدماء ، اسمعوا مثلاً ماقال عمرو بن كلثوم في ابياته المعروفة :

وكأس قد شربت ببعلبك
واخرى من دمشق وقاصرينا

ان هذا البيت يصف جانباً واحداً فقط وهو يشير الى نصف الحقيقة فحسب ، ويلي هذا البيت ما يتم الحقيقة فالشاعر يقول :

وانا سوف تدركنا المنايا
مقدرة لنا ومقدرينا

هذا هو الجانب الآخر ، وهذا البيت الثاني يوضح الحقيقة التامة التي يشعر بها الشاعر ، ومن يقرأ اوصاف المشاهد الفرحة بتدقيق ، يدرك مايضايق الانسان ويقلق الشاعر اللطيف الحس من مخاوف الوجود ؟ من الذي ينكر ان كثيراً من الشعراء القدماء يتذكرون الايام السعيدة ويصفون ساعات اللهو والشرب ولكنهم يتكلمون بصرخة الألم فانهم يشعرون ، ان الفرح انتهى ؟ وان اللهو مضى ، ان الشباب فني ...

ويقول الدكتور عزالدين اسماعيل : « اننا ندرك خطأ أن الحياة والموت نقيضان ينفصل احدهما عن الآخر ولكن الشاعر الجاهلي كان صادق الحس حين ادرك ان هاتين الغريزتين تعملان على الدوام معاً ؛ تقف عند ابيات عمرو بن كلثوم في مستهل معلقته حيث يبرز لنا ذلك الموقف في وضوح وقوة يقول :

الا هبي بصحنك فاصبحينا
ولا تبقي خمور الاندرينا
وكأس قد شربت ببعلبك
واخرى من دمشق وقاصرينا
وانا سوف تدركنا المنايا
مقدرة لنا ومقدرينا

وهو يتحدث في هذه الابيات عن مجلس الشراب ومعابثته للقينة ثم يذكره هذا بمجالس الشراب الاخرى التي شرب فيها واستمتع بها من قبل في بعلبك وقاصرين ثم اذا به فجأة يحدثنا عن الموت الذي لابد أن يدركنا ، وهذا البيت الأخير يبدو لنا للوهلة الاولى أنه بعيد غاية البعد عن الاول الذي يصوره الشاعر وربما تسرعنا

فأصدرنا حكماً نقديا قاسيا ، لكننا حين نتأمل الموقف قليلاً فان ذلك البيت الاخير يبدو لنا اقرب من الناحية النفسية الى حديث الشاعر عن مجلس الشراب ، فشعور عمرو بن كلثوم بالعدم أو التخريب أو الموت لم يكن ينفصل في نفس الشاعر عن شعوره بالمتعة الراهنة .

يقول المستشرق الالماني : « اختبار الفضاء والفناء والتناهي ، هذا ما كان يشعر به شعراء العرب في الجاهلية وهذا الشعور معبر عنه في نسيب قصائدهم ولكن بعد ذلك في القرون التالية حينما خفف الايمان الجديد من خوف الانسان ، اصبح الناس لايدركون ماحرك القدماء وضايقهم وبعث فيهم الخوف وصاروا يفهمون مجرد المعنى اللفظي فقط .. »

ويقول الدكتور عز الدين اسماعيل : « كان من أبرز العناصر الخفية التي اصطدم بها التناقض واللاتناهي والفناء ، ومن أجل هذا وفي اطار هذا الاحساس لم يكن الشاعر ليشعر بأي اطمئنان ازاء الحياة ، فلم تكن هناك نظرية واضحة تفسر له هذه العناصر الحيوية المختلفة وتشبع في نفسه شيئاً من الراحة والطمأنينة كما حدث بعد ظهور الاسلام ، فالذي لاشك فيه ان الاسلام قد حل بالنسبة لمن تقوه ، كثيراً من هذه المشكلات الوجودية . »

هذه بعض الامثلة على الافكار المتشابهة والاستشهادات المتشاكلة في الموضوعين : ولم أرد من سردها ، اعلان رأيي في هذا الصدد ، ولكنني احببت أن الفت النظر الى هذين الموضوعين الممتعين والى وجوب قراءتهما قراءة دقيقة وعميقة لما فيهما من فائدة ومتعة وطرافة ، وحتى يشاركني القارىء في لذة البحث وفي اعطاء الجواب الحاسم عن سؤالي : « هل هناك توارد خواطر أم تناقل أفكار ؟ » .



حول حوار نعيمة والاشتر

رد الدكتور عبد الكريم الاشتر على السيدة وداد سكاكيني

قرأت الكلمة الصغيرة التي علقت بها السيدة وداد سكاكيني في عدد (آذار ١٩٦٤) من «المعرفة» على حديثي مع الاستاذ ميخائيل نعيمة، المنشور في العدد الذي سبقه (شباط ١٩٦٤). ويعنيني أن تتضح الحقائق التالية للقراء:

١ - أفدت من بعض هذا الحديث في دراستي النثر المهجري، فوقعت اشاراتي اليه في بعض حواشي الكتاب، في المواضع الـــتي استلزم الاشارة اليه فيها سياق البحث. ولكنها اشارات متفرقة متباعـــدة جداً لا يحكمها روح الحديث وانسافه، ولا تشف عن معانيه النفسية الكبيرة، ودلالاته الأدبية ووحدته.

على أني أعد انتفاعي من بعض الحديث في الدراسة شاهداً حياً عـــلى ما انكرته السيدة سكاكيني في قولها: «فلا يعد الحديث الخاص وثيقة مهما يكن هذا الحديث». ان الحديث الخاص وثيقة هامـــة لأنه يتهيأ له ان يصل الى حقائق لا تصل اليها الاحاديث العامة مكتوبة أو مسموعة، لانه قادر عـــلى ان يتسلل الى القراءة العميقة التي تحجبها المواضعات الاجتماعية القائمة عادة وملابسات الحياة العامة وتقاليدها. ولهذا سمى استاذنا الدكتور مندور أدب المهجر يوماً الأدب المهموس، يعني الادب الذي يشبه ان يكون همساً بـــين الصديق والصديق، لا يكذب فيه ولا يزخرف ولا يصطنع، لانه لا يسمعه أحد، وهذه التسمية الحانية المبكرة تدل على ان الدكتور مندور لمس أحدّ سمات هذا الادب، وهي كونه بثاً عميقاً خالصاً عن انفسهم المعذبة بالشوق والحنين والغربة.

فهذا الادب اذن - لصفته هذه - ينبغي ان تكون له حقائقه النفسية الخاصة، حقائقه الدفينة التي لا تستخلص الا بالبوح والشكاة والاسرار. وأؤكد للقارىء اني - وانا ادرس هـــذا الأدب خمس سنوات - لم انتفع من شيء في فهمه وفهم اعلامه انتفاعي بهذه الاحاديث الخاصة. فقد فتحت لي كوى كثيرة، وزودتني بحقائق كثيرة يعد ما قرأته السيدة سكاكيني منهـــا في دراستي وحديثي شيئاً ضئيلا، لو أتيح لها ان تعرف باقيه لازدادت نفسها جهامة ومرارة.

وقد اصبح الحديث الخاص ، في كل حال ، مصدراً اساسياً من مصادر الدراسات عـلى اختلافها . وتستطيع السيدة ان تقرأ اي كتاب في مناهج البحوث لتقع على كلام طويل في هذا الموضوع. وتستطيع ايضاً ان تعود الى الدراسات الغربية لترى كم انتفع الدارسون فيهم بحقائق استخلصوها من احاديثهم الخاصة . والشيء الذي اريد ان أقوله هنا — فيا يتصل بأدب المهجر — هو ان هذا المصدر الحي له قيمته البالغة ، لان الادب المهجري نشأ في ديار بعيـــدة لم تكتنفنا ملابسات الحياة الغربية فيها ، ولان من تبقى من أعلامه يتهاوون في كل يوم ، ولما ذكرت منذ قليل من صفات هذا الادب الانساني الأليف.

٢ — وكلمة (الوثيقة) التي انكرت عليّ السيدة تسمية الحديث بها ، ونقلت اليّ «مدلولها العلمي والموضوعي» كلمة دقيقة بهذا المعنى الذي أردت ، فعلى نحو مايكون (الاقرار) وثيقة في القانون ، يكون (البوح) وثيقة في الأدب ، وثيقة **لم تكتب** كما قلت : اي نقلت شفاها (وليس المعنى : انها لم تذكر من قبل ، كما فهمت السيدة) . فاذا ذكرنا ماقلت في الفقرة الاولى عن غرابة المحيط الذي نشأ فيه هـذا الأدب ، وصفاته الخاصة ، وانطواء رجاله ، ادركنا معنى هذه الكلمة .

فأما قول السيدة ان الوثيقة هي : « تسجيلات معاهدات ، **اتفاقية بين أناس مسؤولين عما جاء فيها** » فهذا في اللغة ، وبالمعنى الذي تريده : (الميثاق) لا (الوثيقة) . والفرق بينهما أبين من ان تجهله السيدة . والمعاجم تجاوره على كل حال .

ولا حاجة أن أقول : ان الحديث الذي تتوفر له صفة (الوثيقة) هو الحديث الموثق عن صاحبه الذي أدلى به — ومن هنا جاء لفظ (الوثيقة) — فهل تعتقد السيدة أني أرحل لحديث أسجله واعتمده في دراسة جامعية تخضع للمناقشة والفحص ، لا تتوفر له هذه الصفة ؟ أهو — كما قالت — : « حديث عابر » ؟

فأما ماضربت به المثل من « تبرم » الأستاذ المرحوم عبد المسيح حداد بما قلت في دراستي فلم يكن بما رويت عن لسانه في الحديث الذي أجريته معه ، بدليل أن هذا الحديث نشر في مجلة الكاتب القاهرية (العدد الرابع: تموز يوليو ١٩٦١) منذ ثلاث سنوات تقريباً ـ وكان عبد المسيح ما يزال حياً ـ وأرسلت نسخة منه اليه في نيويورك فنقله عبد المسيح ـ قبل ان يموت بالطبع ـ في كتابه الذي طبعته له وزارة الثقافة والارشاد عندنا (انطباعات مغترب في سورية) نقلاً احتفظ معه **بأقـواله** ، ولكنه لم ترضه اقوالي ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فلطف بعض الجمل ، وحذف أسماء بعض الأشخاص الذين ذكرهم في حديثه ، واضاف بعض الجمل على لساني ، ووضع في آخر الحديث جملة صحفية ساذجة ذات دلالة نفسية كبيرة .

فأما « تبرمه » فقد كان بآرائي فيه ، في الدراسة . لم يرضه ـ رحمه الله ـ اني اخرجته من الأدباء وجعلته في الصحافيين المجتهدين ، وأني سجلت عليه ـ مما كتب ـ الفاءه بعض موافقه

القومية التي وقفها في صدر حياته في المهجر والذي حدثني بهذا هو الاستاذ وديع فلسطين نفسه الذي روت عنه السيدة قولها المخالف .

٣ – ولم يكن يقوم في نفسي - وانا اسجل هذه الاحاديث - اني « استدرج » او « اورط » ولم يقم ذلك في نفس نعيمة على الاطلاق . ولكنه الاخلاص للحقيقة وحدها ، الاخلاص الذي لا يعبأ بما تسميه السيدة « القيم الادبية والاخلاقية التي عرفها الدارسون لأدباء المهجر » والاخلاص للرأي الأصيل الذي لا ينكر معه ان نختلف في النظرة الى « شاعرية ابي ماضي » .

وعجبي للسيدة ان اضطر ان اذكرها بحقائق في النفس احمد الله انا فرغنا اليوم من ادعاء غيرها لأنفسنا وادبائنا ، حتى لا تحجب عنا واقع النفس الانسانية التي تريد ان تفهمها لا ان تتعبدها ان رأي نعيمة في جبران هو رأي الانسان في الانسان ، رأي مسؤول واع مخلص ، عرفناه يوماً في السيرة الرائعة التي كتبها عن صديقه ، فحسر عنه فيها قناعاً عجيباً لم يصنعه جبران نفسه وانما قنعه به آخرون يهوون ان يظهروا متمسكين بالقيم الأدبية والأخلاقيه ولو ارتطمت بحقيقة انسانية صارخة يعرفها مخالطوه جميعاً . ان نعيمة اظهر الانسان البطل في صديقه وخلده فيه فاذا فعل الى اليوم متعبدو جبران ؟ هل احتاج ان اقول للسيدة : ان الاخلاق ان نخلص لأنفسنا ونحن فهمها ونصدق في خطابها لنحسن - من بعد - تطويعها للحق وترويضها عليه ، فلا تغلبنا احقادنا فتلبس علينا امورنا وآراءنا ؟ الم يخطر لها ان تنظر يوماً - في ضوء هذه الحقيقة البسيطة الى آراء نعيمة في صديقه الانسان ؟

٤ – وقد حرصت أن انقل الحديث لحماً ودماً ، وأوفر له ظروفه القائمة وجوه الصوفي الخاص ، وظلاله وملامحه كلهـــا ، حتى يكون تصويراً حياً لكل الخلجات الانسانية التي اختلجت فيه ، فتأتي الحقيقة حية حياتها التي ارادها لها صاحبها وهو يعبر عنها ، وحتى يجيء الحديث في مستوى القضايا الكبيرة الادبية والانسانية التي يعرضها . فهل أسأت بهذا الى حقائق الحديث ام أحسنت ؟ وهل يزري بالحديث ان يكون زحل عن قلبي وعقلي ، وان اكتبه وكأني ماأزال أحياه سمعاً وبصراً وحساً ؟

وهل يعز على الدارس أن يفيد من حقائق الحديث لهذا ؟

ما أظلم الانسان !

* * *

وبعد ، فهذا الذي يعنيني من تعليق السيدة سكاكيني على الحديث ، فأما الذي لايعنيني فهذه المرارة والجهامة اللتان تخالطـــان التعليق ، والغمز واللمز اللذان يشيمان فيه ، فهذه أشياء اعدها من شئون الخالق وحده .

الفنان

كمال محي الدين حسين

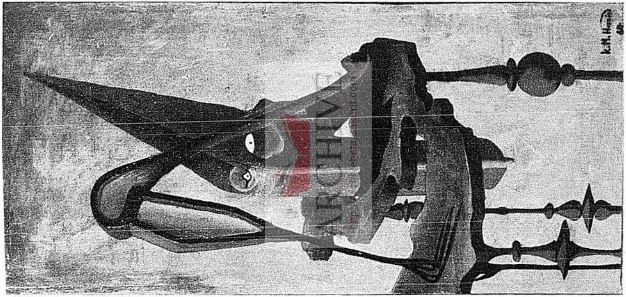
وهو فنان شاب ولد في طرطوس عام ١٩٤٣ ومازال طالبـاً في كلية العلوم في جامعة دمشق. اشترك الفنان حسين لاول مرة في معرض الخريف لعام ١٩٦٢ ولقد اثارت اعماله انتباه المحكمين. ومن الممكن اعتبار اسلوبه سريالياً.

اللوحة

اللوحة بالالوان الزيتية على قماش بقياس ٥٠×١٠٠ سم وهي معروضة حالياً في معرضه الخاص في صالة الفن الحديث.

وتمثل شخصاً جالساً بوقار فوق قطعة ارض خضراء انفلتت من الاراضي تتبعها مجموعة اعمدة مزخرفة حمراء. وعينا الراهب كمركزين في اللوحة يشعران بوجود حياة باطنية صافية وظاهر الشكل يوحي بالهدوء والدعة.

ويعتمد الفنان في تصوير اعماله وخاصة في هذه اللوحة على المبادىء السريالية واهمها (التحول الشكلي) القائم على تجديد الاشياء من فوارقها الزمنية.



الراهب ـ للفنان كمال الدين حسين

مجلة المعرفة ـ دمشق

- القضية الفلسطينية .. والثمن

المعرفة ـ الجزائر

- نحو اخلاق جديدة

الفكر ـ تونس

- حاجتنا الى ثورة ثقافية

دعوة الحق ـ المغرب

المعرفة ـ الجزائر

تحت عنوان « القضية .. والثمن » افتتحت مجلة « المعرفة » التي تصدرها وزارة الاوقاف في الجمهورية الجزائرية الشقيقة ، بحوثها ، فجاء فيه :

لعلنا لانجانب الصواب اذا قلنا ان العرب في هذه الايام مقبلون على امتحان جديد في مجابهة التحدي الذي يوجه اليهم من ألد اعدائهم وهي الصهيونية العالمية منذ كارثة فلسطين التي حلت بالعرب عام ١٩٤٨ وهذا التحدي الجديد يتمثل اليوم في عزم اسرائيل على تنفيذ مشروع تحويل مجرى نهر الاردن وتركيز اسباب بقائها في ارض العرب وتحويل وجودها المصطنع المفروض بالقوة الى وجود له ـ فضلا عن ذلك ـ اسسه الاقتصادية والبشرية حيث سيتيح لها هذا المشروع زيادة سكانها الى الضعف وتوسيع وجودها بشريا الى المناطق غير المعمورة .

وبعد ان تعدد المجلة الاسباب التي ادت الى كارثة فلسطين تصل في حديثها الى مؤتمر القاهرة الاخير فتقول : وامام مؤتمر القمة العربي طريقان لاثالث لهما : اولهما اتخاذ موقف عربي عسكري موحد لمنع لقيطة العدوان من تحويل مجرى نهر الاردن بالقوة .. ثم وضع خطة عربية جديدة بعيدة المدى لاستغلال مياه نهر الاردن وروافده بين الدول المجاورة للنهر . وثانيهما : ابراز الكيان الفلسطيني ووضعه موضع التنفيذ ، باعتباره الاداة الوحيدة لتنظيم الفلسطينيين وجعلهم طليعة القوى التي ستسترد فلسطين لانهم اصحاب القضية بالدرجة الاولى . وجعل هذه القضية فوق كل الاختلافات السياسية العارضة .

ومع ذلك .. فان القضية في حدودها البعيدة تبقى قضية الضمير العربي والكرامة العربية . والامر لايحتاج الى معجزات ، وانما يحتاج الى

تصميم عملي جديد وكثير من الايمان والاخلاق والشرف .

وتقول مجلة المعرفة في ختام افتتاحيتها : وان مؤتمر القمة العربي ، بصرف النظر عن قيمة القرارات التي سيتخذها لهو في حد ذاته بعث لقضية فلسطين على المستويين العربي والدولي ونأمل ان يكون مرحلة جديدة في معالجة القضية .

ولا ينبغي للساسة العرب ان يقعوا في الخديعة .. خديعة امكان اقناع دول الاستعمار الغربي صانعة اسرائيل بتغيير موقفها والتكفير عن خطيئتها في جريمتها التي ماتزال قائمة بفضل مساعدتها وصدقاتها، فضمير الغرب المجرم منطقي مع نفسه ويدرك الاسباب التي من اجلها اوجد اسرائيل .

ولكننا نحن العرب يجب ان تكون لنا قناعتنا الخاصة ، وهذه القناعة المطلوبة ، ليست القناعة النظرية ولكنها القناعة العازمة المصممة الهادفة . فالاستعمار الفرنسي في الجزائر ظل يصر على باطله طيلة ١٢٥ عاما ، ولم تجده فتيلا كل اساليب الاقناع السياسية ، ولكنه ارغم على الاقتناع بعد سبع سنوات ونصف من الجهاد الشاق المتواصل واتلاف جميع حججه وبراهينه ، واستسلم في النهاية للحل الذي لم يكن يرفضه فقط ، وانما كان يقتل ويشنق الداعين اليه ويدمر القرى فوق رؤوسهم .

وهذا هو المخرج الوحيد لاسترداد فلسطين، وعلى العرب ان يطرقوا بابه بكل أيديهم .

ومرة اخرى نقول : ان ابراز الكيان الفلسطيني ومنحه الفاعلية اللازمة لهو اول خطوة جدية في هذا السبيل لبعث الامل في اللاجئين الذين تأكل اجسادهم الخيام ويقتل معنوياتهم اليأس .

ان قضية فلسطين قد وضعت مصير الوحدة العربية في طريق مسدود وحددت ثمنها ، وليس هناك غير العرب من يدفع هذا الثمن .

الفكر - تونس

تحت عنوان « نحو اخلاق جديدة » نشرت مجلة الفكر التي تصدر في الجمهورية التونسية الشقيقة مقالا للدكتور عبد المجيد رزق الله قال فيه: مامن شك ان المجتمع الكريم المزدهر الذي نسعى لبنائه في كنف العدالة الاجتماعية والاشتراكية الدستورية لايقوم على اعمال الري وتخطيط الاقتصاد فحسب بل يقوم ايضا واساسياً على قاعدة اخلاقية متينة. فالاخلاق ضرورية للشعور بالكرامة وبعث عقلية التطور والتقدم والسعي الى عيش الرفاهية والازدهار واذا مافقدت في المجتمع حالت دون الغاية التي يسعى اليها ولذا وجب توضيحها وتركيزها حتى لايصيبه الوهن والتقهقر وحتى يواصل سيره الى الامام نحو الحضارة التي هي ميزة الانسان الاولى .

ان الاخلاق حصون وقيود يكونها ويضعها المجتمع لحماية كيانه ضد الانحرافات والاطماع . وكلما تطور المجتمع نحو الرقي وتطلب الافراد مستوى ارقى تقوى هذه الحصون والقيود وتشتد الحاجة اليها لتحول دون المبالغة في الطمع والجشع تلك المبالغة التي قد تؤدي الى الفوضى والتناحر والاشتباك .

ونحن في سبيلنا الى الرقي وتحقيق الاشتراكية في حاجـــة الى مزيد من الخلق وفي حاجة الى مزيد من الشعور بمسؤولياتنا وبما يعهد الينا من عمل .

ويتحدث الكاتب عن مسؤوليـات المواطن تجاه بلده وتجاه نفسه وايمانه ببناء وطنه باسلوب اشتراكي قوامه الاخلاق والاخلاص ثم يقول : يجب ان يتجه الفرد الى العمل بقصد العمل اكثر منه بقصد الاثراء باعتبار العمل وظيفة اجتماعيـة قبل كل شيء ، وسوف يتحقق ذلك اذا كان الجزاء على قدر العمل .

ومما هو اهم وأوكد من ذلك كله اذ عليه يتوقف بناء المجتمع الافضل الذي نريده الاستجابة لصوت الضمير المهني والضمير الاخلاقي والايمان بالاشتراكية على جانب الكفاءة الصناعية . على ان نداء الضمير هذا يجب ان لاتكون الاستجابة اليه بنوازع الخوف من الآخرة ورغبة فيما فحسب بل طلبا لراحة الضمير نفسه وشعوراً بالكرامة والشرف اللذين يفرضان العمل الكامل .

دعوة الحق ــ المغرب

تصدر هذه المجلة وزارة الاوقاف في المملكة المغربية الشقيقـــة ويشرف على تحريرهـــا احمد السطاتي ، وقد جاء أحد ابحاثها المنشور في العدد الاخير تحت عنوان « حاجتنـــا الى ثورة ثقافية » للاستاذ عباس الجراري الذي تحدث فيه عن حاجة العرب الى ثورة ثقافيـــة فقال : مخطئون في تصورهم للثقافة وضرورتها ودورها في بناء الافراد والجماعات اولئك الذين يحاولون ابعاد المجال الثقافي عن غيره من مجالات الحياة ، واكثر هؤلاء خطأ اولئك الذين يتوهمون ان نهضتنا الحالية في حاجة الى تطوير اقتصادي فقط ، وانه لاداعي لتبديد طاقة فردية او اجتماعيـــة في احد ميادين الثقافة والفكر ، ويزعمون اننا لن نساير الركب الحضاري مالم نركز جهودنا ونجند طاقاتنا وامكانياتنا للنهوض بالميدان الصناعي الذي هو وحده الكفيل بتحقيق التقدم والرقي . ويستنتجون من زعمهم هذا ان العلوم الجديرة بالبحث والدرس هي العلوم التطبيقيـة التي تعنى بالصناعة ومقتضياتها ، وان العلوم النظرية ليست غير ثرثرة وهراء ووسيلة للتسليـــة في اوقات الفراغ ، ولسنا ننكر أهمية العلوم التطبيقيـــة او العلمية فهي ضرورية لبناء الحضارة وازدهارها ولكنا ننكر القول بالغاء العلوم الاخرى وعدم الاعتراف بأهميتها ، اذ ما من شك في انها لازمة بدورها وانه لن يتحقق أي لون من الوان التقدم الانساني مالم يتفاعل هذان النوعان من العلوم .

فالنهضة لابد ان تكون شاملة ، وان تقوم في مختلف مجالاتها على وسائل ومناهج اساسها البحث العلمي والتخطيط المدروس بناء على تفكير طويل وتجارب حية وايمان بالعلم وقدراته . وبدون هذا التصميم لن تقوم اية نهضة او حركة ، بل لن تكون المحاولات المبذولة غير خبط وارتجـــال وتشتيت للجهود وتبديد للطاقات دون اي هدف او جدوى . وقد توضع مشروعات وترصد مبالغ ولكنها سرعان ماتفشل وتموت مالم تكن قـــد رسمت لها خطة علمية تسير عليها ، وقد حددت معالمها واهدافها .

واذن فالثورة الثقافية تحتاج الى تخطيط ، والتخطيط يحتاج الى دراسة تبحث في اصول هذه الثقافة ومأألم بها من تطور وتغير لمعرفة المراحل التاريخية التي مرت بها والتأثيرات التي خضعت لها والتفاعلات التي حدثت لها مع غيرها من ثقافات الامم والشعوب والخصائص التي تميزها عنها ومالى ذلك مما تتطلبه هذه الدراسة التي نرجو ان نوفق الى تناولها في جملة بحوث قادمة .

ويؤكد الكاتب في مجال بحثه هذا ان التخطيط الثقافي يقتضي منا ان نبحث نقطتين اساسيتين هما تعميم الثقافة ثم توحيد الثقافة ، ثم يختم بحثه بوضع خطوط لتحقيق الثورة الثقافية .

١ — ان نجاح الثورة رهن بتخطيط الناهج والاهداف .

٢ — ان هذا التخطيط يحتاج الى دراسة تاريخية للبحث في اصول ثقافتنا .

٣ — انه يجب تعميم الثقافة وتوحيدها

٤ — ان على الدولة ان تجند مختلف اجهزتها في معركة التوعية والتثقيف .

٥ — ان المثقفين جنود في هذه المعركة

٦ — ان الثقافة تعبير عن الجماهير وتوجيه لها

٧ — اننا امة لها تاريخ وحضارة وتراث

٨ — اننا امة لها مبادىء وقيم ومقدسات

٩ — اننا لن نقبل لانفسنا ان نعيش في عزلة

١٠ — اننا لن نقبل اي تسلل من شأنه ان يمحو معالم شخصيتنا ويرمي بنا في احضان الغير.



مسرحية هواية الحيوانات الزجاجية [1]

- هواية الحيوانات الزجاجية كانت رائعة الاخراج والتمثيل .
- المترجم يجب ان يتحمل مسؤولية نجاح النص أو فشله .

بقلم : نزار مؤيد العظم



عمر قنوع ـ فطمة الزين ـ سليم صبري ـ ثناء دبسي

مشهد من مسرحية « هواية الحيوانات الزجاجية »

(١) قدمتها فرقة المسرح القومي على مسرح ابي خليل القباني في شهر شباط الماضي .

هواية الحيوانات الزجاجية في موضوعها ، تصوير دقيق لواقع حياة سكان الولايات الجنوبية الامريكية ، تبرز أحاسيس الهزيمة التي يعانيها الجنوب ، في الصراع الذي كتب للشماليين ان ينتصروا فيه ، وفوق هذا فانها تعبير ناجح عن شاعرية اهل الجنوب المصدومة بمادية الشمال وسطحيته ، فتنيسي وليامز ، مؤلف المسرحية رجل جنوبي ، طبعته بيئته الجنوبية بطابعها المميز ، واحداث المسرحية ومشاعرها ومأساتها هي احداث ومشاعر ومأساة تنيسي وليامز نفسه واسرته ، ان شخصية « توم » هي تجسيد لشخصية تنيسي وليامز ، فهذا الشاعر الكاتب كان صانع احذية عانى تجربة قاسية في عمله وبيته ، ارثها سلوك والده الهروبي ، ذلك الرجل الفني اللامبالي الذي ترك زوجه وولديه ، وفر الى مكان مجهول ، وشخصية « آماندا » الام هي تجسيد لشخصية والدة تنيسي وليامز . . . المرأة المرهقة نفسيا ، الخائبة في نيل السعادة ، المرزوءة بزوج احمق لامسؤول ، وبولد ضائع نفسيا وبنت عرجاء يتهددها كابوس العنوسة ، ويعصف الانطواء في ذاتها ، ويلجمها الخجل ، فتراها تفشل في مدرستها وتفر منها ، لتتوحد في الدار ، وتسقط الاحيائية على تماثيل من الزجاج لحيوانات مختلفة ، يتزعمها تمثال لوحيد القرن ، أثير عندها ، لأنه يمثل وحدتها في عالم لاتحس بأية صلة تربطها به ، انها لورا ، الشخصية التي تجسد شخصية اخت تنيسي ، التي مازالت تحيا ، في مستشفى للمجانين حتى الآن. اما « جيم » فهو انسان من طراز آخر ، يمثل واقعية اهل الشمال وسطحيتهم ، وهو رياضي ، يمضغ اللبان ، وتلاحقه الفتيات ، يدخل في حياة الاسرة دخولا سريعاً ، ليحدث فيها التداعي ولينهي بتحطيم قرن وحيد القرن عقدة لورا ، لكنه يفشل في انقاذها ، ويتركها تواجه مصيرها المؤلم ، فيما يكون أخوها توم ، قد نهج منهج ابيه ففر الى مكان بعيد ، لكنه ظل مجذوبا الى اسرته ، يشده اليها حبه لأخته ، ونراه في خاتمة المسرحية ، يناديها عبر المسافات البعيدة متوسلا : « اطفئي شموعك يالورا » ، وفي قوله هذا رمزية الى مايكابده من عذاب وتبكيت ضمير ، بسبب تخليه عن اخته وامه ، وتعبير عن رغبته في طرد طيفها من مخيلته .

هذه المسرحية اذن ، تعرض نماذج انسانية متباينة ، وتستعمل الرمز لتعبر به عن مأساة جوش المبسي النفسية والاجتماعية ، ونرى تنيسي وليامز يظهر على هامشها ليقوم بدور الراوية ، الذي يحكي لنا مقاطع من مأساته ومأساة أسرته ، يريد بذلك ابراز دعوته الى التمرد على وضع البيئة الامريكية في فترة الحرب الكونية الثانية واستنكاره لها ، وقد استطاع أن يقدم لنا خمسة نماذج ، أربعة منها كانت تتحرك على المسرح ، أما الخامسة فهي صورة معلقة على الجدار تمثل الوالد الفار ببسمته البلهاء وسخريته ولا مبالاته وتفاهته . وهذه النماذج باستثناء شخصية جيم ، تلتقي لقاء هشا ، وتتعايش معا في بيت تتهدده احتمالات تفتته في أية لحظة ، لانها نماذج لاشخاص هروبيين .

والمسرحية من حيث الاخراج ، كانت ناجحة الى حد بعيد ، وقد دلل المخرج السيد خضر شعار

على فهم عميق لرامي تنيسي وليامز ورمزيته ، كما نجح في اختيار الديكور ، فجاء بسيطاً منسجماً مع رمزية المسرحية ، وقد استعمل اللون الاسود لجدران البيت ليركز انتباه الجمهور على الشخصيات الانسانية ، كما نجح في الاضاءة التي أرادها وليامز فساهمت في هذا التركيز ، وكانت تؤدي دورها كعامل أساسي وكعنصر من عناصر المسرحية لاغنى عنه .. واستطاع بها ان يخلق الجو الذي اراده تنيسي ويليامز نفسه .. كما نجح ايضـــا في اختيار الثياب لابطال المسرحية ، فكانت غاية في البساطة ، لتسهم في تركيز انتبـاه الجمهور على المحتويات الانسانية المتسربلة بها .

قامت الآنسة فاطمة الزين بدور الأم آماندا فسجلت فيه نجاحا تهنأ عليه ، واني اكبر فيها قدرتها على الحفظ ، لضخامة دورها وطوله ، كما أقدر لها كفاءتها الفنية الـتي استطاعت ان تبرز وتحيي دور الأم المزعجة الثرثارة الخائبـة في حياتها المصرة على ان تجتر ذكريات صباها الآفل ، كردة فعل لفشلها في المحافظة على زوجها ، والتي تكتم في صدرها اشياء كثيرة ، لتتظاهر بأشياء اخرى ، والساعية لتأمين زوج لابنتها العرجاء ، والاحتفاظ بابنها الذي تلاحقه وتخاف عليـــه وترهقه بنصائحها وملاحظاتهـا ، ولقد كانت رائعة جدا في الفصل الاخير حين ظهرت بثوب خبأته آماندا من صباها ، لتضفي به على حفـلة استقبـالها لجيم مظهر الثراء المفقود ، كما كانت مجيدة في اظهار خيبة الامل التي عانتها آماندا حين ظهر لها ان جيم لن يتزوج ابنتها لأن له خطيبة يحبها .

وقامت الآنسة ثناء دبسي بدور « لورا » - فكانت مبدعة مجيدة ، ونجحت في احياء مأساة - الفتاة العرجاء الخجول التعسة المنطوية على نفسها - التي اسقطت الحياة على حيواناتها الزجاجيـــة وعاشرتها بصورة تعوضها عن الصلة المباشرة مع المخلوقات السوية ، وكلمة حق اقولها .. ان - ثناء دبسي فنانة ذات اصالة ، وهي تفهم طبيعة - الدور الذي يسند اليهـــا وتحياه على المسرح وكفاءتها الفنية تؤهلها لمستقبل مجيد نرجوه لها .

اما دور توم ، فقام به السيد سليم صبري ، الشاب الموهوب الهـادىء ، كذلك قام ايضاً بدور الراوية تنيسي وليامز ، كدليل لابد منه - على ارتباط شخصية توم بشخصية المؤلف نفسه وقد استطاع ان ينتزع تقدير الجمهور ويستثيره . ويجذبه اليه طوال ظهوره ، على اني انصحه بالعناية - بحفظ كلمات الدور الذي يسند اليه وضبطها نحويا ، كي يتجنب ما وقـع به في دور توم ، وليس ذلك بالعسير عليه .

بقي دور « جيم » الذي لعبه السيد عمر قنوع . الفنان الكوميدي المعروف عند نظارة التلفزيون العربي السوري . والحق اقول ان المخرج لم يوفق في اختياره لدور جيم ، لأن هذا الدور يحتاج لشخص تبرز فيه اوصاف الرياضي لاعب الباسكتبول صاحب الامجاد الرياضية ، الملاحق من الفتيـات الامريكيات ، العملي الواقعي ، المقبل على دار صديقه توم ليقوم بعملية انقاذ نفسية للورا البائسة - وليزيل عقدتها .. وهذه صفات لم تتوفر في شخصية السيد قنوع مع الاسف ، ولا اقول هذا انتقاصا

←

من الاعماق ، أو الحضيض[1]

تأليف مكسيم جوركي
اخراج شريف خزندار

عرض وتحليل : عدنان بن ذريل

من الاعماق،او الحضيض ، مسرحية اجتماعية، انتقادية ، هادفة ، للكاتب الشهير ـ مكسيم غوركي ـ ؛وهي ترجع الى عام ١٩٠٢ ، وتصور قطاعات واقعية من المجتمع الروسي ، المكدود ، والمتطلع الى الثورة آنئذ ؛ وقد مثلت في العام نفسه،في ـ مسرح الفن ـ في موسكو ، باخراج السيد ستانسلافسكي ..

المسرحية واقعية ، من الحياة ، والمجتمع ؛ وقد حرصت على الخصوص على التفنيد الانساني لقضايا الناس ، ومواقفهم المختلفة في هذه القطاعات الواقعية؛ ورغم الجرأة ، والصراحة في اوصافها، وتحليلاتها؛ إلا أنها في الحقيقة لم تكن بلغت مرحلة الادب الثوري ، الاشتراكي ، النضالي ، الذي تميز به ادب ـــ مكسيم غوركي ـــ بعد الثورة البلشفية الروسية ؛ ولذلك لم تتعد حدود التقرير، والتفنيد ؛ كما ظلت النماذج التي تصف خافتـــة الاحتجاج الفردي ..

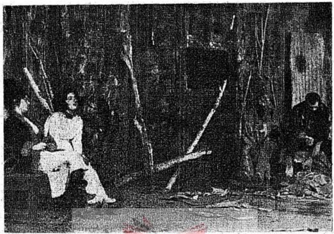
انها في الاساس سردية ، وصفية ؛ الا ان ميزتها انسانيتها،وذهنيتها ؛ وتسرد خبر قتل شاب متعطل ، دفعه المجتمع الى امتهان السرقة ، هو (بيـل) ـ هاني الروماني ـ لصاحب خان ، بخيل ، وفظ ، هو (كوستيليف) ـــ رياض النحاس ـــ ؛وذلك بتحريض من زوجة كوستيليف (فاسيليسا) ـــ جانيت عويشق ـــ ؛ وتكون تحب بيل ، الا انه لايحبها ، في حين هو يحب

→

من مقدرة السيد قنوع الفنية ، لكنني اعني ان شخصية جيم غير مناسبة له .

والغـــائب الحاضر ، واعني به صورة الوالد الانهزامي ، المعلقة على احد جدران المنزل، كانت ناجحة جدا ، في تعابيرها وبسمتهـــا العريضة الغبية ، والفضل في اختيـــارها يرجع للمخرج بالدرجة الثانية ، لأنهـا تشبه الى حد بعيد الصورة التي ظهرت على المسارح الامريكية التي قدمت مسرحية « هواية الحيوانات الزجاجية » والتي يبدو أن تنيسى وليامز هو الذي اختارها بنفسه.

(١) قدمتها فرقة الفنون الدرامية التابعة للتلفزيون على المسرح العسكري في اواخر شباط الماضي .



شريف خزندار ، البارون وياسر ابو جبين ، لوكا ، وعصام عبجي ، بونبوف ، ومها صالح ناستيا وثراء دبسي ، ناتاشا في مشهد من الحضيض

أختها (ناتاشا) — ثراء دبسي — ؛ وتستمر سهرات الحضيض في الخان ، وأسمارهم ، اثر ذلك في حين يلقى القبض على (بيل) ؛ وتفر (ناتاشا) ، وينتحر الممثل السكير — يوسف حنا — ؛ في حين يهرع آخرون ، سعياً وراء الخير ، والاصلاح ؛ مثل (لوكا) — ياسر ابو الجبين — او وراء تحسين احوال معيشتهم (كليش) — داهي مورملي ، ويتكامل السرد ، مع التحليل ، والتفنيد ، في المسرحية ، لرسم القطاعات الاجتماعية ، والنفسية ، لهذا الحضيض ، وشخصياته ؛ والذي نجد فيه ايضا البارون المنهار ، المتسكع — شريف خزندار — والشابة (ناستيا) صديقته ، (مها صالح) ؛ و (أنا) — لينا باتع — زوجة العامل الكادح (كليش) التي تموت مسلولة ؛ و (ساتين) — سليم كلاس — الممثل السجين سابقا ؛ و (أليوشكا) — اسامة الروماني — الموسيقي المتشرد ؛ و (بوبنوف — عصام عبجي) التاجر الفاشل ؛ و (كفاشينا) — منى واصف — الأرملة الجميلة ، التي تنتهي ان تتزوج من الشرطي (ميد فيديف) — عبد القادر مارتيني — ؛ والتتري — عاصم ميرور — نزيل الخان ؛ و — غريغوري — نابغة شيب ، نزيل الخان ايضاً ..

أخرج المسرحية — شريف خزندار — ، الذي قام فيها بدور (البارون) المتسكع ، فدلل على تفهم للنص ، سرده ، وذهنيته .. والاخراج بسيط ، وواقعـي ، في الحركة ، والاداء على

السواء ، استطاع أن يوصل مضمون المسرحيـة بنجاح الى الجمهور .. وقد استطاعت البساطةفيه على الخصوص ، أن تكشف عن خبـــايا قضايا هؤلاء الاناسي المعذبين ، المكدودين ، ومواقفهم وهسياتهم .

ألا أن الذي لفت النظر في المسرحيـة ، هو التطرف الظاهر في ايحاء الفقر ، بواسطة الثياب المهلهلة ، أو الديكور ، والاثاثات العتيقة والتالفة والتي كان يجب تعقيلها . أكثر .. واذا كان من الممكن التساهل قليلا في امر الثياب المتفاوتة فيا بينها ، والتي هي لعناصر مختلفـــة ، الا ان الديكور ، والاثاث صعب التساهل في أمرهما ، اذ الخان ، لبورجوازي بخيـل ، ومهووس ، وكان يجب أن يعكسا شيئاً من الثراء عنده ، في حين هو بال ، تالف ؛ حتى أن دهان الحيطان كله ممحو ؛ وبعض الاثاث رفوف خشبيةمعقوفة بينها الصفائح المهترئة ، وغيرها .

التمثيل على العموم جيد ، لقد كان الممثلون مندمجين فيا بينهم ، في مواقفهم ، وحواراتهم .. و (الاندماج) فيا بينهم هو الظاهرة الفنية التي استطاعوا ان يحققوها ، دون تكلف ، اوتعسف وسط المواقف الصعبة ، والحوارات الدقيقة .

وقد تميز (بيل) ــ هاني الروماني ــ ، و (البارون) شريف خزندار ــ ، و(لوكا) ــ ياسر ابو الجبين ــ بأدائهم المعبر ، وتلاؤمه مع المواقف المختلفة ، في حين العناصر النسائيـة كانت على مستوى القضايا الاجتماعية ، والانسانية في ادوارها .

في حين أخذت على ــ يوسف حنـا ــ في دور الممثل المخمور ، المريض ، اهماله الحركة في كثير من المواقف الدقيقة ، الصعبـــة ، كما ان ــ عبد القادر مارتيني ــ ، و ــ عصام عبجي ــ يحتاجان الى مزيد من اتقان الاداء لدوريهما ، بينما الأدوار الاخرى جيدة ، ومرضية .

وتحيتنا لفرقة التلفزيون المسرحيـــة ، على انجازاتها الجلة ، والمتقنـــة ، في مضمار الفن المسرحي ، وعلى الخصوص على تنويعهـا في مسرحياتها ، واختيارها الاجود من المسرحين العربي ، والعالمي .

يقدمها
صلاح
الدهني

عندما يمسك كاتب المستقبل بالقلم ليجلو بعض الحقائق عن تاريخ السينما في هذا الجزء من الوطن العربي ، فسيقول مقالة صدق : بأن هذه الشهور التي نعيشها نحن الآن كانت اهم مرحلة في تاريخ قيام الصناعة السينمائية ، التي ستكون اذ ذاك مزدهرة شامخة البنيان في بلادنا او اني هكذا اتصورها في يومي الحاضر ،

ثمة جهود مخلصة — او لعلي اقول محمومة — في ايامنا هذه لوضع اسس سليمة قويمة لصناعة السينما . وقد بدأت هذه الجهود مسعاها منذ فترة طويلة ، على سنين عدة ، غير انها لم تثمر ثمرها وتعطي أكلها ، الا قبل شهور اربعة ، عندما وافقت رئاسة الدولة على مشروع احداث « مؤسسة عامة للسينما » تتولى باشراف الدولة ورعايتها ، عملية النهوض بالصناعة السينمائية وتتحمل واجب اقتراح الانظمة والقوانين في كل مايتعلق بفن السينما بجوانبه كلها : اقتصادية كانت ام ثقافية ام اجتماعية.

ومنذئذ ، اي منذ ١٢/١١/١٩٦٣ ، بدأت تلك الجهود القديمة تتخذ طابع التنفيذ العملي وتتجسد في سلسلة لاتنتهي من الانظمة الادارية والقانونية والمالية هي اساس العمل الانتاجي المقبل ، كما تتمثل في نثار كثيف من المكاتبات والاتصالات والاعلانات ، بعضها يتصل بداخل البلاد وبعضها الآخر يتصل بالخارج ، بغية تهيئة الخبرة الفنية اللازمة والتجهيزات والمعدات الضرورية التي تفتقر اليها بلادنا .

وقد كان يوم الاول من آذار رمزاً حياً للخطوة الجبارة التي خطتها السينما السورية . ويتمثل الرمز في « دائرة السينما » التي كانت تنهض في كنف وزارة الثقافة بانتاج عدد محدود من الافلام القصيرة كل عام ، قد انتقلت في ذلك اليوم من قبو مقبور تحت احد المباني في حي المزرعة ، الى مبنى جديد من اربعة طوابق هو منذ الان مبنى « المؤسسة العامة للسينما » .

ان هذا التوسع المفاجىء لهو مقياس للاهتمام الذي بدأ يوليه المسؤولون لفن السينما ، في القرن العشرين وتفهمهم الدور الخطير الذي يمكن ان يلعبه داخل مجتمعنا وعلى النطاق الدعائي العالمي .

وثمة مقياس آخر ، مادي ، مالي ، هذه المرة يصور الوعي الجديد الخلاق، فبعد ان كانت السينما الحكومية تحيا بستين الف ليرة سورية فقيرة كل عام ومنذ ان احدثت وزارة الثقافة فحسب ، اصبح للسينما مواردها الخاصة التي تعيش بها ومنها، فرضتها الدولة بقوة القانون على صورة رسوم مباشرة صغيرة ، ولكنها مجزية . ثم رفدت الدولة فضلها ذاك فأقرت للمؤسسة – أو أنها في سبيل أن تقر بعد أيام مما اكتب – معونة مالية تقارب المليون تأخذ بيدها في خطواتها الاولى ، وتقيلها من عثرات التلكؤ والتخبط.

لقد حل اليوم الذي كان محبو السينما يعدون به أنفسهم . فلتنطلق الشعلة ، وليبدأ العمل !

★

في عام ١٩٥٦ اقيم ضمن اطار معرض دمشق الدولي مهرجان عالمي للسينما أسميناه آنذاك الاول ، مهرجان معرض دمشق للسينما أملا في ان يتبعه ثان ، وثالث ، ثم يضحي تقليداً ويستقطب في شآمنا حركة سينمائية ثقافية من الطراز الاول .

وقد نجح المهرجان سنئذ . وشاركت فيه ثلاث عشرة دولة ، وجرت احتفالات ومنحت جوائز ، ماتزال بعض الدول الفائزة وتشد تشير اليها في مجموعاتها السينمائية السنوية حتى يومنا هذا .

وفي السنة التالية ولأسماالغي مهرجان السينما في دمشق، فلا تجدد بهجته وتحرم المدينة ثمرات الخطوة السابقة التي خطتها .

وفي خلال الفترة التي انقضت منذ عام ١٩٥٦ تكاثرت مهرجانات السينما في انحاء العالم على نحو عجيب . ففي كل بلد متقدم مهرجان او عدة مهرجانات ، ومنها مايخص الافلام الطويلة أو الافلام القصيرة ، وهذه تنقسم الى اقسام ، والاقسام الى تفرعات ، والتفرعات الى أصناف ...

وعلام الضجة كلها تدل ؟ انها تدل على مقدار الاعتراف الشعبي والرسمي المتزايد في شرقي العالم وغربيه بقيمة المادة الفيلمية ، وفضلها في نشر الثقافة ... والدعاية . ان الافلام السينمائية . وانما أعني الرفيعة منها التي لاتتاح لنا مشاهدتها دواماً ، لهي علاقات بارزة في طريق التطور الثقافي العالمي.

لقد خسرنا مهرجان السينما ذاك. فمن الذي ربحه ؟

على جري العادة : بيروت !

★

وعلى ذكر المهرجانات ، لابد لنا ان نذكر بان بلادنا لم تكن قط تدعى الى اي من مهرجانات السينما فيما مضى .

ثم كان ان تسامع المهتمون بتتبع الانتاج السينمائي العالمي بالافلام القليلة التي بدأت تنتجها وزارة الثقافة عندنا . وهي ليست على درجة عالية من النجاح ، ولم تتسامق الى مرتبة الكمال . غير انها — فيما يبدو — ذات مستوى يؤهلها لان تستضاف في المناسبات السينمائية العالمية .

وقد كانت السباقة برلين الى دعوة السينما السورية. ثم تبعتها بيروت ، فموسكو .

وفي هذه السنة، ولما تبدأ مؤسسة السينما عملها الانتاجي ، هل اذكر كم دعوة وصلت وزارة الثقافة من ارجاء العالم ؟

حوالي العشر حتى اليوم .

★ ★ ★

تقرير مهم ومطول نشرته منظمة الأونيسكو عن احـــوال السينما في اقطار العرب ، مشرقها ومغربها . هذه خلاصة مقتضبة له :

● في الجمهورية العربية المتحدة : للانتاج السينمائي المصري الآن مكانة كبرى في الشـــرق الاوسط . فلقد تقدمت الوسائل الفنية المستخدمة في الاستديوهات ، وكثرت الخبرات ، غير ان المضمون الذي ترتكز حوله الافلام تنقصه الحرارة الواقعية والجدية ، ويغلب عليه الطابع التجاري والمبالغات الكثيرة غير المعقولة .

● في لبنان : محـــاولات لخلق صناعة سينمائية ... غير انها تنهج المنهج نفسه الذي تنهجه السينما المصرية . فهي في بواكيرها التي ظهرت حتى الآن ، تجارية . غير ان المضمون يمكن أن يكون أكثر جودة .

● في سورية : محاولات فردية قليلة لكن الانتاج الذي ترعاه الدولة جـــدير بلفت النظر ، لانه يعتمد على خبرة درست في الخارج .

● في العراق وتونس والمغرب والجزائر والسودان : محاولات جـــدية ستشكل العمود الفقري من الانتاج العربي في المستقبل .

● في الاردن والسعودية واليمن والكويت وليبيا : لاإنتاج يستحق الذكر .

★ ★ ★

بين الافلام الرفيعة التي لم تصلنا ، ولن تصلنا ، فيلم أنتج منذ سنتين واثار ضجة كـــبرى ، في مختلف الاوساط الفكرية ، هو فيلم « السنــة الفائتة في ماربنباد » .

ولا تاتي اهمية هذا الفيلم من أن مخرجه هو « آلانه رينيه » ، أحد كبار الاسماء الجـــديدة التي أضيفت الى قائمة المخرجين الفرنسيين المبدعين ، قدر ما تأتي من أن مؤلف قصته هو آلان روبه ـــ غرييه .

وروب ـــ غرييه ليس رجل سينما ، بـــل هو رجل أدب . واذا كان أي من كتبه لم يترجم حتى الان الى اللغة العربية ، رغم ان روايتـــه الاولى « الممحاة » قد مضى على نشرها قرابة العشر السنين ، فان أوساط الادب في العالم كله تتحدث عن الثورة التي أدخلها على فن الرواية ، عندما ألغى من الرواية العقدة وفكر في التسلسل الزمني والمكاني .

وقد جاء اثنان من منتجي السينما الى روب ـ غرييه وطلبا اليه تهيئة قصة سينمائية لفيلم روائي طويل . فوافق الكاتب ، ومن ثم اجتمع مرتين أو ثلاثاً بالمخرج قبل أن يوقع العقد .

وكان الاتفاق أن يضع روب ـ غرييه الخطوط الاساسية للقصة ويرسم الشخصيات ويخطط المواقف ثم تسـلم المواد المكتوبة الى المخرج والى كاتب سيناريو متخصص ، فيصوغانها صياغة سينمائية فنية .

وغاب المنتجان ، وسافر المخرج ، واعتكف الكاتب شهوراً ثلاثة .

وما كان عجب المخرج عظيماً ، عندما عاد الى الالتقاء بروب ـ غرييه بعد ذلك ، فقرأ النصوص التي كتبها ، فاذا هي مصوغة في قالـــب سينمائي مكتمل لايتطلب أي تعديل أو تغيير .

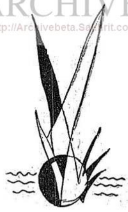
فالـكاتب الروائي ، لم يكتب الخطوط العامة لموضوعه على الصورة المتعارف عليها ، بل قطعها الى لقطات ، وعيّن في كثير من الاحيان زاوية الالتقاط وحـدد موضع الـكاميرا ، وتحركات الاشخاص والحوار الدائر فيا بينهم ، وتغيرات المناظر ... حتى اذا جاء المخرج الى التنفيذ لم يبق امامه الا الاستهداء بالنص المكتوب ونادراً نادراً ، ما استغنى عن موقف أو استبـــدل جملة بجملة .

لقد حاز الفيلم عدة جوائز عالمية ، وهو وان لم ينجح نجاحاً تجارياً مرموقاً ، فقد اعتبر ثورة في السينما وخروجـــا عن اساليبها التقليدية في رواية الحوادث ، شـأن ما اعتبرت روايات آلان ـ غرييه ثورة في عالم الرواية الادبية .

ومع ذلك فروب ـ غرييه لم يتعلم في معهد سينمائي ولا قارب الاستديوهات او عاشر سينمائيين ، بل تلقى ثقافته السينمائية من خـــلال بعض الكتب والمجلات ، وخصوصاً من مشاهدة الافـــلام .

فأين مكمن الاعجاز ؟

انه في عبقرية الكاتب دون شك ومقدرته الخارقة على التمثل ...



هدية مجلة « المعرفة »

الى مشتركيها

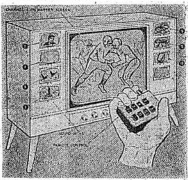
قدمت مجلة « المعرفة » الى مشتركيها في عاميها الاول والثاني هدية قيمة وهي كتـــاب « روضة الورد » للشاعر الفـــارسي الكبير سعدي الشيرازي وقد ترجمه للعربية الشاعر محمد الفراتي . ويقع هذا الكتاب في ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير والطباعة الانيقة والورق الصقيل . ويباع في المكتبات بست ليرات سورية . فيرجى من السادة المشتركين ابلاغ الادارة عن اي تأخير في وصول الهدية اليهم . اما بالنسبة لمشتركي السنة الثالثة من المجلة فسوف ترسل لهم الهدية السنوية الجديدة التي سوف تتقرر في الشهرين الأخيرين من السنة الثالثة أي خلال شهري كانون الثاني وشباط القادمين .

منجزات العلم

ترجمة متري حارزنة

التلفزيون العجيب

يعتبر هوغو جيرنزباك ، صاحب مجلة راديو ايلكترونكس الامريكية من اعظم المفكرين والمخترعين. ويبلغ هوغو التاسعة والسبعين من العمر. وهو الذي اطلق على جهاز التلفزيون اسمه الذي عرف به وهو الذي فكر بالرادار وقضايا انعدام الوزن والفناء ووصف مشاكل السفر عبر الفضاء في سنة ١٩٢٩ . ويصدر جيرنزباك هذا نشرة



تلفزيون ذو شاشات متعددة

في عيد الميلاد من كل سنة يضمنها تنبؤاته العلمية ويصف فيها بعض المخترعات التي ستظهر للوجود قبل التوصل الى اختراعها بعدة سنوات. والجدير بالذكر انه تنبأ بان جميع الزنوج سيكون لهم ابناء بيض البشرة في تاريخ لن يتعدى سنة ١٩٧٢ اذا مارغبوا ذلك .

ومنذ عهد قريب طلع على العالم بفكرة اختراع تلفزيون متعدد الشاشات بحيث يمكن لعدد من المتفرجين بان يشاهدوا البرامج على القناة التي يختارونها . والجهاز الذي يشير اليه جيرنزباك يتألف من عدد من الشاشات الصغيرة بعدد من القنالات في تلك المنطقة يبلغ قطر الواحدة منها (٣) انشات بالاضافة الى الشاشة الكبرى في الوسط .

ويختار كل عضو من اعضاء العائلة القنال الذي يريده . اما الاصوات فيمكن سماعها بواسطة سماعات توضع على الاذن وبهذا تحل مشاكل اختلاف افراد العائلة بشأن البرامج المختلفة التي يميلون اليها . وقد اطلق جيرنزباك على جهازه الجديد اسم ملتيبلكس فيديو Myltiplex Video .

عملية جراحية فذة يقوم بها طبيب من الاكوادور تثير اعجاب علماء الطب في العالم

اصيبت ذراع بحار من الاكوادور في حادث انفجار قنبلة اطارت يده ورسغه . فنقل المصاب المدعو جوليو لونا الى عيادة الطبيب روبرتو جيلبرت فاجرى له عملية تعتبر الاولى من نوعها في العالم . فقد عمد الجراح المذكور الى زرع يد رجل آخر قد توفي في نفس الوقت الذي وقع فيه الحادث ، وبعد استئذان عائلة المتوفي وبعد ان علم ان دمه من نفس فصيلة دم جوليو .

وتم زرع اليد المذكورة بعد الحادث بعشر ساعات كاملة واستغرقت العملية الفذة احدى عشر ساعة . والجدير بالذكر ان البحار المصاب



البحار لونا وذراعه الجديدة

استطاع ان يحرك اصابع يده الجديدة والدماء تجري فيها فور الانتهاء من العملية . فقد تمكن الجراح الكبير من وصل الاوردة والشرايين بنجاح . وتمكن البحار من السير في غرفته دون ان يعلم بالعملية التاريخية الفذة التي اجريت له . الا ان اليد الجديدة المزروعة كانت تبدو اكبر قليلا واكثر سمرة من يده الاولى . ويعتقد جوليو بان ذلك يعود الى اعادة يده التي بترتها القنبلة . ويرى الاطباء ان اعلامه بالحقيقة قد يسبب له عقدة نفسية .

وقد طار عدد من كبار الجراحين العالميين الى الاكوادور ليقفوا بانفسهم على دقائق العملية الجراحية الفذة التي تجري لاول مرة في تاريخ الطب في العالم .

اثر رؤية العنف على المتفرجين

تدل الاختبارات التي اجراها لفيف من علماء النفس ، على ان العنف واعمال القسوة التي تصور في جهاز التلفزيون او شاشة السينما او تمثل على المسرح تترك اثرها في نفس المتفرج . فقد تثير البعض وتدفعهم لان يقوموا بارتكاب اعمال مماثلة .

غير ان القدماء ، امثال ارسطو ، كانوا يرون بان مشاهدة مثل هذه الافعال من شأنها ان تهيىء المتفرج الفرصة لتطهير نفسه من مثل هذه الميول والانفعالات . فقد ذكر ارسطو في كتابه « فن الشعر » بان الدراما « من شأنها ان تثير الرعب او الشفقة في نفوس المشاهدين فتطهرهم من مثل هذه الانفعالات » . وقد اطلق على عملية التطهير هذه اسم « Catharsis » وهي الكلمة

اليونانية للطهر . ولاتزال فكرة ارسطو هذه مثار نقاش وجدل بين العلماء فمنهم من يقول بان اعمال العنف قدتدفع بالمتفرج لان يقترف اعمالا شبيهة بهذه ان عاجلا او آجلا اما الفريق الآخر فيرى رأي ارسطو في انها تتيح الفرصة للمتفرجين لان يطهروا انفسهم من نوازع العنف الكامنة في طوايا نفوسهم حين يشاهدون الاخرين يقومون باقتراف مثل هذه الاعمال حتى ولو كان هؤلاء مجرد ممثلين . ويرى عالم نفساني آخر مشهور بان اعمال القسوة التي تمثل في الافلام السينمائية عبارة عن مدرسة للاعداد للانحراف والاجرام. ويرى هذا المحلل النفساني بان الاشخاص الذين ليسوا على قدر من النضج العاطفي او غير المستقرين عاطفياً ، قد يتأثرون مؤقتاً فتؤدي رؤية اعمال العنف بهم لان يعبروا عن عواطفهم المكبوتة باقتراف اعمال مضرة بالمجتمع .

وقد اجرى علماء النفس مؤخراً عدة تجارب مخبرية لاثبات صحة هذه النظريات. فثبت لهم بان مشاهد العنف تترك اثراً بالغاً في نفوس المتفرجين فيظل اثر الانفعال قائما مابقي المتفرج واقفا تحت تأثير المشهد . وثبت لهم كذلك بان مثل هذه المشاهد قد تكون في بعض الحالات بمثابة مطهر للنفس مما علق فيها من شوائب اذ ان مثل هذه المشاهد تكون لهم بمثابة منبه من مغبة اقترافها . ويعني هذا ان ميل المتفرج لاقتراف اعمال عنف مشابهة لما يشاهده ابعد واقوى كلما كان المتفرج عاطفياً .

اصل الانسان أو اخوة الدم

اذا ما امعنا النظر في الحيوانات العليا الموجودة على جانبي الاقفاص في حديقة الحيوان، لا تضح لنا ان هنالك تشابهاً رئيسياً بين الانسان والشمبانزي والغوريلا . الا ان هذه العلاقة الدقيقة التي كانت موضع نقاش وجدل بين العلماء ، اخذت تظهر بوضوح بعد قيام هؤلاء العلماء في اجراء سلسلة من التجارب والبحوث العلمية التي اثبتت وجود هذه العلاقة الوثيقة بصورة راسخة لا يتسرب اليها الشك . والطريقة الحديثة التي اتبعها العلماء لاتثبت وجود التشابه او العلاقة بين الانسان والقرد فحسب ، بل تثبت ان هذه العلاقة بينهما اوثق واقرب مما كان يظن في السابق من ناحية الشجرة العائلية . فيقول العالم الكيماوي زوكر كاندل بان الغوريلا عبارة عن انسان شاذ او ان الانسان غوريلا شاذ .

ويطلق العلماء على طريقة البحث العلمي الجديد اسم « علم الانسان الجزيئي » (Molecular Anthropology) وتتلخص في القيام باجراء بحث علمي في علاقات الانسان التطورية بواسطة تحليل البروتين الذي تنتجه جميع الحيوانات داخل خلاياها . وبسبب تركيب جزيئات البروتين المعقد ونماذجها المميزة ، وجدوا انه من المستحيل وجود حيوانات لاعلاقة بينها ، يملكان بروتيناً متشابهاً بمجرد الصدفة . (فكل جزيئي من الزلال يحتوي اكثر من عشرين الف ذرة) ويذهب هؤلاء

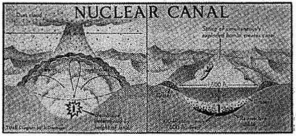


نماذج من بروتين الدم للانسان والغوريلا تبين القرابة في الشجرة العائلية

العلماء الى القول بان وجود هذا التشابه دليل القرابة . فكلما كان التشابه اكثر كانت العلاقة والصلة اقرب واوثق . فالتشابه الكبير الموجود بين الانسان وقرود افريقيا يبعث على التساؤل عن الزمن الذي تم فيه تفرع سلالة هذين المخلوقين عن الجد الاول فجعل كلا منهما يسير في طريقه . والنظرية القديمة كانت تقول بان هذا تم قبل ثلاثين مليون سنة . اما البحوث الجديدة التي تعتمد على تقارب الدم وتشابه جزيئات البروتين فتدل على ان ذلك تم قبل مدة لا تزيد على الخمسة ملايين سنة .

الطـــاقة النووية في حفر القنوات والطرق المائية العالمية

منذ نشوب الاضطرابات الاخيرة في منطقة قناة بناما وعلماء الذرة الاميريكيون يعكفون على دراسة مشروع حفر قناة اخرى في مكان آخر بواسطة الطاقـــة الذرية . ويرى هؤلاء ان لابد من استخـــدام المتفجرات النووية اذا ما أريد التخلي عن القناة الحالية وحفر قنـــاة اخرى غيرها . فيؤكد هؤلاء العلماء بان عمليات الحفر بواسطة التفجيرات النووية ان تكلف مبالغ تزيد على تكاليف عمليات الحفر العادية .



حفر القنال بواسطة القنابل النووية

وعلماء الذرة متفائلون من نجاح المشروع وذلك بناءاً على عدة اختبارات سابقة تم فيها حفر قنوات وحفر عميقة للغاية نفسها بواسطة المتفجرات النووية والمواد الكيماوية في صحراء نيفـــادا . فقد تمت اولى هـــذه العمليات في سنة ١٩٥١ بواسطة قنبلة ذرية قدرت فعاليتها بـ ١٠٢ كيلو طن . وتمكنت هذه القنبلة من احداث حفرة عمقها (٥٣) قدماً وقطرها ٢٥٨ قـدماً . أما العملية الثانية فاحـــدثت نفس المفعول غير ان القنبلة وضعت في مكان اعمق فحفرت حفرة اعمق واعرض . اما اعظم عمليات الحفر فكانت عملية (سيدان) التي استخدم فيها (١٠٠) كيلو طن و (داني بوي) التي استخدم فيهـــا قنبلة من (٤٠٠) كيلو طن سنة ١٩٦٢ . واثبتت هذه العمليات ان المتفجرات النووية لها نفس المفعول في الصخر الصلد كما في التراب الطري ، ويكون مفعول القنبلة اعظم كلما وضعت عميقاً في جوف الارض . ويرى هؤلاء العلماء بأن لاخطر من الاشعاعات النووية او انبار الذري وذلك لأن قوة الانفجار تقذف بكميات كبيرة من التراب والصخور التي تتساقط على الارض فتدفق معها الغبار الذري . اضف الى ذلك ان استخـدام القنابل النظيفة سيبعد الخطر . اما الخطر الوحيد الذي قد تتعرض له المنطقة فخطر تصدع المنازل وتهدمها من جراء الهزة الارضية التي قد يسببها الانفجار . ولكن الخبراء يستبعدون مثل هذا الخطر ، وذلك لأن القناة ستكون في منطقة خالية من السكان ، ويقول الدكتور جيرالد جولـون بان الذرة ارخص وسيلة سلمية للقيام بمثل هذه العمليات الجبارة . ويعتقد الخبير المذكور بانه حفر قناة مثل قناة بناما لن يكلف اكثر من (٥٠٠) مليون دولار ويحتاج الى (١٧٠) ميغا طن من المتفجرات اي (١٧٠) مليون طن .

اكتشاف بقـــع حمراء مشعة على سطح القمر

تمكن علماء الفلك من مشاهدة بقع حمراء تشع بين الحين والآخر على سطح القمر بواسطة تلسكوبات جبارة . فقد اعلن العالمان الفلكيان غرين اكر وادوارد بار بانهما شاهدا ثلاث بقع حمراء تشع مدة عشرين دقيقة . واكتشف غرين اكر بقعة اخرى حمراء متوهجة يبلغ طولها اثني عشر ميلاً تقريباً .

وذكر العالم بويس من علماء مرصد بيركنز بأنه لاحظ وجود نشاط في القمر قرب بركان ارستارخوس ولكنه لم يتمكن من تعيين مكانه بدقة . واختفت البقعة المذكورة بعد ساعة وربع .

كان علماء الفلك يظنون حتى تاريخ هـذا الاكتشاف الفذ بان لا نشاط بالمعنى الجيولوجي المعروف ، على سطح القمر . وفي سنة ١٩٥٨ استطاع العالم الفلكي السوفيتي كوزيريف مشاهدة وميض منبعث من قمة بركان الفونس . وذكر كوزيريف فيما بعد ، بانه شاهد مرتين في عام ١٩٦١ ما يشبه انفجار ذرات الهيدروجين تنبعث من ارستاخوس . ويدعي العالم الفلكي اوري بان هذا التوهج الذي شوهد على سطح القمر ، قد يكون مبعثه نوع من الكاربون غير موجود على ارضنا .

هورمونات كياوية يكشفها علماء الصين في القرون الوسطى

تشير احدى الكتب الصينية المترجمة الى العثور على وثيقة ترجع للقرن السادس عشر ، تثبت بأن الصينيين قديماً عرفوا فوائد الهورمونات في معالجة المرضى الذين يشكون العقم قبل الف عام . ويقول لوغوي دجن ونيدل هام الاستاذان في جامعة كيمبردج بان العالم الصيني لي شي شن ذكر في كتابه الطبي الذي الفه سنة ١٥٩٦ ، تفاصيل وافية لتحضير الاندروجين (هرمون الذكر) والاستروجين (هورمون الانثى) . وذكر العالمان المذكوران ست طرق لتحضير الهورمونات اخذت جميعها عن المؤلفات الصينية القديمة . وتنص هذه الطرق على استخلاص الهورمونات المطلوبة من كميات كبيرة من بول الذكور والاناث القاصرين أو البالغين على السواء . وابسط هذه القواعد توصي بغلي البول حتى يتبخر تاركا وراءه الرواسب غير النقية . أما في الطرق الاخرى فقد كانت تستخدم مواد كياوية مثل كبريتات الكالسيوم تؤدي الى ترسيب المواد النقية . وكانت الرواسب توضع في ماء يغلي لفصل المواد القابلة للذوبان عن المواد غير القابلة . فتمكن الكياويون الصينيون القدماء من تحضير الهورمونات اللازمة بعد استخلاصها من الرواسب .

ولم يتمكن العلم الحديث الا في سنة ١٩٢٧ فقط من اكتشاف وجود الهورمونات الجنسية في البول وعلى الاخص في بول الحبالى . والجدير بالذكر ان الطريقة الحديثة لا تختلف كثيراً عن الطريقة الصينية القديمة التي توصل اليها الصينيون بعد ان اكتشفوا وجود التفاعل المستمر بين جميع اعضاء الجسم البشري عن طريق الدم . وقد تمكن العلماء الصينيون القدامى من اكتشاف العلاقة القائمة بين الدم والبول ، وان البول يكون عادة من نوع الدم وانه يحتوي على نفس الخصائص التي تكون في الدم عادة .



جولة الشهر مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها فؤاد الشايب

مجتمعات الشعوب المتخلفة

بعد ان المنا في الجولات التسع السابقة بملامح المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية، وعلى الأخص بملامح التحولات الكبرى التي تتعرض لها ـ ننتقل الى مجتمعات الشعوب المتخلفة لنتعرف الى انطباع الملامح الرأسمالية والاشتراكية فيها بآثارها وردود فعلها ـ وسنرى هل هناك طريقة ثالثة ، تسير فيها هذه الشعوب نحو تحرير ارادتها وتوطيد كيانها واغناء اقتصادها وتطوير مجتمعها .

مدخل الى المشهد العام

لا يعيب الشعوب المتخلفة ، كما قد يظن بعض رجالها وباحثي اوضاعها ومصايرها ، أن توصف بأنها متخلفة ، ولا يستر تخلفها أن نصفها بانها نامية . أو آخذة بالنمو ، أو منطلقة ، أو صاعدة لأنها بالواقع متخلفة Under - developped كما توصف بالمصطلح الاجنبي ، اقتصاديا واجتماعيا ، مهما يكن من أمر عزمها وارادتها وفورة عزتها ومهما يكن بعد ، من أمر استقلالها السياسي ، او طموحها الوطني أو القومي .

ان معظم هذه الشعوب في آسيا وافريقية ، قد ظفر بالاستقلال ، وتمكن من اقامة حكم وطني ، وسيادة سياسية ، على ارض ذات حدود ، وشعب ذي سمة

وكيان ، حتى ان هـــذا العصر ، ليصح بأن يوصف بأنه عصر استقلال الشعوب ، بقدر مايوصف بأنه عصر الذرة ، وفي معظم هـذه الدول الحديثة العهد بالحرية والاستقلال يسود الارض محراث خشبي ، بينما تغص انديتها ومحافلها بالنخبة من مثقفيها وقادتهـا ، يتحدثون عن (ميل) و (بنتام) و (برودون) و (ماركس) و (لينين) و (تيتو) و (ماوتسه تونغ) .! منهـا ، هذه الشعوب ، من يفتش عن ايديولوجية تنظم حياته ، وتربط مجموعات افكاره ومنها من أشاح عن البدء من البداية ، ليغرس الصوى على جانبي الطريق ، دونما حاجة اوشعور بالحاجة ، الى دليل او الى معلم في غرس الصوى وتحديد معالم الطريق. منها من هو ذو طبيعة تأملية ، وروح صوفية ، يقول عنها مراقبوها الاجانب أنها على طرفي نقيض مع طموح التقدم ، ومادية البناء الاقتصادي والاجتماعي ، ومنها هذه الشعوب ، من يدخل في التجربة المادية الرهيبة مع المحراث الآلي المقدس بلا تأمل ، وبلا تردد ، مثيراً الغبار ، او نافخاً في النار ، مستوحيــاً التجربة نفسها ، وعاقداً رجاءه على وحي واقعهـا ودروس نجاحها واخفاقهـا . فمن وثق بنفسه وبقوة سلطانه وباستمرار حكمه ، كانت التجربة له خير معلم ، واقدس واعظ. وهو ماض بها عنيداً مطمئنا ، ومن تراءبقت بين كفيه كيمياء السلطان ، كان اكثر شعوراً بالحاجة الى ايديولوجية ، يمارس بها سحراً اعلامياجديداً على بسيكولوجية الجماهير ، ليطمئن الى قاعدة ، تؤكد له منطق الانطلاق وتزين له مخاطره . ولا يضير هذا انه ايديولوجي ولا ذاك انه تجريبي أو ان احدهما او الآخر ذو ازدواجية تجريبية ايديولوجيـــة ، غير واضحـــة بعد ، طالمـا أنهما في سبيلهما معاً نحو توطيد الحد الادنى من الاستقرار الذي لاغنى عنه من أجل الانطلاق . وان تكن نظرية الانطلاق الحديثة في النمو ، تؤكد ان قاعـــدة الاستقرار هي اقتصادية ، لا سياسية كما كان الظن فيما سبق ، فما لاريب فيـه ان منطلق الشعوب المتخلفة هو الاستقرار

السياسي اولا (١). بمعنى ان الكيان قد تركزت اسباب وجوده، وبقائه وتوضحت اهدافه البعيدة بله القريبة، وان التجاوب الضمني او الصريح بين الرأي العام ونخبة القيادة، قد قبل اسباب الوجود وتبنى اهدافه القريبة والمنظورة على الاقل يبقى ان هذا الاستقرار السياسي، لن تمتد قاعدته الارض من تحتها، الا بجذور اقتصادية ذات امتداد اجتماعي شامل، بحيث يرتبط ولاء الجمهور للدولة باكثر من رابطة تاريخية معنوية وجدانية يعني بروابط المواطنية، والمصلحة المشتركة.

وعندما نقول بروابط المواطنية، والمصلحة المشتركة، تعزز ما بين ابناء المجموعة القومية الواحدة من روابط تاريخية تقليدية، او تصححها احيانا، فلأن الدولة الحديثة، مهما يكن ماضيها التقليدي جليلا، لا غنى لها عن انشاء هذه العلاقات الجديدة، لتكون أساس الولاء السياسي، بالنسبة لمجموعات قبلية، او طائفية، او اتنوغرافية اقليميـة، او اقتصادية اجتماعية، لا بد من فكها عن ولاءاتها الصغيرة، وعنعناتها السائدة، ليصبح **ولاؤها الاول، ان لم يكن الاوحد للدولة والكيان الوطني الجديد**. ومن هنا تبدو لنا اهمية السياسات والنظم الاجتماعية العادلة السمحة، بالنسبة للشعوب المتخلفة، أو الحديثة الاستقلال، سواء أألبسناها هذه النظم وصف الاشتراكية أم لم نفعل ـ من حيث انها لا تقصر اهدافها على الانتاج والتنمية، ورفع مستوى الدخل ونشر التعليم وما الى ذلك، بل تضع في المقام الاول هدف تكوين الولاء القومي، وسلامة الوحدة الكيانية.

ثلاثة نماذج من المجتمعات المتخلفة

نحن أمام درجات متفاوتة من النمو ومن التخلف، عندما نلقي نظرة على تلك العوالم الشاسعة في آسيا وافريقية، وامريكا اللاتينية (٢)، ايضاً التي اصطلح على تسميتها

(١) «فتش عن الملك السياسي اولا، وكل الاشياء الاخرى ستتجمع له».
ـ كوامه نكروما ـ

(٢) لاتزال دول امريكا اللاتينية تصنف ـ على الاقل اقتصاديا ـ في عداد الدول (النامية) بالرغم من مرور اكثر من قرن على استقلالها.

احياناً بالشعوب المتخلفة، واخرى بالشعوب النامية Developpig كذلك نحن امام فروق شديدة التباين، في اعمار الاستقلال ومساحات الارض، واعداد السكان ومصادر الثروة، وحداثة التكوين او عراقة الاصل والتقاليد، وتوافر اسباب الوحدة القومية او اصطناعها. انما جامعة التخلف التي تجمعها وتدمغها معاً، ان سكانها ومواطنيها، سواء أكانت الدولة عريقة ام مستحدثة، صغيرة باربعة ملايين ام كبيرة بار بعمائة مليون، مستقلة منذ عامين، ام مستقلة منذ مئة عام، ان سكانها ومواطنيها هؤلاء انما يصيب الجهل والفقر الشديد اكثريتهم، بدءاً من ستين بالمئة وما فوق.

او ان الحكم الوطني في احدى هذه الدول، سواء أكان قد استتب له الأمر السياسي بالقوة ام بالرضى، لم يستطع ان ينشىء اقتصاده الوطني، او ان يتحكم بمجمل ثروته القومية. فهو في فوضى من أمره من جهة، وفي عجز امام طغيان رؤوس الاموال الاجنبية وسياساتها، على اقتصاده الوطني من جهة اخرى.

وقد تكون الدول المتخلفة، مصابة بالحالتين المرضيتين معاً، وهناك البكاء وصرير الاسنان.

وغالباً مايصنفنا دارسو مجتمعاتنا ومستحاثاتنا، — نحن ابناء المجتمعات المتخلفة — في نماذج ثلاثة من المجتمعات:

أ — مجتمع تقليدي عنيف المحافظة قبلي عائلي، يحتفظ قادته بسلطاتهم المطلقة، ويشدون عليها بالنواجذ — كما نقول — كلما تراءى لهم أن قوى (التعصير) تدهمهم في عقر الدار، وتهدد سلطانهم، حتى ليبدو لهم أن (الترازستر) شيطان لبس قبع الاخفاء!

يقول دارسو المستحاثات ان هذه مجتمعات على وشك الزوال، ويجب ان تزول بسرعة تخفف بعض طول الآلام التي تنهش شعوباً مسكينة تدفع وحدها ثمن الانحصارات التقليدية وامجادها. ويقول العاثرون على رواسبها وهياكلها ان بقاءها حتى الآن مخالف لمنطق الانقراض الطبيعي.

ويذكرون من القبائل، والحكومات، والشعوب، اسماء، مما سمعنا به او لم نسمع في عالمنا الآسيوي الافريقي.

ب — مجتمع تقليدي متجدد ، يدعو قادته الى الاصلاح ويخلصون في الدعوة ، ويشعرون بالحاجة . على أنهم لا ينطلقون من نقطة اللوح الممسوح ، بل يقيمون الاصلاح على توازن بين الجديد والقديم ، أو على مصطلح تركيبي مزجي بينهما . وتذكر اسماء اعلام لهم ايد في تكوين مجتمعات مثل هذه ، كأسماء غاندي الذي نظم الفقر ، وحشد العادات في معسكر نضال سلبي ضد الاحتلال الانكليزي ، لا مثيل له في تاريخ العالم الجديد — وايوب خان خريج جامعات لندن الذي واءم بين الاسلام والعصرنة من جهة ، وبين الديموقراطية الفرنسية ، ونوع من التمثيل الشعبي ذي الوحدات الصغيرة في باكستان ، من جهة اخرى. و (ليوبولد سنغور) رئيس جمهورية السنغال ، خريج سوربون باريس ، الذي يعلن انه من الممكن تخريج (ديموقراطية افريقية) من مزيج الثورتين الفرنسية والروسية ، فلا تكون هذه الديموقراطية مائعة كديموقراطية الجمهورية الفرنسية الثالثة والرابعة ـ اذ لا غنى للحكم الافريقي الوليد عن الاستقرار أولا ـ كما لا تكون هذه الديموقراطية ، ايديولوجية واقعيا دكتاتورية فئة حاكمة ، كما هي الحال في دول دكتاتورية البروليتاريا . وان [illegible] الخبز حياة الانسان .. حقاً ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان (١) . وان القيم الروحية سلاح بيد الافريقي وغذاء لنموه وضمان لانتصاره .

ج — مجتمع اصلاحي جذري أو ثوري — وسواء أكان معتدلا ام متطرفاً فان قيادة هذا النموذج من المجتمعات ان لم تقض قضاء مبرماً على مصادر السلطات التقليدية ، من عائلية الى طائفية الى اقتصادية اجتماعية ، فانها تعزلها عن ممارسة نفوذ كبير اجتماعي او سياسي. وتختلف نماذج هذه المجتمعات ايديولوجيا وعملياً اختلاف اشتراكية الهند عن شيوعية الصين ، وكلاهما في صنف النماذج الاصلاحية الجذرية . كما تدخل في هذا

(١) يستشهد (سنغور) بجملة من خطاب خروشوف جاء فيها : « ان تصفية الستالينية ، فرضها الشعب ، فرضها الظمأ الى الحرية ، والجوع الى الغذاء الروحي »

الصنف دول افريقية حديثة الاستقلال مثل غانا وغينيا ، برئاسة نكروما ، وسيكوتوره ، ودول امريكية ، مثل كوبا برئاسة كاسترو .

وان تكن هذه المجتمعات تخضع لتأثير الثقافة الاوروبية الماركسية ، وتنزع قياداتها نزوعاً اشتراكياً واضح السمات والملامح ، فانها كلها تقريباً — في آسيا وافريقية ومن الشرق الادنى الى الشرق الاقصى ، ماعدا الصين ، ترفض الاخذ بمجموع الماركسية او بمجموع اللينينية كاملا ، كما تمارس مثلا في الاتحاد السوفيتي او في الصين الشعبية . كذلك فانها ترفض رفضاً قاطعاً الاخذ بمجموع الايديولوجية الديموقراطية البرلمانية الغربية . وهي في رفضها المزدوج ، على كل حال ، اقرب الى اشتراكية شعبية ، ذات مجالس متعددة يمارس الشعب بواسطتها تجربة الديموقراطية الموجهة ، منها الى ديموقراطية الاكثرية البرلمانية ذات المجلس الواحد ، الممتنع غالباً على المواطن العادي الطامح الى أداء خدمة عامة .

ملامح وتفاصيل

وهنا أشعر مع القارىء اننا يجب ان نقف معاً ، لنتأمل طويلاً ملامح هذه المجتمعات من النموذج الثاني والثالث على الاخص . وقبل ان نفعل ، لا بد من التنبيه الى أن الجزء المتمم للبحث بعد قبولنا تصنيف هذه النماذج من الدول المتخلفة او النامية كما رأينا — هو في استعراض الاهداف المشتركة ، والمبادىء العامة التي تجمعها ، أو تجمع على الاصح ، نموذجيها الاخيرين ، بالرغم من تباين ايديولوجياتها او مستوياتها ودرجات نموها ، او ظروفها التاريخية . وعندما نقول بمبادىء واهداف تجمعها وتشد نضالها من اجل مزيد من الحرية ومزيد من النمو ومزيد من العدل والاستقرار ، لا بد من الملاحظة ان ثمة عوامل اساسية ، قامت وراء الفروق والتباينات ، كعوامل التكوين والنشوء ، وعوامل المستويات الاقتصادية والاجتماعية الى عوامل الجوار والبيئة الاقليمية ، أو الدولية . مثال ذلك ان تكون الباكستان كدولة دينية ، كان التجمع الديني مبرر

نشوئها وانفصالها واستقلالها ، لن تبلغ في تجددها وتعصير مؤسساتها ، حد" رفض الدين شعاراً لتكاملها وتقدمها الاجتماعي وهي بذلك تختلف عن الهند ، كما تختلف عن تركيا مثلا . وقد يكون موقع كوبا الجغرافي الاستراتيجي، تجاه امريكا ، هو الذي حكم بنشوء الكاسترية الاشتراكية المتطرفة ، بينما كثرة الانقلابات في جمهورية البيرو اللاتينية ، حكمت بنشوء مثقف مناضل ديموقراطي الاشتراكية مثـــل (فكتور هايا دولاتوره)[1].

والآن ، ماهي ملامح هذه المجتمعات؟! وبالاحرى ماهي علاماتها الفارقة؟![2]

في البدء واولا يجب ان نستبعد اي نقد ماركسي لهذه المجتمعات على أنها تمسخ الماركسية وتجتزىء ايديولوجيتها . وفي حدود ما اعلم ان الجانب من هذا النقـد ضئيل جدا ، بخلاف الجانب الآخر من النقد الديموقراطي ـ الذي يجب ان نرفضه ايضا ـ وهو ليس بقليل عديد رجاله الذين غالباً مايتهمون قادة هذه المجتمعات الجديدة بممارسة دكتاتورية شخصية لاتلبث ان ترمي بدولهم في احضان الشيوعية .

وهنا حق علينا أن نذكر بأن عدد

---

(١) في حياة هذا المثقف المناضل (دولاتوره) تبرز اقسى ملامح المجتمع في امريكا اللاتينية ، فقد نجح (دولاتوره) مرتين عام ١٩٣١ ثم عام ١٩٦٢ في انتخابات رئاسة الجمهورية كمرشح لهـا ، وفي المرة الاولى الغت الانتخابات ، الحكومة التي اجرت الانتخابات ، واحالت المرشح الناجح الى السجن ، قبل اعلان النتائج ، وفي المرة الثانية ، تم اعلان النجـاح ، ولكن انقلابا مفاجئاً عطل النتائج واطاح بالرئيس المنتخب خارج بلاده .

وتقوم نظرية (دولاتوره) الاشتراكية على تعاون العمال والفلاحين والطبقة الوسطى ، لمـكافحة الامبريالية ، والشيوعية معاً ، ومكافحة الامبريالية ضرورة اولية ، لأنها في الدول المتخلفة هي المرحلة الاولى من مراحل(الرأسمالية)اي انه ينسب الرأسمالية الى(تكوين خارجي) اكثر مما ينسبها الى(تكون داخلي).

(٢) لن اتحدث عن المجتمعات العربية ـ تفصيلاً ـ بين هذه المجتمعات الأسيوية الافريقية ، فمن المرجح ان الملامح العامة التي أسجلها ستشمل العربي منها وغير العربي ، لاسيما وان المجتمعات العربية انما تمر بالتجارب نفسها وتعاني المعضلات اياها . وغالبـــاً ماتخرج بنفس المخارج ، وتقف نفس المواقف .

الدارسين والمؤرخين ، والمثقفين الأجانب الذين يعطفون على حركة هذه المجتمعات في تكونها وتثبيت اقدامها ، يتزايد يوماً بعد يوم ، ويتميز هذا الفريق من البــاحثين الحياديين بتقرير حكم جمـــاعه أن ليس ضروريا ، ولا منطقياً ان تباشر هـذه المجتمعات تجربة الديموقراطية العربيـــة الليبرالية . وليس حتمياً كذلك انتمارس تجربة دكتاتورية البروليتاريا ، لتصنف في عداد الدول الاشتراكية . بل انالبدائية السياسيةوالاقتصاديةالاجتماعية التيتوصف بهافي اولى مراحل الانطلاق ، لاتوجب فصلها عن التجربتين المتعاكستين فحسب بل تلزم بأن تتحرى لنفسها مايلائمها من لبوس . وفي جملة من آراءهؤلاءالباحثين الحياديين **أن كلا من النظامين الرأسمالي الليبرالي ، والاشتراكي الشيوعي ، يجب أن يتنازل عن رغبته العليا في أن يرى نظام المجتمع الجديدهذا ، مطبوعاً عليه ، منسوخاً عنه**

وبالواقع فان السمت الذي مشت نحوه مجتمعات الشعوب ، من متخلفة او نامية ، من كبيرة او صغيرة ، لم ينتظر ظهور الفلك الحيادي ، لتلجأ اليــه هذه المجتمعات او لتقوى به ، بل هو عناد هذه الشعوب في التمسك باستقلالها السياسي ، والاقتصادي والثقافي معاً ، الى جانب ظهور شخصيات قيادية فيها ، تزعمت فعلا مدارس فكرية سياسية حرة عرفت بها من بعد ، على نطاق عالمي ، قد خلق فعلاً هذه الفسحة الكافية ليتكىء المناضل الجديد بمرفقيه عليها من فوق منبر عالمي ، يطل على الاحداث ، ولا يتكور تحتها متسقطاً فضلاتها من كلام أو من طعام .

وقد يلاحظ الباحث ، عبر استعراضه حركات النمو والتقدم الجديدة في افريقية وآسيا ، أن انعكاس هـذه الحركات على المجتمع الامريكي اللاتيني نفسه ، ليس ضئيلا ولا عابراً . بل لن تكون ضئيلة حركة زحف كتلة بشرية ذات مليار ونصف المليار من البشر ، نحو نقطة الانتصاف من قلب العالم .

لنعد الى نقطة الهدف من هـــذا الموضوع في أن المجتمعات المتخلفة ، قد اختارت الحرية في اختيارها انظمة حكم مستقلة غير منسوخة ودساتير اقتصاد واجتماع تحمل طابع الواقع المحلي ، اكثر

مما تحمل من طابع التسويق الخارجي، وانها قد شقت طريقها بين نظامي الديموقراطية الرأسمالية ، والدكتاتورية البروليتارية ، ووجدت طريقاً ثالثة حقاً ، قد تكون في نظر بعض اوبسار ، طريق الضلال ، والهرطقة والنشوز . لنعد ، الى هذه النقطة من الموضوع ولنحلل البواعث والعلامات الفارقة :

ان اهم ماتتميز به الانظمة السياسية الاجتماعية ، لدى معظم الدول النامية فيما عدا الدول التي يسيطر عليها الحزب الشيوعي ، أو لاتزال تحت جناح النفوذ الاستعماري أن اشتراكيتها وان تأثرت بالماركسية كتفسير مادي للأحداث السياسية والاجتماعية في التاريخ ، فلا تقبل منطقها في قياس المستقبل على الماضي ولا حركتها الديالكتيكية ، في لزوم الصراع الطبقي وتتابع نتائجه بتغليب الطبقة البرولتارية وقبول دكتاتوريتها (١)

ثم انها من جهة ثانية ، ترفض تنحية القيم الروحية عن حركة النمو الاجتماعي والاقتصادي (٢) لان الافريقي المتخلف ، الحاصل على حريته واستقلاله ، والآخذ بتنسم ريح الحرية، بعد أن قضى دهوراً في حضيض الذل ، يشعر من الاعماق ن تسلحه بسلاح المادة لن يملأ جوانب

---

(١) من نماذج هذا الاتجاه، الرئيس الافريقي (سيكوتوره) الذي يعتبر نفسه اشتراكياً ماركسياً ، لكنه لايقبل بنظرية الصراع الطبقي في بلاده . وهو يقول ان الافريقي يرفض الصراع الطبقي ، لتشابه شروط الحياة بين الطبقات الاجتماعية ، ولعدم وجود الفوارق البعيدة المؤدية الى التناقض الطبقي .

حتى حينما يوجد هذا الصراع بسبب وجود الفروق الطبقية الشاسعة فان الدولة الاشتراكية في هذه المجتمعات عندما تملك وسائل الانتاج وتتحكم بتوزيع الثروة ، فانها تبطل سبب الصراع الطبقي ، وتضع اسس الوحدة الوطنية ، بحيث يغدو المجتمع لاطبقياً ، أي غير خاضع لسيادة أي طبقة من الطبقات بورجوازية كانت أم برولتارية .

(٢) يقول الرئيس نكروما ـ مثلاًمن الأمثلة : أنا اليوم مسيحي غير طائفي ، وماركسي اشتراكي ، ولم أجد اي تناقض بين الاثنين .

سنعقد في جولة قادمة بحثاً خاصاً عن الحزب الواحد وتعدد الاحزاب ، وعن الحكم والمعارضة ،في نظريات فريق من رجال القيادة والثقافة في المجتمعات الافريقية والآسيوية ، واللاتينية .

حياته ويعيد له جوهر كرامته ، ولن يضعه حيث يجب ان يكون فعلا ، فوق القوة والسلطان وما يتيحانه من أسباب القهر والتدمير . على ان هذا لا يعني ان الافريقي او الاسيوي الجديد ، يدبر للقوة ادبار الهاربين ، أويزور لها ازورار الصوفيين والزهاد الناسكين .

على ان هـذا الرفض لبعض جوانب الماركسية ، انما يقابله لدى دول النموذج **الثالث** من هذه المجتمعات ، واحيانا لدى دول النموذج الثاني ، رفض كامـــل للديموقراطية الرأسمالية الغربية ، من حيث **تعدد احزابها** كنظام سياسي ، ومن حيث **تخبط اقتصادها** وفق هوى السوق الحرة ومضاعفاتها ، كنظام اقتصادي ، ومن حيث **دخول النفوذ الاستعماري وراء رؤوس الاموال** ، تسللا او فتحاً ، كنظام في التعامل الدولي .

وواضح ان رفض الجوانب الثلاثة من الديموقراطية الغربية ، كنظام للعمل به او التعامل معه ، انما يساعد المجتمع الجديد في ان ينظر بوضوح الى مستقبله القائم ايضاً على ثلاثة اعمدة : **الاستقرار** **تسريع النمو ، والحذر من التسلل الاجنبي الغادر عن أي طريق ، سياسي أو ثقافي أو اقتصادي .**

ان تجربة المجتمع الاسيوي الافريقي ، مع الاستعمار الغربي طوال اربعة قرون قد خلفت في روحه من العقـــد بقدر ما خلفت في جسده من الجراح واكثر . فان تكن حسنـــات الديموقراطية ، كما تراها هي فضائل عليا تفاخر بها العالم ، فهي ليست كما يراهـا الاسيوي الافريقي في تاريخـــه المظلم ، وحاضره الشاحب ، سوى خدع وأحابيل : فالديموقراطية ذات الاحزاب المتعددة انما يريد بها الغرب المستعمر من الشعوب المتخلفة ، ابواباً مفتوحة يدخل منها بكل شرعية وشرف الى مراكز النفوذ ، عن طريق المستضعفة قلوبهم . ثم انها مضيعة للوقت ، ومهدرة للجهد ، حين يجب ألا تضيع الثانية والا يفرط بحركة اصبع .

أما الديموقراطية ذات السوق الحرة يسودها العرض والطلب وحدهما فليست سوى ملهاة جميلة لخداع الجماهير الفقيرة في المجتمعات المتخلفة . ان انتاجها سقيم هزيل

ولا يدور العرض والطلب الا حول السلع المستوردة المفروضة اسعارها على اقتصاد عاجز. ان المجتمع التخلف، الذي قدر ان رعاياه في آسيا وافريقية واللاتينية، أكثر من نصف سكان العـــالم، لا يكاد يبلغ دخل الفرد منهم مئة دولار سنوياً، انما هم بحاجة الى من يقول لهم ماذا يجب ان ينتجوا، وماذا يجب أن يستهلكوا. وبفرض ان السوق الحرة يجب ان تبقى، وان الجهد الفردي او رأس المال الوطني لا غنى عن ان يؤخذ بيده ويشجع فلا بد الى جانب هذا وذاك من ان تقوم الدولة بممارسة التجارة والصناعة والزراعة مع فرض التوجيه الاقتصادي بالتخطيط، ولا غنى عن ان يكون التخطيط شـاملاً للحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. سواء اكان النظام اشتراكياً، ام لم يكن.

وأما التعامل مع الدول الرأسمالية، في ذهن الافريقي الآسيوي — واللاتيني مؤخراً والى حـد ما — أن رأس المـال مرادف ازاماً للاستعمار وللربح الفاحش حتى ان رأس المال الوطني نفسه، لا يمكن ان يذهب ولاؤه للحوض الذي ينموفيه، ويتجر معه، لانه بفطرة تكوينه وبنظام حركته، انما هو عضو في العصابة الدولية العالمية التي تعيش ابداً خارج الحدود، أي حدود.

وان يكن في هذه المرارة الحادة تجاه رأس المال أثر عقلي كبير من ضراوة ماركس ولينين، في تحليل طبيعة رأس المال، وتوأمية رأس المال والاستعمار، فما لاريب فيه أيضاً ان تاريخ الشعوب الملونة مع ليل الاستعمار الطويل، لا تجهله قيادات النضال، وليس عن شقائها غريبا. وسواء بدا كتبه قلم ماركس ولينين بالاحمر القاني، أم تناقلته روايات باكية حزينة، تنشدها الثكالى همساً في خنادق الغابات.

هذا هو الواقع الذهني الاسيوي الافريقي لدى مثقفي القارتين الملونتين، سواء أكانت الثقافة فرنسية كثقافـــة سيكوتوره — غينيا — يُو (سنغور) — السنغال — أم امريكية كثقافة نكروما — غانا — أم بريطانية كثقافة جوليوس نيريره — تنغانيكا — وسواء اكان المناضل ابن زعيم قبيلة مثل (نيريره)، أم ابن فلاح مثل سيكوتوره.

أما الواقع الاجتماعي الذي تغلب على الصورة الذهنيــة الماركسية ، بسبب أن المجتمع كما يقول سيكوتوره، قريب الفروق متساوي المستويات ، وبسبب ان الصناعات والتجارات الأفريقية قد ساهمت في حركات التحرير وأبلت ، وضحت ـ نقول ان الواقع الاجتماعي هذا ، بالاضافة الى رغبة القيادات في تأليف الوحدة الوطنية ، على اللاطبقية ـ كما يقول نيريره ـ قـد افسح المجال في معظم المجتمعات الافريقية ، لحركة رؤوس الأموال الوطنية ، تجارة وصناعة . وهي على كل حال صناعات وتجارات غير نامية تنشد عون الدولة بالقروض، ودعم نموها بالحماية .

هذا فـيما يمس رأس المال ، نظريا وواقعيا . على ان المجتمع الافريقي الاسيوي اذا وقف مع (الدولة الرأسمالية) نفسهـا في نقطة التماس ، فلا مناص من أن يتطير ، ويقبض ساعديه الى صدره حذراً . ان الدولة الرأسمالية ليست في نظره وواقعه سوى غزوة من اجل سوق جديدة تبيع فيها الفائض من انتاجهـا ، وشراء المواد الخام بابخس الثمن ـ اوليست الدولة سوى ارسال رؤوس اموالها ديدبانا يدب ، وحية تسعى . فان تعط الدولة الرأسمالية اليوم، فهي تعطي من مال سرقته بالأمس ، ولن ترد سوى بعضه ، او تمنح الا من فتاته . واذا لم تعط، فهي مثابرة على سياسة الحصار التي تخضع بها المحتاجين وتذل رقابهم .

أما وأن هذه المجتمعات المتخلفة، بحاجة الى العون المـادي ، والى رؤوس اموال توظفها في استثماراتها الكثيرة ، فان اسلوب العون اصبح شائع الاستعمال ، بعد طويل من المساومات وهو اسلوب المنح دولة لدولة وكفؤاً لكفء ، بشروط واضحة التعامل والتبادل ، دون رؤوس اموال اجنبية ذات مؤسسات ومنظمات وامتيازات .

ان القنفذ الافريقي الاسيوي ، قد كون ذكاءه وابتكر لنفسه فنه ، لفرط ماشاهد دخول الارانب الامريكية اللاتينية الجميلة حية الى اوكارها في اشداق الافاعي وعدم خروجها ثانية ...!

ثم وسواء بعد ، أأتت المساعدات من دول رأسمالية ، ام من دول اشتراكية فقد اذعن الجميع ، او كادوا أن يذعنوا أو هم قد اذعنوا متظاهرين صاغرين الى أن

هذه الشعوب العاصفة ، انما تمشي في طريق ثالثة حفرتها في رؤوس جبالهـــا ، اعماق غاباتها ، وابعاد صحاريها ، ولن ترضى عنها بديلا . وهي ترجو الدول العظمى صاحبة الرغبات السامية ، أن تحتفظ لنفسها بمثالياتها وسلوكياتها وارسالياتهــا ، او فلتحتفظ باموالها ومساعداتها .

طريق ثالثة حقاً ولا عجب ! اذ يبدو أن العالم الضخم الكبير الذي يسير في طرق متوازية لا يمكن ان تلتقي سيجد مطارح للالتقاء ذات يوم ، في مرحلة مامن مراحل الطريق الثالثة .

الجولة القادمة

ان محاولتنا في الجولة القادمة او الجولتين ، على الاكثر ، ستتناول ملامح الحيــــاة الاجتماعية والاقتصادية في هذه المجتمعات الجديدة ، والنظم السياسية التي تحكمهـا ، والافكار التي تنبع منها تلك النظم .

فهرس عام

الصفحة

بالماء تحيا اسرائيل ٦
الدكتور عبد الله عبد الدائم
.... بيروت ـ اليونسكو

العرب والاعراب في نظر الاسلام ١٥
يحيى الجبوري
.... بغداد

ومضات من تاريخ العرب ٢٢
مع بني عباد في اشبيلية ـ ٢ ـ
سامي الكيالي
.... حلب

الطريق الى النجوم ـ ٢ ـ ٣٨
المهندس حيدر طوابيشي
.... دمشق

لمحات افريقية ٤٦
اثر الاسلام والمسيحية في القارة السوداء
للكاتب الصومالي الدكتور جون فياني
.... الصومال
ترجمة قلم التحرير
عن الانكليزية

تمثالي ـ شعر ـ ٥٦
أمين نخله
.... بيروت

الزهاوي والتجديد ٥٩
في الادب العربي في العراق
الدكتور يوسف عز الدين
.... بغداد

اقتراحات حول اصول بعض الألفاظ الأجنبية ٦٥
الدكتور عبد الكريم اليافي
.... دمشق

نجوى وذكريات ٦٨
من نظير زيتون الى شفيق معلوف
.... حمص

حلوى الفقير ــ قصة ــ ٧٩
لهيرمان ملفيل
ترجمة ملك ابيض العيسى
.... حلب

الأم ــ قصة ــ ٩٠
السيدة ام عصام
.... دمشق

الاسلام والتصوير التشبيهي ٩٦
عفيف بهنسي
.... دمشق

الحلم الثالث ٠٦
بقلم غوتنرايش
ترجمة محمد حوب فوزات
.... دمشق

كتاب الشهر

كنايا ١٦
للكاتب الفنزويلي رومولو جاييجوس
عرض وتلخيص الدكتور محمود علي مكي
.... مدريد ــ اسبانيا

المكتبة العالمية

١ ــ المسرحية الانكليزية المعاصرة ٢٥
في نظر النقاد الالمان
٢ ــ مختارات في الشعر والنقد
لهربرت ريد
قلم التحرير

مطالعات في الصحافة الادبية الاجنبية ١٢٩
الاميركية — الانكليزية
حسام الخطيب
.... دمشق

مقابلات المعرفة
الناقد السينمائي الكبير جورج سادول ١٣٤
في حديث خاص عن الفن السينمائي العربي في سورية
من الدكتور سلمان قطاية
.... باريس

رسائل المعرفة
معرض الرسام التونسي ١٣٧
الفنان عبد الوهاب عميش
من عبد الرؤوف الخنيسي
.... تونس

المكتبة العربية ١٤٢
تاريخ الحضارة الاوربية
تالیف کلود دیلماس
ترجمة كوليت حيب
ياسين رفاعية
.... دمشق

عينان بلا لون ١٤٥
تأليف خالد الحلي
ماجد صالح السامرائي
.... بغداد

كتب جديدة ١٤٩
نقد الاعمال الفكرية والادبية ١٥٣
توارد خواطر أم تناقل افكار ؟؟
النسيب في مقدمة القصيدة الجاهلية
حول مقال للدكتور عزالدين اسماعيل
ابو سلمى
.... دمشق